الأستاذ الدكتور

أحمد مختار العبادى

كلية الآداب. جامعة الاسكندرية

فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - الأزاريطة ت: ٤٨٣٠١٦٣

٣٨٧ ش قنال السويس الشاطبى ت: ٥٩٧٣١٤٦

فى تاريخ
الحضارة العربية الإسلامية

الأستاذ الدكتور
أحمد مختار العبادى
كلية الآداب، جامعة الاسكندرية

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبى - ت ٥٩٧٣١٤٦

دار المعرفة الجامعية

للطبع والنشر والتوزيع

---

* الإدارة : ٤٠ شارع سوتير
الأزاريطة - الاسكندرية
ت : ٤٨٢٠١٦٣

* الفرع : ٣٨٧ شارع قنال السويس
الشاطبى - الاسكندرية
ت : ٥٩٧٣١٤٦

الفصل الأول

مفهوم الحضارة ووسائل انتشارها وازدهارها

يصعب على الباحث فى هذا الموضوع أن يضع تعريفًا محددًا لكلمة حضارة لأن مفهوم الحضارة مفهوم واسع ومتشعب، ولهذا نجد أن المؤلفات الكثيرة التى تناولت حضارات الأمم المختلفة لم تتفق على نهج واحد فى تعريف الحضارة ولا فى أسلوب دراستها ولكن على الرغم من ذلك يمكن أن نطلق كلمة حضارة على شيئين أساسيين

١ ـ التقدم والرقى الإنسانى فى مختلف الميادين العلمية والاجتماعية والاقتصادية، ... إلخ.

٢ ـ سلوك الإنسان وأسلوب حياته وتصرفاته ومعاملاته مع غيره ومع نفسه.

والحضارة عمومًا هى عكس البداوة ولعلها جاءت من كلمة الحضور أو التجمع والاستقرار حول شىء هام مثل موارد المياه ومنها جاءت كلمة الحاضرة أو الحضرة بمعنى القاعدة أو المدينة أو العاصمة

ولقد ميز العرب قديمًا بين البدو والحضر أو بين البداوة والحضارة وأطلقوا عليها كلمات فى هذا المعنى مثل: الوبر والمدر والحدر والحجر.

فالوبر هو صوف الحيوانات الذى يصنع منه البدوى خيامه وملابسه فى البادية فالمقصود بالوبر هم أهل البوادى أو البدو، أما المدر فهو كتل الطين المتماسك الذى تبنى به القرى والمدن فالمقصود بأهل المدر هم أهل المدن أو الحضر وقد سميت بعض المراكز الحضارية الخصبة بالمدرة السوداء مثل مصر والكوفة مثال ذلك الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور حينما سبَّ أهل

الكوفة لأنهم حرضوا الإمام إبراهيم العلوى على الثورة مما أدى إلى استشهاده فى باخمرى ١٤٥ فسبهم المنصور بقوله «نخدعه أهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق والفتن أهل هذه المدرة السوداء» أى الكوفة.

فكلمة المدر إذن تطلق على المراكز الحضارية أما الحدر (بالدال) فتعنى الأرض المنحدرة التى لا يبنى عليها وهى تعنى البادية وعلى العكس منها كلمة الحجر التى تعنى البناء والعمران لدرجة أن كلمة حجر فى القديم كانت مرادفة لكلمة المدنية وقد أورد ياقوت الحموى فى كتابه «معجم البلدان» أسماء مدن عديدة فى شبه جزيرة العرب باسم الحجر (راجع مادة الحجر) مثل مدائن صالح والحجرات وحجر الكعبة، والحجر مدينة باليمامة والحجر قرية باليمن، وكل هذا يدل على أن كلمة الحجر ترمز للحضارة والاستقرار.

ويرى ابن خلدون فى مقدمة تاريخه أن البداوة أقدم من الحضارة وأن الترف أو الرفه على حد تعبيره هو غاية البدوى إذ تتوفر له حياة أفضل لأن الإنسان بطبعه يطمع أو يميل دائمًا إلى الأحسن فى أحواله المعيشية لهذا يربط ابن خلدون بين الحضارة والتمدن أى الإقامة فى المدن فيقول بأن الإنسان مدنى بالطبع أى لابدله من الاجتماع الذى هو المدينة وهو معنى العمران.

والإسلام كما نعلم ظهر فى شبه جزيرة العرب التى كانت تتكون من بدو وحضر إلا أننا نلاحظ أن القرآن الكريم ولاسيما الجزء التشريعى أو الحضارى منه، نزل على الرسول ﷺ فى بيئة حضارية وهى يثرب التى سميت منذ ذلك الوقت بالمدينة للدلالة على أنها مقر النبىّ ﷺ بعد هجرته وللدلالة أيضًا على أنها مركز حضارى.

والمدينة لفظ سامى من أصل آرامى والمقطع «دين» منها يعنى العدالة

بمعنى أن ... هي المكان الذى يتوفر فيه العمل والأمن والاستقرار أكثر من أى مكان حر لكونه مقر السلطة الحاكمة ومنه اشتق لفظ التمدن أو التمدين أو المدنية بمعنى الحضارة ويقابله فى اللاتينية Civitas بمعنى مدينة ومنها جاء لفظ City بالإنجليزية و Cité بالفرنسية و Ciudad بالإسبانية كذلك اشتقت منها الكلمات الأوروبية بمعنى الحضارة مثل Civilization.

وتجدر الإشارة هنا إلى أننا كثيراً ما نستعمل كلمة الثقافة للدلالة على الكثير من المعانى التى تعبر عنها الحضارة.

ومعنى كلمة الثقافة فى اللغة العربية هو الصقل والتهذيب فالرمح المثقف هو المصقول أو المقوم أما فى اللغات الأوروبية فنجد أن الكلمة المرادفة للثقافة هى Culture بالإنجليزية و Cultre بالفرنسية و Cultura بالإسبانية أو الإيطالية وهى تعنى فى الأصل الحرث والإنماء وهو ما يفيد ضمناً على معنى الارتباط بالأرض والاستقرار الحضارى Cultivation.

غير أن مفهوم كلمة الثقافة المادى سواء بالعربية أو الأوروبية لم يلبث أن تطور فى عصرنا الحديث حتى صار يعنى حرث العقول وتهذيب النفس الإنسانية وصقلها بالقيم الروحية والأخلاقية والاجتماعية والفنية التى تساعد على رقى الإنسان وتربية ذوقه واكتمال ذاته

وبهذا المفهوم العريض نجد أن كلمة الثقافة تدل على قسم كبير من المعانى التى تدل عليها كلمة الحضارة ولاسيما المعانى الفكرية والروحية والفنية غير أنه يلاحظ أن الحضارة قد تنفرد ببعض المعانى التى لا تعتبر عادة ضمن مفهوم الثقافة مثال ذلك بعض مظاهر التقدم المادى مثل وسائل النقل الآلى والعلم الصناعى أو ما يعرف بالتقنية Technology التى قد تدخل فى مفهوم الحضارة أكثر من دخولها فى مفهوم الثقافة التى تختص بصفة خاصة بالقيم الروحية والأخلاقية والفكرية والفنية ولهذا يميل معظم

المؤرخين إلى الرأى القائل بأن الحضارة Civilization أوسع مداولا من الثقافة Culture، وأيا كان الفرق بين مفهوم الكلمتين فالذى يعنينا هو مفهوم كلمة الحضارة بصفة عامة تمهيداً لعرض موضوعنا الأساسى فى الحضارة الإسلامية.

الحضارة كما سبق أن قلنا كلمة نطلقها على التقدم والرقى الإنسانى فى مختلف الميادين العلمية والاجتماعية والاقتصادية... إلخ بما يسر السبيل إلى حياة إنسانية أفضل.

ابن خلدون فى مقدمة تاريخه التى لم يكتب مثلها فى الإسلام على الإطلاق يطلق كلمة العمران بشكل عام على كل أنواع النشاط الإنسانى الذى يعرفه بالاجتماع الإنسانى ثم يقسم هذا العمران إلى ثلاث مراحل متتابعة:

أولها العمران البدوى والأمم الوحشية والقبائل والمرحلة الثانية العمران الطبيعى لمجتمعات الحواضر والأمصار فى حياتها المعتادة والمرحلة الثالثة ويسميها الحضارة التى هى ذروة العمران ونهايته والتى تعبر عن التفنن والتأنق فى المأكل والملبس والمسكن والمعبد والمصانع المختلفة.

فالحضارة على هذا الأساس هى آخر مراحل المجتمع الإنسانى أو النشاط الإنسانى من حيث التقدم والرقى والازدهار، والنفس البشرية بطبيعتها جبلت على حب الرفاهية وتحقيق عدد لا يحصى من الحاجات والأهداف وكلما حصل الإنسان على واحدة من هذه الحاجات اتسع مجال طموحه إلى ما يليها وهكذا بطريقة لا تنتهى وعلى هذا النهج تسير الحضارات ولهذا قالوا «إن الحاجة هى أم الحضارات الإنسانية».

ونفهم من هذه العبارة السابقة أنه لا توجد حضارة كاملة لأن الكمال المطلق معناه وقف الطموح والتقدم وهذا يتنافى مع سنة التطور ومن هنا

جاءت نظرية التقدم Idea of Progress التي تنادي بحتمية التقدم وأن الأجيال الحاضرة خير من الأجيال الماضية لأنها استفادت من تجارب الماضي واكتسبت خبرات الحاضر.

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأنه لا توجد حضارة من فراغ ولا تظهر حضارة من تلقاء نفسها أو من العدم وإنما سبقتها حضارات هي مصادرها التي أثرت فيها، فالحضارة القائمة تكون دائماً خلاصة الحضارات السابقة مع إضافات جديدة من جهود أبنائها تقدمها للعالم.

فالحضارة إذاً أخذ وعطاء وتأثير وتأثر وتداخل وتفاعل وتبادل وترابط بين القديم والجديد، وهذا التفاعل لا يتم إلا عن طريق انتشار الحضارات ولاشك أن كل حضارة لا تنحصر في الموطن الذي نشأت فيه إذ لابد من اختراق حدود هذا الموطن والانتشار فيما حولها كي تتواصل وتتفاعل مع حضارات الشعوب الأخرى وهذا الانتشار والاتصال لا يتم إلا عن طريق عدة عوامل أهمها الفتوح والغزوات ثم التجارة والرحلات.

فالحضارة العربية الإسلامية قامت بعد حركة الفتوحات العربية إذ هي نتيجة تفاعل مشترك بين العرب الفاتحين من جهة وبين سكان البلاد التي فتحها العرب من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب من جهة أخرى.

عصر الفتوحات (الدولة العربية)

نقف هنا وقفة للتعرف على حركة الفتوحات العربية التي هي أساس الاتصال بالحضارات القديمة كالفارسية والهندية واليونانية واللاتينية والإسبانية وهذه العلوم كانت منفصلة عن بعضها فجاء العرب واستوعبوها في قالب واحد.

والفتوحات العربية كانت ضرورة حتمية نتجت عن إرادة التغيير النابعة من روح الدين الجديد (الإسلام) التي أشعرت العرب بذاتهم التي كانوا

غافلين عنها ﴿كنتم خيرَ أمةٍ أُخرِجتْ للنّاسِ تأمرونَ بالمعروف وتَنهونَ عن المُنكَرِ وتؤمنونَ باللهِ﴾ فدفعتهم إلى تلك الحركة التوسعية الكبرى التى شملت بلاد المشرق والمغرب.

هذه الحركة التوسعية الكبرى تم معظمها فى عهد الدولة العربية وهنا يحق لنا أن نتساءل ما هو المراد بالدولة العربية؟ المراد بالدولة العربية هى الدولة التى قامت بقيام الإسلام واتسعت بالفتوحات الكبرى التى قام بها العرب أيام الخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية ثم انتهت الدولة العربية بسقوط الدولة الأموية ١٣٢هـ/ ٧٤٩م، فالدولة العربية إذاً هى ظاهرة تاريخية مركبة نبتت صغيرة أيام الدعوة الإسلامية ثم أخذت تنمو وتتسع أيام عمر بن الخطاب وعثمان فى عصر الخلفاء الراشدين ثم فى أيام الوليد بن عبد الملك فى عصر الخلافة الأموية حتى شملت أجناس المشرق والمغرب.

وهكذا نجد أن الدولة العربية مرت فى ثلاث مراحل: مرحلة الدعوة الإسلامية ومرحلة الخلفاء الراشدين ثم مرحلة الخلافة الأموية ـ فكانت الدولة الأموية هى المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل نمو الدولة العربية وقد انتهت على أيدى العباسيين ١٣٢هـ/ ٧٤٩م.

ولقد وصفت هذه الدولة بالعربية لأن الجنس العربى هو الذى كان حاملا لواءها ومصرفًا لشئونها حتى نهاية الدولة الأموية فلما قامت الدولة العباسية آل الأمر إلى الأعاجم أو إلى الشعوب التى تحولت إلى الإسلام كالفرس والترك والبربر... إلخ. وقد لاحظ المؤرخون هذا الفرق بن الدولتين فقالوا إن دولة بنى العباس دولة إسلامية ودولة بنى أمية دولة عربية.

الدولة العربية سقطت على أيدى العباسيين ١٣٢هـ كما سبق أن قلنا وسقوطها فى حد ذاته أمر طبيعى لأن الدولة ـ كما يقول ابن خلدون ـ كالأفراد والكائنات الحية تمر فى أدوار ومراحل مختلفة من نمو وقوة

وضعف ثم فناء إنما المهم هنا ما تتركه هذه الدولة من آثار إيجابية تخلد ذكراها وبهذه الآثار المادية أو المعنوية يمكن للمؤرخ أن يحكم على هذه الدولة إن كانت قد نجحت أم فشلت، بالنسبة للدولة العربية فهي دولة إيجابية ومآثرها كثيرة نكتفي بذكر أهمها وهي:

أولا. الدولة العربية قامت بحركة الفتوحات الكبرى التي زادت في مساحتها وقد تم ذلك في دورين أساسيين:

الدور الأول: من سنة ١٢ إلى ٣٢هـ في عصر الخلفاء الراشدين وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب بصفة خاصة وشمل فتح العراق من أيدي الفرس بعد موقعة القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص ١٦هـ/ ٦٣٧م وفي نفس الوقت تقريبًا فتحت الشام من أيدي الروم أو البيزنطيين بعد نصر اليرموك بقيادة خالد بن الوليد وأبي عُبيدة بن الجراح ١٥هـ/٦٣٦م، وتلى هذا النصر عقد مؤتمر عسكري ١٨هـ/٦٣٩م لقادة العرب في بلدة الجابية بالجولان في جنوب شرق دمشق حضره الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه وفي هذا المؤتمر تقرر فتح مصر بقيادة عمرو بن العاص الذي سبق له في الجاهلية أن زار مصر وخبر مسالكها، وكانت مصر تابعة للبيزنطيين، . استطاع عمرو بن العاص أن ينتصر عليهم في معركة بابليون (عند رأس الدلتا) وأن يستولي على البلاد في أواخر ٢١هـ/ ٦٨١م وأن يؤسس مدينة الفسطاط ثم تلى ذلك بالاستيلاء على إقليمي برقة وطرابلس ٢٣هـ لتأمين حدود مصر الغربية من خطر الروم الذين كانوا يحكمون المغرب الأدنى (أو ما يسمى بأفريقية) وكان يخشى أن يحاولوا استعادة مصر من هذه الجهة الغربية.

أما الدور الثاني للفتوحات، فقد تم في عصر الدولة الأموية وفي عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك بصفة خاصة، ففي الشرق فتحت بلاد خراسان وما وراء النهر (نهر جيحون) في أواسط آسيا على يد قتيبة بن مسلم وإقليم

السند فى شمال غرب الهند على يد محمد بن القاسم الثقفى. وفى الغرب تم فتح المغرب والأندلس (إسبانيا) على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد

وهكذا نرى أن الدولة العربية استطاعت بهذه الحركة التوسعية أن تدفع بحدودها شرقًا إلى أواسط آسيا وغربًا إلى المحيط الأطلسى.

ثانيًا : الدولة العربية صبغت هذه المساحة الشاسعة من الأراضى بالصبغة العربية وذلك عن طريق نشر الجنس العربى فى أنحاء تلك البلاد فكثير من القبائل العربية قد تركت موطنها الأصلى فى الجزيرة العربية وهاجرت إلى البلاد المفتوحة بقصد المعيشة فيها والدفاع عنها واتخاذها وطنًا لها.

فهذه الهجرات العربية لم يكن الغرض منها استغلال البلاد وثرواتها كما يفعل المستعمرون حديثًا وإنما كانت تهدف إلى الاستقرار فيها والاختلاط بأهلها والمشاركة فى تعميرها فهو استعمار بمعناه الحقيقى أى تعمير وإنشاء على غرار ما فعله الإغريق والفينيقيون القدماء حينما ضحوا بوطنهم فى سبيل المعيشة فى البلاد التى فتحوها ونشر جنسهم وثقافتهم ودينهم فيها، ومن ثم تكونت الشعوب الإسلامية.

ثالثًا: إلى جانب انتشار الجنس العربى، حرصت الدولة العربية على نشر اللغة العربية فى أنحاء البلاد المفتوحة، عن طريق تعريب الدواوين الحكومية والمصطلحات المالية.. ففى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان وأبنائه من بعده، حلت اللغة العربية محل اللغات المحلية التى كانت سائدة فى إدارة تلك البلاد، كاليونانية والفارسية واللاتينية والقبطية. وكذلك ضرب الدينار الذهبى العربى والدرهم الفضى العربى وحل محل العملة البيزنطية فى مصر والشام والعملة الفارسية فى إيران والعراق. وكان من نتيجة هذه السياسة العربية أن أقبل الناس على تعلم اللغة العربية للعمل فى دواوين الحكومة من

جهة ، ولفهم القرآن وتعاليم الإسلام من جهة أخرى. هذا إلى جانب الفائدة الاقتصادية التى عادت على الدولة من جراء هذا العمل الشجاع. لأنه من المعروف أن الذهب معدن لين، وأنه لابد من خلطه عند ضربه نقوداً بمعادن صلبة رخيصة كالنحاس فالدولة البيزنطية حينما كانت عملتها الذهبية Nomisa, Dinarius هي السائدة في بلاد المسلمين كانت تحاسب الناس على أساس أنها من الذهب الخالص، وتحتفظ لنفسها بفرق وزن العملة، وهو كسب كبير، ولعل هذا كان من الدوافع التى جعلت الدولة العربية تقدم على ضرب الدينار العربى ليحل محل الدينار البيزنطى لكى تستفيد هي من فرق وزن العملة. فعبد الملك بن مروان هو أول من ضرب نقوداً قومية عربية للدولة الإسلامية.

رابعًا: من مآثر الدولة العربية اهتمامها بجمع أجزاء القرآن الكريم المتفرقة. ففى خلافة أبى بكر شعر المسلمون بضرورة الحاجة إلى نص قرآنى مضبوط بجمع كل أجزاء القرآن المدونة وغير المدونة خصوصًا بعد مقتل عدد كبير من حفظة القرآن فى حرب الردة. فعهد أبو بكر بهذه المهمة إلى زيد بن ثابت كاتب الوحي للرسول. فتولى زيد جمع السور المكتوبة على الجريد والأحجار وقطع الأدم بالإضافة إلى ما كان يحفظه الرجال فى صدورهم وذلك فى صحائف أو صحف ولهذا سمى مصحفاً غير أنه يبدو أن جماعات من المسلمين المحاربين فى الشام ومصر والعراق وفارس وجدوا لديهم أجزاء من القرآن يختلف الواحد منها عن الآخر فاشتد الخلاف بينهم ولهذا لم يتم جمع القرآن فى كتاب واحد إلا فى خلافة عثمان بن عفان الذى عهد بهذه المهمة إلى جماعة من كبار الصحابة من بينهم زيد بن ثابت، فبلغت ١١٤ سورة ، ٦٢٣٦ آية وسمى هذا القرآن بمصحف عثمان، وكتب منه أربع نسخ بالخط الكوفى غير المنقوط، ووزعت على المدينة ودمشق والبصرة والكوفة.

خامساً: من مآثر الدولة العربية أيضاً اهتمامها بتدوين الحديث الشريف، فمن المعروف أن المسلمين الأوائل تجنبوا بأمر من الرسول تدوين الحديث «خذوا عنى ولا تكتبوا» وذلك لكى لا يشغل المسلمون بشىء آخر غير كتاب الله، وظل الحال على هذا الوضع معظم القرن الأول الهجرى غير أن هذه السياسة لم تمنع بعض المسلمين من كتابة بعض الأحاديث النبوية بصفة شخصية - وكانت النتيجة أن وضعت أحاديث نبوية لا يعرفها كبار الصحابة والتابعين، لهذا رأت الدولة الأموية جمع وتدوين الأحاديث الصحاح وذلك فى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز.

والأحاديث النبوية تعتبر نموذجاً للبلاغة واللغة العربية الفصحى، فهى تلى القرآن من هذه الناحية فضلا عن أنها المصدر التشريعى الثانى للإسلام بعد القرآن لهذا أقبل الناس على دراستها وساعد ذلك على انتشار اللغة العربية بين المسلمين ونبغ بعد ذلك فى العصر العباسى عدد كبير من الموالى المهتمين بدراسة الأحاديث النبوية الشريفة مثل الإمام الليث بن سعد المصرى (ت ١٧٥هـ)، وأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى (٢٥٦هـ) صاحب كتاب «الجامع الصحيح»، ومسلم بن الحجاج النيسابورى (ت ٢٧٠هـ) صاحب «الصحيح» المعروف باسمه «صحيح مسلم».

سادساً: يقترن عصر الفتوحات العربية بإنشاء المدن والمراكز العمرانية الإسلامية وهو أمر طبيعى بعد أن اتسعت رقعة الدولة واتصال العرب ببيئات حضارية متقدمة. ولاشك أن البناء والعمران من مستلزمات التحضر، وعلى هذا النحو أقام العرب بعد افتتاحهم بلاد الشام والعراق وفارس ومصر والمغرب والأندلس، أقاموا فيها مدناً عسكرية لتكون بمثابة معسكرات للجند من ناحية ومركز إشعاع لنشر اللغة العربية والدين الإسلامى فى البلاد المفتوحة من جهة أخرى. وأولى هذه المدن مدينة البصرة التى اختطها المسلمون فى جنوب العراق أيام عمر بن الخطاب، ومدينة الكوفة التى اختطها سعد بن

أبي وقاص بأمر عمر بن الخطاب أيضًا سنة ١٧هـ وكذلك أسس عمرو بن العاص بعد فتحه لمصر سنة ٢١هـ مدينة الفسطاط لتكون عاصمة جديدة بدلاً من مدينة الإسكندرية العاصمة القديمة. ولما فتح عقبة بن نافع بلاد المغرب الأدنى (أفريقية) أسس فيها مدينة القيروان سنة ٥٠هـ وتلاه حسان بن النعمان الغساني الذى بنى مدينة تونس سنة ٨٤هـ وأنشأ فيها دارًا لصناعة الأسطول ولما عبر طارق بن زياد إلى إسبانيا أسس على ساحلها الجنوبي مدينة الجزيرة الخضراء ٩١هـ Algeciras لتكون قاعدة لجيوشه في حالة الهجوم أو الانسحاب كما أسس غربها القائد طريف بن مالك القاعدة المعروفة باسمه حتى اليوم طريف Tarifa للغرض العسكرى نفسه ٩١هـ ولما قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير خلفه على ولاية الأندلس ابن عمته أيوب بن حبيب اللخمي الذى بنى في شمال إسبانيا ٩٧هـ قاعدة تعرف باسمه حتى اليوم وهى قلعة أيوب Calatayud وهى الآن مدينة كبيرة عامرة جنوبي سرقسطة كذلك بنى الزعيم المغربي سالم بن ورعمال المصمودى وهو من قادة الرعيل الأول مدينة سالم Medinaceli شمال مدريد.

وهكذا نجد من كل ما تقدم أن الدولة العربية كانت لها سياسة عربية مرسومة وموضوعة وقد نجحت في ذلك نجاحًا كبيرًا بحيث أصبحت لغتها العربية أداة التخاطب الوحيدة بين أبناء العالم العربي إلى اليوم وهذا يعتبر من مآثرها كدولة عظيمة.

عصر المزج والازدهار الحضارى (الدولة العباسية):

قامت الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية ١٣٢هـ/ ٧٤٩م وامتد حكمها خمسة قرون إلى أن سقطت على أيدى المغول بزعامة هولاكو حفيد جنكيز خان ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وعلى الرغم من أن الأسرة العباسية الحاكمة كانت أسرة عربية هاشمية تنحدر من سلالة العباس بن عبد المطلب عمّ الرسول ﷺ إلا أنها اعتمدت على الشعوب والأمم التى تغلبت عليها

العرب. وكانت هذه الشعوب عريقة فى حضارتها فهناك الحضارة الساسانية التى سادت العراق وفارس وكانت تحتفظ بتراث أسيوى خاص ساهمت فى تكوينه الحضارتان الصينية والهندية بنصيب وافر، وهناك الحضارة البيزنطية التى سادت فى الأقطار المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط، وهى حضارة ذات أصول يونانية وشرقية لأن البيزنطيين والرومان من قبلهم كانوا تلامذة لليونان وكانت الإسكندرية وحران والرها وأنطاكية من أهم مراكز الثقافة اليونانية الرومانية فالعرب رغم تراثهم القديم الذى تمثل فى حضارات معين وسبأ وحمير فى بلاد اليمن وحضارة الحجاز التى اشتهرت بنشاطها التجارى والدينى إلا أنهم وجدوا فى البلاد التى فتحوها حضارات متطورة راقية وإدارت حكومية منظمة ونظم اقتصادية متفوقة فى الزراعة وأعمال الرى والصناعة وفى ميادين العلوم العقلية والتجريبية كالرياضيات والفلك والفيزياء فاغترفوا منها بما يتفق مع تقاليدهم وعقيدتهم.

وهكذا نرى أن الدولة العباسية باعتمادها على الموالى من الفرس والترك وغيرهم من العناصر غير العربية عملت على مزج وصهر هذه الشعوب فى البوتقة الإسلامية العربية مما أدى إلى سرعة انتشار الإسلام بين هذه الشعوب من جهة والاتصال المثمر بين الثقافة العربية القديمة والدين الإسلامى والتراث الإغريقى والفارسى والهندى من جهة أخرى.

فإذا كان للدولة العربية فضل الفتوح والانتشار والتعريب والاتصال بالحضارات القديمة مما أدى إلى ظهور المنابت الأولى للحضارة العربية الإسلامية فى أواخر عهدها ـ فإن للدولة العباسية فضل رعاية هذه المنابت الحضارية والعمل على تنميتها وازدهارها حتى صارت عاصمتها بغداد المدينة الممتازة Cilé par Excellence على غيرها من المدن فى العلوم والصناعات والفنون المختلفة.

فالعرب نقلوا وترجموا وعرّبوا هذا التراث القديم إلى لغاتهم حتى إذا ما

استوعبوا ما نقلوه أخذوا ينتجون ويبدعون ويضيفون حتى قدموا للعالم ما عرف بالحضارة العربية الإسلامية وهى الحضارة التى توفرت لها تلك المزايا الثلاث التى لا تتوفر إلا فى الحضارات الكبرى ، الامتياز، والأصالة والإسهام فى تطور البشرية.

لهذا أجمع العلماء على أن الحضارة العربية الإسلامية تحتل مكانة رفيعة بين الحضارات الكبرى التى ظهرت فى تاريخ البشرية كما أنها من أطول الحضارات العالمية عمراً وأعظمها أثراً فى الحضارة الحديثة.

الفصل الثانى

الحياة العلمية فى الإسلام

ميز كتاب المسلمين بين العلوم التى تتصل بالقرآن الكريم والإسلام، وبين العلوم التى أخذها العرب عن غيرهم من الأمم. ويطلق على الأولى اسم العلوم النقلية أو الشرعية، بينما يطلق على الثانية العلوم العقلية أو الحكمية، ويطلق عليها أحيانًا علوم العجم أو علوم الأوائل أو العلوم القديمة. وتشمل العلوم النقلية: الفقه، التفسير، القراءآت، الحديث، اللغة، الأدب، التاريخ، الجغرافيا.

وتشمل العلوم العقلية: الفلسفة، الرياضيات، الفلك، الكيمياء، الطب، الموسيقى.

وقد اهتم العباسيون منذ بداية دولتهم بتشجيع الحركة العلمية وشملها برعايتهم. ويعتبر عصر الخليفة العباسى الثانى أبى جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٤-٧٧٥م) عصر ازدهار للحركة العلمية بصفة عامة سواء أكانت نقلية أم عقلية، واشتهر فيه عدد كبير من العلماء والفقهاء والأدباء واستمرت هذه الرعاية وهذا الازدهار فى عهد خلفائه من بعده كما هو مبين فيما يلى:

أولا ـ العلوم النقلية:

١ ـ علم الفقه Jusisprudence:

المراد بكلمة الفقه فى الأصل هو العلم بالدين والفهم له، ثم صارت الكلمة تطلق على البحث فى الأحكام الشرعية، أى معرفة حكم الدين فى

القضايا والأمور التي تحدث للمسلمين سواء في قضايا دينهم (العبادات)، أو في قضايا دنياهم (المعاملات). والقرآن هو أساس الفقه الإسلامي، وكان المسلمون في عهد الرسول ﷺ يتلقون الأحكام منه وهو يبينها لهم شفهياً. فلما توفى الرسول رجع الناس في أحكامهم إلى مصدرين أساسيين: القرآن والسنّة، وتلاهما الإجماع، وهو المصدر الثالث من مصادر الفقه الإسلامي في التشريع، ويراد به إجماع العلماء وأئمة الدين على قضية لم يرد فيها نص. وأخيراً كان القياس أو الرأى وهو المصدر الرابع، وهو قياس حادثة طارئة على حادثة فيها نص أو إجماع لاتحاد الصلة فيهما. غير أن المسلمين توسعوا في القياس وأطلقوه على الاجتهاد فيما لا نص فيه أى جعلوه مرادفاً للرأى وخاصة أهل العراق الذين اعتمدوا على الرأى والقياس وإمامهم في ذلك هو أبو حنيفة النعمان (ت ١٥٠هـ) وكان ذلك طبيعياً بسبب قلة رواية الحديث عندهم لبعد العراق عن موطن الحديث وأهله أى الحجاز، وبسبب تعقد الحياة وتطور المدنية في البيئة العراقية لكونها مجمعاً لمختلف الجناس والملل والنحل مما أدى إلى ظهور قضايا ومشاكل جديدة لا تنطبق عليها النصوص وتحتاج إلى وضعها محل الاجتهاد والحكم فيها عن طريق الإستنباط العقلى القائم على المنطق الدقيق وهو القياس أو الرأى.

أما علماء الحجاز وإمامهم مالك بن أنس الأصبحي (ت ١٧٩هـ) فكانوا على النقيض من أهل الرأى في العراق، فلم يرضوا عما استحدثه الأحناف من أقيسة ذات طابع فلسفي وتمسكوا عند إصدار أحكامهم بنصوص القرآن والحديث وعمل أهل المدينة أى جارى العرف عندهم. غير أنهم مع ذلك لم ينكروا الرأى والقياس. بل لجأوا إلى استعماله في حدود ضيقة وهو ما يعرف في أصول المذهب المالكى بالمصالح المرسلة أو الاستصلاح. وكان طبيعياً أن تكون المدينة المنورة مركز أهل الحديث، فالنبيّ ﷺ كان فيها أكثر أيام التشريع، كما كان بها من الخلفاء الراشدين أبا بكر

وعثمان. وكذلك كان المدنيون أعرف بما كان النبيّ يفعله في وضوئه وصلاته وزكاته وما كان يفعله كبار الصحابة. زد على ذلك أن الحياة في الحجاز في العصر العباسي لم تتطور تطوراً كبيراً عما كانت عليه زمن النبيّ من حيث البساطة والبعد عن التعقيد. لهذا كان ما أثر عندهم من حديث كثير كافياً في أغلب الأحيان لحل ما يعرض لهم من إشكال.

وهكذا ظهرت في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور مدرستان فقهيتان: مدرسة أهل الحديث في المدينة المنورة وعلى رأسها الإمام مالك بن أنس، وهو عربي يمني الأصل، ومدرسة أهل الرأي والقياس في العراق وعلى رأسها الإمام أبو حنيفة النعمان وهو فارسي الأصل.

والواقع أن المذهب المالكي والمذهب الحنفي يتفقان معًا في العمل بكتاب الله وسنّة رسوله وأقوال الصحابة والتابعين، ولكنهما يختلفان في فهم واستنباط الأحكام الشرعية وتطبيقها.

والإمام أبو حنيفة ولد بالكوفة سنة ٨٠هـ ودرس في مدرستها ثم عاش في بغداد محترفًا التجارة بجانب حياته العلمية، وتوفى بها سنة ١٥٠هـ ومقامه معروف هناك في حي الأعظمية (نسبة إلى لقبه الإمام الأعظم). ولم يصل لنا أي كتاب في الفقه لأبي حنيفة ولكن تلاميذه كانوا يدونون أقواله.

أما معاصره الإمام مالك بن أنس الأصبحي فهو عربي يمني الأصل، عاش في المدينة المنورة وسمع الحديث من شيوخها ومات بها ودفن بالبقيع سنة ١٧٩هـ. ومن أهم آثاره التي وصلت إلينا كتاب في الفقه والحديث معاً سماه «الموطأ» أي السهل الواضح، رتب فيه أبواب الفقه على الحديث بمعنى أنه ذكر أبواب الفقه المختلفة كالصلاة والزكاة والصوم والحج والمعاملات... إلخ ثم ذكر الأحاديث النبوية المتعلقة بكل موضوع من هذه الموضوعات الفقهية. ويقال أن الخليفة أبا جعفر المنصور هو الذي طلب منه

وضع كتاب في الشريعة فوضع هذا الكتاب ولقد انتشر المذهب المالكي في الأندلس (إسبانيا الإسلامية) على أيدي تلاميذه أمثال يحيى بن يحيى الليثي (عاقل الأندلس) في عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل الأموي، وكذلك انتشر في بلاد المغرب إلى اليوم.

ولقد كان لكل من الإمامين أبي حنيفة ومالك محنة وذكريات أليمة مع الخليفة المنصور. فيروى أن الخليفة طلب من أبي حنيفة أن يتولى القضاء فرفض خوفًا من أن يتدخل في أحكامه فأمر المنصور بحبسه ثم عفا عنه بعد ذلك أما الإمام مالك فقد اتهم بتأييده لثورة العلويين التي قامت في المدينة سنة ١٤٥هـ بزعامة محمد النفس الزكية (حفيد الحسن بن علي بن أبي طالب)، إذ كان الإمام مالك يقول للناس إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين أو طلاق. وكان يقصد من وراء ذلك أن من بايع المنصور مكرهًا فله الحق أن يتخلى عن بيعته ويبايع الإمام محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الملقب بالنفس الزكية.

وغضب المنصور لهذه الفتوى وأوعز إلى والي المدينة جعفر بن علي العباسي بجلده ويقال أن المنصور تبرأ بعد ذلك من هذا العمل وألقى تبعته على والي المدينة وطيب خاطر الإمام مالك، غير أن هذا الحادث كان من ضمن الأسباب التي أدت إلى انتشار المذهب المالكي في البلاد المعادية للعباسيين مثل المغرب والأندلس

وإذا كان كل من المذهبين الحنفي والمالكي قد قُدِّر لهما الانتشار والبقاء إلى يومنا هذا مع المذهبين الآخرين اللذين جاءا عدهما وهما مذهب الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ) ومذه الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، فإن هناك مذاهب فقهية أخرى لا تقل عنها قيمة قد ظهرت في عهد الخليفة المنصور أيضًا ولكنها انقرضت لعدم وجود تلاميذ مخلصين ينشرونها ويدافعون عنها.

ومن أشهر هذه المذاهب السنية المنقرضة مذهب عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي إمام الشام المتوفى في عهد المنصور سنة ١٥٧هـ، ومقامه يزار داخل المسجد المعروف باسمه على شاطئ البحر خارج مدينة بيروت التي كانت في ذلك الوقت رباطاً على العدو البيزنطي. لهذا اهتم مذهبه بصفة خاصة بالتشريعات الحربية وأحكام الحرب والجهاد. ولما كان هذا الاهتمام يناسب وضع أهل الأندلس في الفترة الأولى من حياتهم القائمة على الحرب والجهاد، فقد أقبلوا على اعتناق مذهب الأوزاعي مدة نصف قرن تقريباً ثم غلب عليهم المذهب المالكي في عهد الأمير الأموي هشام بن عبد الرحمن الداخل. على أن انتشارمذهب مالك في الأندلس لم يخل دون بقاء بعض المسائل التي اتبع فيها الأندلسيون مذهب الأوزاعي مثل غرس الأشجار في صحون المساجد وهو شيء لم يقره المذهب المالكي. ومازالت هذه العادة الجميلة منتشرة في إسبانيا حيث نجد أشجار النارنج والليمون في صحن المسجد الأموي بقرطبة بل وفي الكنائس أيضاً.

مذهب آخر حظى بشهرة كبيرة في عصر المنصور ثم انقرض بعد ذلك هو مذهب إمام أهل مصر أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن. ولد في بلدة قلقشندة (محافظة القليوبية) سنة ٩٤هـ وتلقى العلم على شيوخ عصره أمثال أبي حنيفة في العراق وبعض التابعين في الحجاز حيث قابل الإمام مالك في المدينة وتوطدت بينهما أواصر الصداقة. ويقال إن الخليفة أبا جعفر المنصور اجتمع بالليث بن سعد في بيت المقدس وقال له: «أعجبني ما رأيت من شدة عقلك والحمد لله الذي جعل في رعيتي مثلك». واشتهر الإمام الليث بن سعد بالفتوى ورواية الحديث كما تقلد القضاء في مصر وكانت له بالفسطاط مدرسة فقهية خاصة به، وكثيراً ما كان يراسل الإمام مالك في في بعض المسائل الفقهية ويأخذ عليه أموراً لا يراها هو وقد مدحه الإمام الشافعي بقوله.

«كان الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به». بمعنى أن تلاميذه لم يعملوا على نشر مذهبه. وكان الليث إلى جانب فضله وعلمه، واسع الثراء كريمًا، قيل إن دخله في السنة بلغ خمسة آلاف دينار كان يوزعها على أهل العلم ولهذا لقب بـ «أبي المكارم» ويروى أن الإمام مالك أهدى إليه صينية فيها تمر فأعادها إليه مملوءة ذهبًا. وتوفى الإمام الليث بالفسطاط سنة ١٧٥هـ وقبره يزار إلى اليوم ويعرف بالإمام الليثي. وعلى الرغم من أن مذهبه قد أخذ في الانقراض بعد وفاته، إلا أن الأندلسيين الذين درسوا عليه في مصر، قد نقلوا مذهبه إلى الأندلس حيث ظلت بعض تعاليمه يعمل بها إلى جانب المذهب الملكي حتى أواخر الحكم الإسلامي في غرناطة، وقد أشار بذلك أحد قضاة غرناطة المتأخرين وهو أبو الحسن على النباهي في القرن الثامن الهجري (١٤م) في كتابه «المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا» حيث يقول:

«ومن المسائل التي خالف أهل الأندلس فيها قديمًا مذهب مالك بن أنس، هي أنهم أجازوا كراء الأرض بالجزء مما يخرج منها (أي الكراء أو الإيجار على الجزء المزروع منها فقط) وهو مذهب الليث بن سعد، وأجازوا غرس الشجر في المساجد وهو مذهب الأوزاعي».

ثم جاء بعد هؤلاء الأئمة، الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي وهو عربي قرشي. ولد في غزة سنة ١٥٠هـ (أي في سنة وفاة الإمام أبي حنيفة) وعاش في الحجاز حيث حفظ الموطأ وعرضه على الإمام مالك وهو في العاشرة من عمره، ثم انتقل إلى العراق حيث تعلم فقه أبي حنيفة على أيدي تلاميذه. وفي بغداد كتب الشافعي كتبًا تضمنت مذهبه القديم في الفقه، ثم ذهب إلى مصر واستقر بها بقية حياته. وفي مصر عدّل من بعض فتاويه وأحكامه القديمة وأنشأ مذهبه الجديد وصنّف فيه الكتب الخالدة التي رواها عنه تلاميذه. ومن هذه المؤلفات رسالة في أصول الفقه

وكتاب «الأم» في الفقه من كل نواحيه. وقد نشر الكتاب بالمطبعة الأميرية بالقاهرة في سبعة أجزاء سنة ١٣٢٦هـ وجعلت رسالته في علم أصول الفقه مقدمة للجزء الأول وبهذه المؤلفات يعتبر الشافعي أول من كتب في أصول علم الفقه إذ كان الفقهاء قبله يجتهدون في الاستنباط من النص من غير أن تكون لديهم حدود مرسومة.

وكان مذهب الشافعي وسطاً بين مذهب أبي حنيفة المتوسع في الرأي، ومذهب مالك المعتمد على الحديث. ومات الشافعي سنة ٢٠٤هـ ودفن في مقابر بني عبد الحكم وقد انتشر مذهبه في مصر إذ أن معظم المصريين شوافع.

وجاء بعد الشافعي تلميذه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (١٦٤-٢٤١هـ) وهو عربي الأصل ولد ومات في بغداد لكنه كان كثير الرحلة كأستاذه الشافعي وكان ابن حنبل يرى أن يقوم الفقه على النص من الكتاب أو الحديث، وأنكر على أستاذه الشافعي أخذه بالرأي، واعتبر الحديث أفضل ن الرأي فعاد بذلك إلى رأي الإمام مالك. وقد لقي ابن حنبل محنة بسبب ذلك من المعتزلة في عهد الخليفة المأمون وأشهر كتبه «المسند» الذي يعتبر موسوعة لأحاديث الرسول ولمسائل الفقه وأبوابه وإن لم يكن مرتباً عليها. وقد طبع المسند مرات عديدة نذكر منها طبعة الأستاذ أحمد شاكر، وطبعة الشيخ أحمد بن عبد الرحمن البنا (أكثر من ١٣ جزء).

من كل ما سبق نرى أن المذاهب الفقهية في العالم الإسلامي السنّي قد تبلورت على هذه المذاهب الأربعة: المالكي وانتشر في المغرب بصفة خاصة، والشافعي وانتشر في مصر، والحنفي وانتشر في العراق والشام والأناضول وكان مذهب الدولة العثمانية الرسمي، وأخيراً الحنبلي في نجد والحجاز حيث اتبعه الوهابيون. بقي أن نشير إلى مذهب سني آخر ظهر في المشرق على يد داود بن علي الأصفهاني الظاهري (ت ٢٧٠هـ) ويعرف

مذهبه بالمذهب الظاهرى إذ أنه يقوم على التمسك بظاهر القرآن والسنة بمعناها اللفظي ويرفض الرأى أو القياس ويرى أن القرآن واضح بظاهره ولا خفاء فيه وليس له معنى باطنى آخر فالله سبحانه وتعالى أعطانا كلاماً واضحاً يفهم من ظاهره.

ولقد انتصر لهذا المذهب فيما بعد عالم أندلسى مشهور وهو أبو محمد علي بن حزم القرطبى الظاهرى (ت ٤٥٦هـ) اعتنق ابن حزم هذا المذهب وأخذ يطوف بالأندلس دفاعاً عنه فاصطدم بفقهاء المالكية وهاجمهم بعنف حتى شبه لسانه بسيف الحجاج بن يوسف الثقفى. فأعلنوها عليه حرباً شعواء وألبوا عليه الناس فامتنعوا عن سماع دروسه فى جامع قرطبة، ثم أمر المعتضد ابن عباد ملك إشبيلية بحرق كتبه وتحريم قراءتها. وقد قال ابن حزم فى هذا الصدد:

إن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى	تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبى	وينزل إذ أنزل ويدفن فى قبـرى

وعندما فشل ابن حزم فى نشر مذهبه اعتزل الناس فى بيته الريفى بالقرب من إشبيلية فى غرب الأندلس وهناك ألف عدة كتب لم تتخطى عتبة داره كما يقول معاصره ابن حيان.

هذا، وتبغى الإشارة هنا أيضاً إلى فقه الشيعة. والشيعة فى اللغة معناها الأتباع والأنصار. ويقصد بالشيعة الأتباع الذين شايعوا الإمام علي بن أبى طالب، وقالوا أنه إمام المسلمين وخليفتهم بعد الرسول ﷺ وأن الإمامة لا تخرج عنه أو عن أهل بيته.

والشيعة فرق كثيرة وتختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً، ومن أشهر فرق الشيعة: الزيدية، الاثنا عشرية، الإسماعيلية.

والشيعة عموماً يرجعون فى الفقه بعد القرآن إلى الأحاديث النبوية التى

رواها أئمتهم ورجالاتهم ثم يعتمدون بعد ذلك على الاجتهاد والتأويل ولاسيما اجتهاد أئمتهم الذين ورثوا الأحكام الشرعية والعلوم اللدنية أو الإلهية عن الرسول بطريق الوصية. وعلى هذا الأساس يرى الشيعة أن باب الاجتهاد لا يزال مفتوحاً أمام القادر عليه ولن يغلق أبداً.

والزيدية هم أتباع الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وقد توفى قتيلا بيد الأمويين سنة ١٢٢هـ. وهم لا يتبرأون من إمامة الشيخين أبي بكر وعمر بن الخطاب مع قولهم بأن علياً أفضل منهما أي أنهم يجيزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل على عكس الفرق الشيعية الأخرى كالإثنا عشرية والإسماعيلية، فهم رافضة يرفضون إمامة الشيخين. وعلى هذا الأساس تعتبر الزيدية أقرب الفرق الشيعية إلى السنة. ولعل هذا هو السرّ في نجاح دولة بني بويه الفارسية الشيعية في الوصول إلى حكم الدولة العباسية بالتعاون مع الخلافة العباسية السنية مدة قرن من الزمان (٣٣٤-٤٤٧هـ) وذلك لأن البويهيين كانوا يدينون بالمذهب الزيدي الذي يجيز إمامة المفضول مع وجود الأفضل . ومن أشهر كتب فقه الزيدية كتاب «المجموع» الذي ينسب للإمام زيد بن علي نفسه والذي طبع مع شرحه «الروض النضير في شرح مجموع الفقه الكبير» لشرف الدين الحيمي اليمني في القاهرة سنة ١٣٤٨هـ. ولا يزال المذهب الزيدي منتشراً في اليمن.

أما الإمامية الاثنا عشرية، فيجعلون الإمامة بعد علي زين العابدين إلى محمد الباقر ثم جعفر الصادق ثم موسى الكاظم وهكذا حتى يصلوا إلى محمد المهدي المنتظر حتى اليوم وهو الإمام الثاني عشر. ولهذا اشتهرت هذه الفرقة باسم الإمامية الاثنا عشرية. وهذا المذهب منتشر في إيران والشام وجنوب لبنان. ومن أمثلة الكتب التي تناولت الفقه الإمامي الاثنا عشري كتاب «الكافي في علم الدين» لمحمد بن يعقوب الكُليني (ت ٣٢٨هـ)

وتشتمل على عدد كبير من الأحاديث النبوية. وطبع في إيران.

أما الشيعة الإسماعيلية فيسوقون الإمامة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق الذى مات فى عهد أبيه ثم دخل ابنه محمد بن إسماعيل (محمد المكتوم) فى دور الستر. وبعد فترة طويلة عرفت بدور الستر، ظهر المهدى عبد الله المهدى على رأس الدولة الفاطمية التى قامت فى المغرب ثم استولت على مصر والشام..

ومن أهم كتب الفقه الإسماعيلى كتاب «دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام» للفقيه النعمان بن حيون (ت ٣٦٣هـ) ولا يزال بقايا أتباع المذهب الإسماعيلى منتشرين فى الهند باسم الخوجات أو الأغاخانية (أتباع أغاخان) وهؤلاء هم الإسماعيلية أو النزارية المحدثون.

٢ ـ علم التفسير (أى تفسير القرآن الكريم):

إن نزول القرآن بلغة العرب لا يعنى أن العرب كلهم يفهمون مفرداته وتراكيبه. وعلى الرغم من أن الصحابة كانوا أقدر الناس على فهم القرآن لأنه نزل بلغتهم، ولأنهم سمعوا شرحه من الرسول مباشرة، وشاهدوا الظروف التى نزل فيها، إلا أنهم مع ذلك اختلفوا فى فهمه لتفاوتهم فى معرفة مفردات اللغة وفى مدة ملازمتهم للرسول. ولقد نشأ علم تفسير القرآن بصفة خاصة بعد أن دخل عدد كبير من غير العرب فى الإسلام، وأصبحت الحاجة ماسة إلى وضع كتب تشرح معانى كلمات القرآن وآياته.

واتجه المفرسون فى تفسير القرآن إلى اتجاهين: يعرف أولهما باسم التفسير المأثور، وهو ما أثر أو نقل عن الرسول وكبار الصحابة. ويعرف ثانيهما باسم التفسير بالرأي والاجتهاد، وهو ما يعتمد على العقل والتأويل أكثر من اعتماده على النقل .ومن أشهر مفسري هذا النوع الشيعة والمعتزلة.

وقد اعتمد المفسرون في تفسيرهم للآيات القرآنية على معرفة اللغة العربية بمختلف أساليبها ومفرداتها ولهجاتها، كما اتخذوا من الشعر الجاهلي مرجعاً للتفسير في الاستعمالات اللغوية. كذلك اعتمدوا على ما جاء في الكتب السماوية الأخرى كالتوراة والإنجيل التي تكرر فيها ذكر بعض القصص الذى ورد في القرآن مثل قصة يوسف. وقد أطلق على علوم التوراة وعلوم المسيحيين وعلوم الأولين اسم الإسرائيليات.

ومن أشهر مفسرى الذكر الحكيم من الصحابة: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وعبد الله بن مسعود. وبعد عصر الصحابة ظهر علماء كبار أخذوا يضعونكتب التفسير على الطريقة التى تعتمد على التفسير المأثور، ومن أهمها تفسير المؤرخ والمفسر المعروف أبى جعفر بن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ) المسمى : جامع البيان فى تفسير القرآن؛ الذى حفظ لنا فيه بكل هذه الثروة المأثورة الغنية فى ثلاثين مجلداً.

ثم تعددت التفاسير وتنوعت بين موجزة ومفصلة، ولكل منها مزية يعرف بها. أما الشيعة فقد استقلوا بتفاسير للقرآن خاصة بهم، لعل من أهمها تفسير الإمام جعفر الصادق (ت ١٤٨هـ) فى عهد الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور. كذلك اتجه المعتزلة منذ بداية العصر العباسى الأول إلى تفسير القرآن تفسيراً يعتمد على العقل ولا يتقيد بالتفسير المأثور ويقوم على تأويل الآيات التي قد تفيد التشبيه على الله أو تفيد الجبر.

٣ ـ علم القراءات:

وتتركز نواة هذا العلم في القرآن نفسه أو بعبارة أخرى فى قراءته لأن [الصح]ابة نقلوا عن النبىّ ﷺ قراءات عديدة للقرآن، وعنهم أخذها التابعون. والسبب الرئيسى فى كثرة القراءات يرجع إلى اختلاف اللهجات العربية فى الجاهلية واستمرارها فى الإسلام، واعتماد بعض حفظة القرآن على قراءته

بما يتفق ولهجتهم. هذا إلى جانب خاصية الخط العربى من حيث أن الرسم الواحد للكلمة الواحدة يقرأ بأشكال مختلفة.

ولقد استقر الرأى منها على سبع قراءآت نسبت إلى من اشتهر بروايتها فصارت هذه القراءآت السبع أصولا للقراءة وإن كان البعض يجعلها عشراً. وقد وضعت قواعد وأسس لقراءة القرآن جمعت فى علم التجويد. ومن أشهر أصحاب القراءات أبو رؤيم نافع بن عبد الرحمن وتنسب إليه إحدى القراءات السبع المعروفة باسمه «قراءة نافع» وأصله من أصفهان واستوطن المدينة ومات بها سنة ١٦٩هـ وكان الإمام مالك بن أنس يقرأ على نافع. كذلك نشير إلى المقرئ المصرى عثمان بن سعيد المعروف بورش، وتنسب إليه قراءة ورش وقد انتهت إليه رياسة الإقراء بمصر وتوفى سنة ١٩٧هـ ولاشك أن التباين فى القراءآت له فوائده التى من أهمها سهولة حفظ القرآن ومعرفة وفهم معانيه. ومن أهم المراجع التى ألفت فى القراءات ومقاييس القراءةالصحيحة نذكر كتاب «النشر فى القراءات العشر» لشمس الدين محمد الجزرى المتوفى سنة ٨٣٣هـ.

٤ ـ العلوم اللغوية:

كانت البصرة والكوفة من أهم المراكز الثقافية منذ القرن الأول الهجرى، وفيهما نشأت مدرسة اللغويين والنحويين. وحينما نشأ اللحن فى كلام العرب المستوطنين فى البلاد المفتوحة بحكم اختلاطهم بالأعاجم، دعت الضرورة إلى تقويم اللسان العربى عن طريق:

١ ـ جمع ألفاظ اللغة العربية وأشعارها حتى تسلم مقوماتها الأصلية.
٢ ـ وضع قواعد نحوية للغة حتى لا تخطئ بها الشعوب المستعربة.
٣ ـ نقط المصحف نقطاً يعين حركات أواخر الكلمات حتى لا يتعرض القرآن للتحريف.

ولقد تولى علماء البصرة والكوفة أعباء هذه المهام العلمية، فاتجهوا إلى نجد في قلب الجزيرة العربية حيث توجد المادة اللغوية الفصيحة الصافية، وعاشوا بين أهليها سنوات عديدة جمعوا خلالها ثروة لغوية وشعرية عظيمة.

وإلى جانب جمع اللغة، اهتمت مدرسة البصرة بصفة خاصة بعلم النحو، فوضعت قواعده ومصطلحاته واشتهر منها على عهد الخليفة المنصور العباسي، إمام النحاة العربي أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠-١٧٥هـ) الذى يعتبر المؤسس الحقيقي لعلم النحو، ثم جاء تلميذه وشيخ البصريين بعده سيبويه الفارسي (ت ١٨٣هـ) فوضع قواعد النحو التي نقلها عن أستاذه في صورتها النهائية وذلك في مصنفه المعروف باسم «الكتاب»، الذى يحكي في كثير من صفحاته آراء أستاذه الخليل بن أحمد. ولا يزال هذا الكتاب لسيبويه يعتبر مرجعاً في النحو حتى اليوم.

والخليل بن أحمد يعتبر كذلك أول من ابتكر الشكل في العربية وألف في ذلك كتاب «النقط والشكل» . حقيقة كانت هناك محاولات سابقة لتعيين حركات الإعراب تمت في العصر الأموى مثل محاولة أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ) التي تقوم على نقط حروف المصحف على شكل نقاط على الوجه التالي: نقطة في أعلا الحرف إشارة إلى الفتحة، ونقطة تحت إشارة إلى الكسرة، ونقطة بين يدى الحرف وتعنى الضمة. أما في حالة الغنة أو التنوين، فينقط الحرف نقطتين. غير أن هذه المحاولة لم تلبث أن احتاجت إلى تعديل لاشتباه نقط الشكل بنقط الإعجام (أى نقاط الباء والجيم والضاد... إلخ) ومن هنا جاءت طريقة الخليل بن أحمد المبتكرة في الشكل والتي سار عليها الناس حتى الآن، وقوامها حروف صغيرة مثل حروف العلة، فالضمة واو صغيرة فوق الحرف، والكسرة ياء صغيرة تحته، والفتحة ألف صغيرة فوقه، أما في حالة التنوين فيكتب الحرف الصغير مرتين فوق الحرف أو تحته. كذلك وضع للشدة رأس سين، ولألف الوصل رأس صاد، وللهمزة

رأس عين، وبهذه الطريقة أمكن الجمع بين حركات الشكل ونقاط الإعجام.

وللخليل بن أحمد مأثرة علمية أخرى وهي وضعه لعلم العروض وهو الذى يتعلق بأوزان الشعر وأحكامه. ويقال إن إتقان الخليل بن أحمد للعلوم الرياضية والموسيقية هو الذى ساعده على تجزئة التفعيلات وتخريج الأوزان الشعرية. والجدير بالذكر أن كتابه فى علم العروض انتقل بعد ذلك إلى الأندلس فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط، واستطاع العالم الأندلسى المشهور بمحاولة طيرانه عباس بن فرناس أن يفهمه ويشرحه للناس، فكان أول من أخذ عنه علم العروض بالأندلس وقد منحه الأمير عبد الرحمن ثلاثمائة دينار وكساه . والخليل بن أحمد، فضلا عما تقدم، ألف كتاب «العين»، لأنه بدأه بحرف العين، وهو أول معجم فى اللغة العربية. ولم يرتب ألفاظه بحسب الترتيب الهجائى الأبجدى المعروف (أ، ب ت) بل بحسب ترتيب مخارج الحروف مع مراعاة أواخر الأصول لا أوائلها. فبدأ بحروف الحلق مثل العين ثم بحروف اللسان (ل) والأسنان (س) فالشفتين (م) وختم كتابه بحروف العلة (حقق الدكتور إبراهيم السامرائى بالعراق خمسة أجزاء من معجم العين). وقد سبق معجم العين المعاجم الأخرى بقرن ونصف تقريبًا نذكر منها «الجمهرة» لابن دريد (ت ٣٢١هـ) والتهذيب للأزهرى (ت ٣٧٠هـ) وكتاب «تاج اللغة وصحاح العربية» للجوهرى (ت ٣٩٣هـ) وقد لخصه محمد بن أبى بكر الرازى فى القرن الثامن الهجرى فى كتاب سماه «مختار الصحاح» وهو متداول فى المدارس.

وتشهد هذه المؤلفات وغيرها أن العرب كانوا من أسبق الأمم فى وضع المعاجم للغتهم، ونختم هذا الكلام بنادرة أوردها ابن خلكان فى كتابه «وفيات الأعيان» يقول فيها إن الخليل بن أحمد اجتمع يومًا بصديقه عبد الله بن المقفع، فلما افترقا قيل للخليل: كيف رأيت ابن المقفع؟ فقال:

رأيت رجلا علمه أكثر من عقله ورأيت الخليل رجلا عقله أكثر من علمه. كيف رأيت الخليل؟ قال: رأيت رجلا عقله أكثر من علمه. وواضح من هذه العبارات السالفة أنها تعنى أن ابن المقفع رجل من أهل العلم قد غلب على ثقافته النقل والترجمة، بينما كان الخليل رجلا ذا عقل كبير قد غلب على ثقافته الاختراع والابتكار، فهو أول من وضع قواعد النحو، وأول من صنّف المعاجم، وأول من وضع علم العروض وابتكر الشكل في العربية.

٥ ـ الأدب

لم يحظ الأدب في بداية الدولة العربية بنصيب كبير من التطور نتيجة لانشغال المسلمين بفتوحاتهم وتنظيم دولتهم الجديدة. لهذا استمر شعراء صدر الإسلام على ما كان عليه أسلافهم في الجاهلية رغم تأثرهم بأسلوب القرآن. فالقصيدة الشعرية في ذلك العهد كانت تشبه القصائد الشعرية التي كان يتغنى بها شعراء الجاهلية في مدح شيوخ القبائل أو هجائهم مع اختلاف بسيط هو الحديث عن الجنة والنار والثواب والعقاب والبعث والنشور إلى غير ذلك من الألفاظ الدينية التي لم يهتم بها العرب في الجاهلية. واشتهر من شعراء الإسلام في عهد الرسول ﷺ حسان بن ثابت، وكعب بن زهير، وكان لهما منزلة خاصة عنده. وكان عليه الصلاة والسلام يقول: «إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة»، وقد ألقى الرسول ﷺ بردته على كتفى كعب بن زهير تعبيراً عن تقديره لشعره. وعلى الرغم من تطور الإدارة والحياة الاجتماعية في العصر الأموى إلا أن نزعة الأمويين الشعرية ظلت نزعة كلاسيكية لا تميل إلى الفلسفة والحكمة وتوثر عليها الشعر الجيد. وقد أجاد بعض خلفائهم نظم الشعر مثل يزيد بن معاوية، وعبد الملك بن مروان، وعبد الرحمن الداخل (صقر قريش) في الأندلس وأبنائه من بعده. ومن أشهر شعراء الأمويين في المشرق، جرير والفرزدق والأخطل الذى كان نصرانياً، والكميت بن زيد من الشيعة. وكانت المنافسة شديدة بين

جرير والفرزدق، وامتاز شعرهما المسمى بالنقائض بالهجاء والعنف كما امتاز بالاتقان والجودة وصار المعين الذى اغترفت منه اللغة العربية ثروتها اللغوية فى عصرها الجديد.

ثم جاء العصر العباسي فشهد الأدب ثورة واسعة نهج الشعراء فيها مناهج جديدة فى المعانى والموضوعات والأساليب والأخيلة نتيجة للتطور الحضارى. ومن أشهر هؤلاء الشعراء أبو نواس الذى ذاعت قصائده فى الخمر والغزل والصيد وغير ذلك من فنون الشعر التى تناسب ما انتشر فى العصر العباسى من حضارة وترف ولاسيما فى رصافة بغداد. ويروى فى هذا الصدد أن الشاعر البدوى على بن الجهم مدح الخليفة العباسى المتوكل بقوله:

أنت كالكلب فى حفاظك الود وكالتيس فى قراع الخطوب!

فطلب البعض قطع لسانه ولكن المتوكل قال اعذروه فهو بدوى لم ير أحسن من الكلب والتيس فى الوفاء وقراع الخطوب، ولكن دعوه فى الرصافة كى يرق خياله. وبعد مدة لم يلبث هذا الشاعر أن أنشد شعراً جميلا رقيقاً يقول فيه:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

ومن شعراء العباسيين أيضاً أبو تمام الطائى المشهور بنزعته العقلية والفلسفية فى الشعر، وتلميذه أبو عبادة البحترى الطائى أيضاً (نسبة إلى طيء) صاحب الأوصاف البديعة والمدائح الخالدة. وابن الرومى المعروف بطول نفسه وغزارة شعره وغوصه على نادر المعانى وعجيب التصورات، وأبو العتاهية الذى برع فى فنون الشعر فاشتهر بالغزل الرقيق والحكمة وكذلك أبو العلاء المعرى الذى نلمح النزعة الفلسفية الصوفية فى شعره مثل قوله:

خفف الوطأ ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد!

ولاشك أن ظهور هذه المناهج الجديدة في الشعر العباسى يرجع إلى تطور الحياة المادية والاجتماعية واختلاف صورها فى الدولة العباسية عما كانت عليه من قبل كما يرجع أيضًا إلى أثر الثقافة الأجنبية ولاسيما الثقافة الفارسية في الأدب والشعر العباسى. هذا إلى جانب الرعاية والتشجيع التى حظى بها الشعراء والكتاب من جانب الخلفاء العباسيين وكبار رجال دولتهم.

٦ ـ علم التاريخ:

بدأ التاريخ عند العرب فى صورة بسيطة ساذجة، إذ كانوا فى الجاهلية يتذاكرون أحداثهم وأيامهم عن طريق الرواية الشفوية على هيئة أشعار أو أخبار متفرقة، كما كانوا يؤرخون من الحوادث العظام والوقائع المشهورة مثل عام الفيل وبناء الكعبة ونحوها. فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب أمر الناس فأرخوا من عام الهجرة وظل الأمر كذلك إلى اليوم.

وبدأ علم التاريخ العربى الإسلامى كجزء وثيق الصلة بالحديث النبوى فالسيرة النبوية الشريفة مثبتة فيما يروى من الأحاديث النبوية، كما أن أخبار الأمم الغابرة وردت إشارات منها فى الكتاب والسنة. وكانت رواية الخبر التاريخى تشبه تمامًا طريقة رواية الحديث التى تقوم على الإسناد أو السند (الجمع أسانيد) وهى رواية الخبر بالسماع عن طريق الرواة أو الحفاظ الموثوق بهم على التتابع وهو ما يسمى بالعنعنة (عن فلان عن فلان ... إلخ) ثم بدأ الاهتمام باستخلاص وتدوين سيرة الرسول العربى ومغازيه وبعوثه من الأحاديث، وكذلك تدوين أخبار الماضين وأحوال الجاهلية وحوادث الإسلام، وأطلقوا على ذلك كله لفظ «الأخبار» وعلى المتخصص فى روايته «الإخبارى»، بينما عرف المتخصص فى رواية الحديث النبوى بـ «المحدث». فهذه النقلة من الحديث إلى الأخبار تعتبر بداية اشتغال العرب فى الإسلام بالتاريخ

ومن الإخباريين الذين لمعت أسماؤهم في بداية العصر العباسي محمد بن إسحاق بن يسار المتوفى سنة ١٥٢هـ، وهو من أصل فارسي وإليه تنسب أقدم كتب السيرة النبوية التي وصلت إلينا. كان محمد بن إسحاق إخباريًا ومحدثًا معًا، وقد جمع أخبار السيرة و[illegible]اها «كتاب المغازي» ويقال إن سبب تأليفه أن ابن إسحاق دخل يومًا [illegible] لخليفة العباسي المنصور وبين يديه ابنه المهدي، فقال له المنصور: «أتعرف من هذا يا ابن إسحاق؟ قال نعم، هذا ابن أمير المؤمنين، قال: اذهب فصنف له كتابًا منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى يومك هذا». فصنف ابن إسحاق هذا الكتاب. فقال له المنصور: لقد طولته يا بان إسحاق اذهب فاختصره. وحفظ المنصور الكتابالكبير في خزانته.

ولقد قسم ابن إسحاق كتابه إلى ثلاثة أقسام وهي:

المبتدأ والمبعث والمغازي. ويتضمن المبتدأ تاريخ العرب القديم وقصص الأنبياء. ويتضمن المبعث حياة الرسول في مكة وهجرته إلى يثرب. ويتضمن المغازي حياته في المدينة بما في ذلك غزواته الحربية.

وكتاب «المغازي» لابن إسحاق لم يصل إلينا إلا في رواية مختصرة له كتبها عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨هـ بالفسطاط وتعرف باسم «سيرة رسول الله ﷺ»، وتعرف عمومًا بسيرة ابن هشام وهي التي يعتمد عليها اليوم. على أنه يلاحظ أن مكانة المحدث كانت عند جمهور ذلك العصر أشرف موضوعًا وأسمى منزلة من الإخباري، ويرجع ذلك إلى شرف موضوع الحديث من جهة، وإلى أن الأخبار - وخصوصًا قديمها - كانت مظنة التلفيق والاختلاق من جهة أخرى. ولقد بلغ بهم الأمر أنهم كانوا يقللون من مكانة المحدث إذا مال إلى الأخبار. فقد ضعفت مكانة محمد بن إسحاق عندما تحول من رواية الحديث إلى رواية الأخبار، وصار يأخذ من العجم -

واليهود والنصارى ويسميهم أهل العلم الأول ورغم ثم يستحسنوا لهذا الفقيه المختص باستنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة أن يتوفر إلى طلب الأخبار،ولهذا لم يسلم من سخرية كبار المحدثين من معاصريه أمثال مالك بن أنس وأبي حنيفة فيروى ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان» أن أبا يوسف الكوفي تلميذ أبي حنيفة وصاحب كتاب «الخراج»، مضى ليستمع المغازى من محمد بن إسحاق، وتغيب عن مجلس أبي حنيفة، فلما أتاه قال له أبو حنيفة ساخراً: «يا أبا يوسف من كان صاحب راية جالوت؟ فقال له أبو يوسف «إنك إمام وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤوس الملأ أيما كان أولاً وقعة بدر أو وقعة أحد. فإنك لا تدرى أيهما كان قبل الآخر» فأمسك عنه والواقع أن ابن إسحاق كان موضع مديح من جاء بعده من المؤرخين والمحدثين ووصفوا كتابه في السيرة بأنه كان ثمرة تفكير أبعد أفقاً وأوسع نطاقاً من تفكير سابقيه ومعاصريه لأنه نزع فيه لا إلى تدريس تاريخ النبيّ فحسب بل إلى تاريخ النبوة بذاتها منذ بدء الخليقة، وفي ذلك يقول الإمام الشافعي : «من أراد التبحر في المغازى فهو عيال على محمد بن إسحاق». ولاشك أن هذه الخطوات السالفة كانت بداية لخطوات جديدة في القرون التالية تطور فيها التاريخ حتى أخذ مظهره الرائع كعلم من أجلّ علوم المسلمين، وأخذ المؤرخون مكانتهم بين علماء الدولة الإسلامية كرجال لهم خطرهم في الحياة العامة سياسية كانت أو عقلية أو أدبية بينما تضاءل مدلول لفظ إخبارى حتى صار يطلق فقط على من يروى الحكايات والقصص

ومن العوامل التي ساعدت على تطور علم التاريخ في صدر الدولة العباسية أن دواوين الدولة أخذت في الاستقرار مثل دواوين الإنشاء والجند والخراج والبريد، فأمكن للمشتغلين بالتاريخ أن يستفيدوا من هذه الدواوين بما تحويه من وثائق ومراسلات وإحصاءات للمواليد والوفيات، ومدد حكم

الولاة والحكام ووصف المسالك والممالك وتقدير مسافاتها. ثم إنه فى العصر العباسى أيضاً قويت حركة النقل والترجمة عن اللغات الأجنبية، كما كثرت الرحلة فى طلب العلم، فأخذ الطلبة والعلماء يتنقلون فى بلاد العالم الإسلامى لمشاهدة آثارها والأخذ عن علمائها. كل هذا أعطى التاريخ مادة خصبة، ومظهراً رائعاً كعلم من أجلّ العلوم الإسلامية.

على أن الوحدة السياسية التى تمتعت بها الدولة الإسلامية لم تلبث أن دبت فيها النزعات الاستقلالية منذ منتصف القرن الثالث الهجرى فتفككت إلى دويلات متعددة مستقلة، وقد انعكس ذلك على كتابة التاريخ الإسلامى الذى تأثر بهذه النزعة السياسية اللامركزية وصار يكتب على شكل تواريخ محلية مثل تاريخ فتوح مصر لابن عبد الحكم، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى، وتاريخ دمشق وأعلامها لابن عساكر، وتاريخ حلب لابن العديم، وتاريخ المغرب لابن عذارى وتاريخ غرناطة لابن الخطيب، ... إلخ. وإن كان هذا لم يحل دون استمرار كتابة التواريخ العامة للإسلام مثل تاريخ الطبرى وكتاب مروج الذهب للمسعودى وكتاب الكامل لابن الأثير.

وبعد هذا التفكك السياسى الذى انتاب العالم الإسلامى تأتى مرحلة الضعف والانهيار، فالصليبيون استولوا على الشام، والمغول قضوا على الخلافة العباسية، والإسبان طردوا المسلمين من معظم أراضيهم بالأندلس. كل هذه الأحداث المؤلمة، كان لها صدى عميق فى كتابة التاريخ الإسلامى، إذ نجد المؤرخ يتجه فى كتاباته اتجاهاً فلسفياً عميقاً فيبحث عن علل الحوادث وأسباب قيام الدول وسقوطها، وهذا ما فعله فيلسوف مؤرخى العرب عبد الرحمن بن خلدون فى مقدمة تاريخه التى لم يكتب مثلها فى الإسلام على الإطلاق.

والخطوة الأخيرة فى تطور كتابة التاريخ الإسلامى انحصرت حول علم التاريخ نفسه، فصار هو نفسه موضوعاً للبحث والكتابة مثل كتاب السخاوى

المعروف باسم «الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ» وهو عبارة عن تاريخ للتاريخ إذ يتناول علم التاريخ وأهميته وفوائده

وهكذا نرى مما تقدم أن التاريخ بدأ عند العرب بالرواية الشفهية، ثم دوّن ونما وازدهر وصار يستقى مصادره الأصلية عن طريق الوثائق والأصول والمشاهدة العينية. وأخيراً يأتى ابن خلدون فيفلسف التاريخ فى مقدمته ثم يأتى السخاوى فيؤرخه أى يكتب تاريخاً للتاريخ نفسه، وهذا تقدم ملحوظ من غير شك فى كتابة التاريخ

٧ ـ علم الجغرافية.

كلمة جغرافية كلمة يونانية الأصل دخيلة فى اللغة العربية وتعنى وصف الأرض، وكتبها المسلمون أحياناً بالعين بدلا من الغين. وعلى الرغم من أن المسلمين وضعوا ألفاظاً مرادفة لكثير من المصطلحات العلمية الأجنبية، فقالوا علم الفلك على Astronomy، وعلم العدد على Arithmatic، وعلم الهندسة على Geometry إلخ. إلا أن كلمة جغرافيا Geography ظلت كما هى

ولقد اتجه اهتمام المسلمين أول الأمر نحو ما نسميه بالجغرافية الرياضية، أو ما يسميه العرب بعلم الهيئة، وهو يقوم فى أكثر الحالات على الفلك ورصد حركات الكواكب والنجوم لأهميتها فى تحديد الوقت ومواقيت الصلاة والصيام والحجج والسير فى الصحارى (البرارى) وفى البحار، ونجد ذلك فى قوله تعالى. ﴿وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾. فقراءة السماء أو النجوم لم تكن ممكنة لأى شخص بل لقوم يعلمون أى لابد لها من علم وهو علم الفلك. ولقد انتقلت هذه الجغرافية الرياضية إلى العرب عن طريقين الطريق الهندى الفارسى من جهه. والطريق اليونانى السريانى من جهه أخرى

ومنذ القرن الثالث الهجرى (٩م) بعد أن عرف المسلمون الطرق بين البلدان المختلفة وقدروا مسافاتها، أطلقوا على مؤلفاتهم التى كتبوها فى هذا الموضوع عناوين مختلفة مثل المسالك والممالك، أو مسالك الممالك، أو البلدان، وهى بمثابة الجغرافية الوصفية، ثم تطرقوا بعد ذلك إلى النواحى الطبيعية والاجتماعية والبشرية ورسم الخرائط التى كانوا يسمونها صوراً أو رسمًا، لأن كلمة خريطة فى اللغة العربية تعنى حقيبة. وأغلب الظن أن كلمة خريطة بمعناها الجغرافى جاءت من كلمة Cartography الأجنبية فهى كلمة معربة دخيلة.

وهناك طبقات عديدة من الجغرافيين المسلمين الذين طافوا بأنحاء العالم المعروف فى ذلك الوقت، وقدموا لنا معلومات دقيقة فى وصف تلك اللاد وأخبار أهلها، تشهد بتقدم المسلمين فى هذا الميدان الجغرافى ومن هؤلاء الرواد الأوائل نذكر سليمان التاجر فى أوائل القرن الثالث الهجرى (٩م) وأصله من بلدة سيراف التى كانت تقع على ساحل إيران جنوبى شيراز على الخليج العربى قبالة البحرين واشتهت باللؤلؤ والبهار Spices ثم خربتها الزلازل فى أواخر القرن الرابع الهجرى. سافر سليمان التاجر عدة مرات من سيراف إلى بلاد الهند والصين وجزائر البحار المجاورة، وله كتاب بعنوان «سلسلة التواريخ» يصف فيه الطريق الملاحى من سيراف إلى خانفو (كانتون الحالية بالصين) ويقارن بين أحوال أهل الهند وأهل الصين ويذكر قصصًا أسطورية طريفة صارت جزءاً من الأدب الشعبى العربى بعد ذلك. ومن المعروف أن القصص المشهورة باسم أسفار السندباد، ما هى إلا نتاج ذلك القصص الشعبى الذى ظهر فى سيراف والبصرة مثل قصص سليمان التاجر وقصص من جاء بعده مثل ابن وهب وأبى زيد حسن السيرافى البصرى والمسعودى وغيرهم. وقد طبعت فى باريس رحلة التاجر سليمان، وتكملتها لأبى زيد السيرافى «ذيل كتاب سلسلة التواريخ» على أيدى

مستشرقين فرنسيين أمثال رينو، وفرأن ثم سوفاجيه من بعدهما وهى تعتبر أقدم وصف باللغة العربية للصين وسواحل الهند.

كذلك أوفد الخليفة العباسي المقتدر بالله سنة ٣٠٩هـ بعثة إسلامية برئاسة الرحالة أحمد بن فضلان إلى ملك البلغار والصقالبة النازلين على ضفاف نهر الفولجا لتعليمهم قواعد الإسلام. وقد دون ابن فضلان وصف رحلته هذه التى تعتبر أقدم نص عربى عن روسيا فى العصور الوسطى. وقد نشرت فى روسيا أول الأمر ثم نشرها حديثا الدكتور سامى الدهان فى مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٥٩م.

هذا عن بداية الكتب الجغرافية الإسلامية المتعلقة بوصف الأقطار والشعوب الأجنبية، أما عن جغرافية الأقاليم الإسلامية نفسها، فنذكر منها: كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة (ت ٢٣٢هـ) ثم هناك المسعودى (ت ٣٤٥هـ) الذى قدم لنا بعد رحلاته العديدة معلومات هامة تشهد بدقة الوصف فى كتابيه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» و «التنبيه والإشراف» هذا إلى جانب ابن حوقل النصيبى (ت ٣٦٦هـ) فى كتابه «صورة الأرض»، والمقدسى (ت ٣٧٨هـ) فى كتابه «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم»، وياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ) فى موسوعته الجغرافية المعروفة باسم «معجم البلدان».

كذلك ساهم المغاربة والأندلسيون بنصيب وافر فى هذا الميدان الجغرافى نذكر منهم الشريف الإدريسى (ت ٥٤٨هـ) فى كتابه «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» الذى يعرف أيضا بكتاب روجار لأن الملك النورماندى روجار الثانى Roger صاحب صقلية هو الذى طلبه منه. وقد نشر هذا الكتاب فى طبعة علمية حديثة فى إيطاليا فى سبعة أجزاء. كذلك رسم الإدريسى لهذا الملك خريطة للعالم فى عصره على دائرة فضية مسطحة

Planisphere طولها ثلاثة أمتار ونصف وعرضها متر ونصف . وتجدر الإشارة هنا إلى أن خرائط المسلمين بصفة عامة تجعل الشمال فى الجنوب، والجنوب فى الشمال، وربما يرجع ذلك إلى أنهم جعلوا من الكعبة التى تقع فى الجنوب، خط الصفر الأساسى الذى يبدأون منه (أي بمثابة خط جرينتش الحالى)، وقد يؤيد ذلك أن كلمة القبلة فى المصطلح الجغرافى تعنى الجنوب، وكلمة الجوف تعنى الشمال. أما الرحالة الأندلسى ابن جبير (ت ٦٤١هـ) فقد أعطانا فى وصف رحلته معلومات هامة عن أحوال الصليبيين فى الشام، وعلاقتهم بالمسلمين وذلك فى أثناء زيارته لمصر والشام. وقد توفى ابن جبير فى مدينة الإسكندرية، ويقال إن مقامه فيها هو مقام سيدى جابر حالياً وأن اسمه حرِّف من جبير إلى جابر. وأخيراً نذكر الرحالة الطنجى أبا عبد الله محمد اللواتى المعروف بابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ) الذى دوَّن أخبار رحلاته العديدة فى كتابه «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» ونذكر كذلك المؤرخ المعروف عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ) الذى كتب إلى جانب مؤلفاته التاريخية، كتاباً تضمن أخباره ورحلاته ولقاءاته مع ملوك المغرب والأندلس وإسبانيا غرباً، وسلاطين مصر والشام وعاهل المغول تيمورلنك شرقًا، وعنوانه كما ذكره ناشره محمد بن تاويت الطنجى «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً».

ثانياً ـ العلوم العقلية:

حركة النقل والترجمة:

ازدهرت العلوم العقلية بصفة خاصة منذ بداية العصر العباسى بفضل رعاية الدولة وتشجيعها ونتيجة للاتصال المثمر بين الثقافة العربية. وبين ثقافات الأمم الأخرى التى خضعت للحكم الإسلامى وكان هذا الاتصال يقوم على النقل والترجمة عن اللغات الأجنبية كالفارسية واليونانية والهندية

وكان معظم الناقلين من السريان، لأن اللغة السريانية كانت لغة الشام والعراق وهي لغة سامية وإحدى لهجات اللغة الآرامية التي شاعت في عهد البابليين في العراق وكذلك في الشام وفلسطين على عهد السيد المسيح. وكان معظم هؤلاء سريان من النصارى أو الصابئة، وممن يشتغلون بالطب وينتمون إلى أسر معينة مثل آل بختيشوع، وآل حنين بن إسحاق (وكانوا نصارى)، وآل ثابت بن قرة (وكانوا صابئة) كذلك شارك في النقل جماعة من مستعربي الفرس والهند

وبدأت حركة النقل والترجمة في صورة ضيقة زمن الأمويين، فتروى المصادر أن خالد بن يزيد بن معاوية (ت ٨٥هـ) لما يئس من الفوز بالخلافة. انقلب إلى العلم واهتم بترجمة كتب الصنعة (الكيمياء) والطب والنجوم، واستعان في ذلك بجماعة من العلماء اليونان المقيمين في مصر. ويقال إن طبيباً سريانياً من البصرة يدعى ما سرجويه نقل للخليفة عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ) كتاباً في الطب، وأن الخليفة هشام بن عبد الملك أمر بترجمة كتاب في تاريخ الفرس الساسانيين ونظمهم السياسية.

هذا، وتنبغي الإشارة إلى أنه في العصر الأموي عربت الدواوين في عهد عبد الملك بن مروان وأبنائه بعد أن كانت بالفارسية واليونانية وكان نشاط المترجمين مركزاً في الأديرة والمدارس المتناثرة في جنديسابور القريبة من البصرة (الآن شاه آباد في خوزستان)، وفي نصيبين والرها، وأنطاكية، والإسكندرية. وكانت تغلب عليها جميعاً الثقافة اليونانية كذلك كانت مدينة «بلخ» في إيران مركزاً للثقافات الفارسية والهندية على أن العناية بحركة الترجمة لم تبلغ ذروتها إلا منذ فاتحة العصر العباسي وكان الخليفة أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ) على رأس قائمة الخلفاء العباسيين المهتمين بهذه النهضة العلمية. ففي عهده نقل الكاتب الفارسي المشهور عبد الله بن المقفع بعض الكتب من الفهلوية (أي اللغة الفارسية القديمة)

إلى العربية. ومن أشهر هذه الكتب كتاب «كليلة ودمنة» وهي قصة هندية الأصل ترجمت من قديم إلى الفارسية ثم جاء ابن المقفع وترجم النص الفارسي إلى العربية الفصحى حتى صارت تعتبر ترجمته نموذجاً في النثر الفني. وعن العربية نقلت هذه القصة إلى أكثر لغات العالم لما فيها من تعاليم سامية لكونها من مصادر الحكمة البشرية على لسان الحيوان . وهي نصائح مجردة قائمة على العقل. وقد سميت باسم أخوين من بنات آوى: كليلة ودمنة من باب تسمية الكل باسم الجزء لأن خبر كليلة ودمنة لا يتناول إلا بابين من أبواب هذا الكتاب. ويلاحظ أن كلا من الأصل السنسكريتي الهندي، والأصل الفهلوي الفارسي المنقول عنه، مفقود، وكل ما وصل إلينا هو نقول سريانية، وهذا جعل بعض العلماء يرجحون بأن ابن المقفع أضاف من عنده حقائق خلاقة لأن الأصول العينية التي يمكن أن نقول أنه نقل منها حرفياً غير موجودة.

كذلك استعان الخليفة المنصور بالعلماء السريان في نقل وترجمة أمهات الكتب الهندية واليونانية في الفلك والطب والرياضيات إلى العربية، نذكر على سبيل المثال الطبيب جرجس بن بختيشوع الذي استدعاه المنصور من جنديسابور لعلاج معدته التي كان يشكو منها. وبعد معالجة قصيرة شفي على يديه، فجعله طبيبه الخاص وأمره بترجمة بعض الكتب الطبية فكان ذلك أول صلة بين بلاط بغداد وبين أسرة بختيشوع التي لعبت دوراً هاماً في البلاط العباسي وفي الحضارة الإسلامية.

كذلك عهد المنصور إلى العالم إبراهيم الفزاري بترجمة كتاب هندي قديم ومشهور في علم الفلك اسمه «سوريا سد هانتا» أي المعرفة من سوريا إلهة الشمس. وقد ظهرت الترجمة العربية بعنوان «السند هند» وهو تحريف للعنوان الأصلي «سدهانتا» أي المعرفة. ولم يلبث اسم السندهند أن صار يطلق فيما بعد على الكتب والأبحاث الفلكية الهندية. ويلاحظ أن القارة

الهندية كان العرب يطلقون عليها الاسم المزوج «السندهند» حيث أن كلمة الهند كانت تسمية عامة أطلقت على البلاد المجاورة لها مثل أندونيسيا. وكيفما كان الأمر فإن كتاب السند هند أحدث نهضة علمية واستخرج منه إبراهيم الفزارى جدولا حسابيًا فلكيًا يبين مواقع النجوم وحساب حركاتها وقد عرفت هذه الجداول باسم الزيجات والأزياج ومفردهاالزيج. أما الآلة الفلكية التى تستخدم لرصد الكواكب والنجوم فكانت تسمى بالاسطرلاب. ويعتبر إبراهيم الفزارى أول من صنع الاسطرلاب من المسلمين.

وفى عهد هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) ترجمت لأول مرة عن اليونانية بعض أعمال العالم المصرى السكندرى القديم بطليموس القلوذى Claudius Ptolomy (ت ١٧٠) ومن أهم أعماله كتابه المعروف باسم المجسطى واسم هذا الكتاب فى اليونانية Megale Mathemetike أى الكتاب الأعظم فى الحساب. ويبدو أن العرب حولوا لفظة مجال إلى مجسطى وأضافوا إليها أداة التعريف فصارت المجسطى. والكتاب عبارة عن موسوعة علمية فى الرياضيات والفلك وموضوعاته تدور حول كروية الأرض وحركات الشمس، والقمر والنجوم والكواكب بل وفى الموسيقى أيضًا إذ يروى أن المغنى العراقى أبا الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب لم يقصر ألحانه على الموسيقى الفارسية التى تعلمها من أستاذه إسحاق الموصلى فى بغداد، بل حفظ - على حد قوله - عشرة آلاف مقطوعة من الأغانى بألحانها من الموسوعة اليونانية المعروفة بكتاب بطليموس. ويقال إن كتاب المجسطى لبطليموس ترجم إلى العربية على يد الحجاج بن يوسف بن مطر الحاسب فى عهد هارون الرشيد.

ولا يفوتنا أن نشير إلى أنه فى خلافة والده المهدى بن المنصور (١٥٨-١٦٩هـ) برز عالم عربى فى الكيمياء يدعى جابر بن حيان الأزدى وقد

نسبت إليه كتابات كثيرة في الكيمياء تضم ما وصل إليه هذا العلم من قديم في هذا الوقت سواء في المركبات الكيميائية التي لم تكن معروفة من قبل مثل حامض النيتريك (ماء الفضة)، والبوتاس، وروح النوشادر، والكربونات، أو في وصف العمليات الكيميائية كالتقطير والترشيح والتبلور والتكثيف.

أما الخليفة عبد الله المأمون بن هارون الرشيد (١٩٨-٢١٨هـ) فقد اقترن اسمه بتلك النهضة العلمية التي بلغت ذروة الازدهار في عهده، وذلك لأنه شارك فيها بنفسه حتى قيل إنه أعلم الخلفاء وحكيم بني العباس، عاش المأمون في مدينة مرو عاصمة خراسان ومركز الثقافة اليونانية الهللنستية مدة طويلة. ولم ينتقل إلى بغداد إلا بعد مقتل أخيه الأمين بسبع سنوات سنة ٢٠٤هـ. وهذا جعله يعشق الثقافة الإغريقية ويعمل على جمع التراث اليوناني. فأرسل البعثات من العلماء إلى القسطنطينية وجزيرة قبرص للبحث عن نفائس الكتب اليونانية، وداخل ملوك الروم في هذا الشأن وأتحفهم بالهدايا. ويروى في هذا الصدد أن المأمون لما انتصر على البيزنطيين سنة ٢١٥هـ/ ٨٣٠م، علم بأن رجال الكنيسة هناك بعد أن انتشرت النصرانية في بلادهم، جمعوا كتب الفلسفة اليونانية القديمة من المكتبات، وألقوا بها في السراديب تحت الأرض لأنها منافية لتعاليم الكنيسة، فطلب المأمون من الإمبراطور البيزنطي تيوفيل أن يعطيه هذه الكتب مقابل الجزية التي كان قد فرضها عليه، فقبل تيوفيل هذا العرض واعتبره كسباً له، أما المأمون فاعتبر ذلك نعمة عظيمة عليه.

ولقد نقل هذا التراث اليوناني من كتب أفلاطون Platon (ت ٣٤٧ق.م)، وأرسطاليس أو أرسطو Aristotilis (ت ٣٢٢ق.م) في الفلسفة وكتب أبقراط Hippocrates (ت ٤٦٠ق.م)، وجالينوس Galien (ت ٢٠١ق.م) في الطب، وكتب إقليدس Euclide (ت ٢٨٣ق.م) وبطليموس

(ت ١٧٠م) فى الفلك والرياضيات وغيرها، نقله إلى بيت الحكمة فى بغداد، وكان هذا البيت بمثابة معهد علمى يضم مكتبة لنسخ الكتب ودارا لترجمتها إلى العربية، كما كان له مدير ومساعدون ومترجمون ومجلدون للكتب، كذلك زود المأمون بيت الحكمة بمرصد فلكى وهكذا اتسعت حركة النقل والترجمة فى أيام المأمون الذى أخذ بعد ذلك يحض الناس على قراءة ما ترجم من هذه العلوم والاستفادة منها، وقرّب إليه كل من أقبل على تعلمها، وأنعم عليه بالمنازل الرفيعة والمراتب العالية، كما صار يأنس بلقائهم ومناظرتهم، فتنافسوا فى دراسة العلوم العقلية، وبرز منهم علماء أجلاء فى مختلف ميادينها.

ومن أشهر العلماء الذين تخرجوا من بيت الحكمة نذكر محمد بن موسى الخوارزمى (ت ٢٣٢هـ/ ٨٤٧م) الذى يعتبر من أعظم الرياضيين والفلكيين من علماء العرب، عهد إليه المأمون بوضع كتاب فى علم الجبر، فوضع كتابه «المختصر فى حساب الجبر والمقابلة»، وهذا الكتاب هو الذى أدى إلى وضع لفظ الجبر واعطائه مدلوله الحالى (نشره الدكتور محمد موسى كلية العلوم جامعة القاهرة سنة ١٩٣٧م). قال ابن خلدون: «علم الجبر والمقابلة (أى المعادلة) فرع من فروع علوم العدد، وهو صناعة يستخرج بها العدد المجهول من العدد المعلوم إذا كان بينهما صلة تقتضى ذلك، فيقابلون بعضها بعضاً، ويجبرون ما فيها من الكسر حتى يصير صحيحاً».

فالجبر إذن علم عربى سماه العرب بلفظ من لغتهم، والخوارزمى هو الذى خلعه عليه الاسم الذى انتقل إلى اللغات الأوروبية بلفظه العربى Algebra، ولقد ترجم كتاب الخوارزمى إلى اللغة اللاتينية فى القرن السادس الهجرى (١٢م) بواسطة مستعرب إنجليزى اسمه روبرت تشستر Robert Chester درس وعاش فى إسبانيا ومن هناك انتقلت ترجمته إلى أوروبا حيث ظلت تدرس فى جامعاتها حتى القرن السادس عشر الميلادى كذلك

نلاحظ أن اسم الخوارزمى استعمل فى اللغة اللاتينية على شكل الجورتمى ثم حور فى قالب الجورزمو Algorismo للدلالة على نظام الأعداد وعلم الحساب والجبر وطريقة حل المسائل الحسابية (اللوغارتم). هذا، وتظهر عبقرية الخوارزمى فى الزيج أو الجدول الفلكى الذى صنعه وأطلق عليه «السندهند الصغير»، وقد جمع فيه بين مذهب الفرس ومذهب الهند ومذهب بطليموس (اليونان) فاستحسن أهل زمانه ذلك وانتفعوا به مدة طويلة فذاعت شهرته وصار لهذا الزيج أثر كبير فى الشرق والغرب وللخوارزمى مأثرة أخرى تدل على نبوغه فى علم الجغرافيا، إذ رسم للمأمون خريطة كبيرة للعالم المعمور من الأرض وتظهر عليها الأقاليم والبلدان بأسمائها العربية، كما وضع كتاباً جغرافياً هاماً بعنوان «صورة الأرض» اعتمد فيه على كتاب المجسطى لبطليموس مع إضافة بعض الشروح والتعليقات. وقد نشر هذا الكتاب وترجم إلى الألمانية.

خلاصة القول أن الخليفة المأمون كان شغوفاً بالثقافة الإغريقية لدرجة أن أرسطو ظهر له فى المنام مؤكداً له أنه لا يوجد تعارض بين العقل والدين. يروى ابن النديم فى كتابه «الفهرست» أن المأمون رأى فى منامه كأن رجلاً أبيض اللون مشرباً بحمرة، أجلح الرأس، أشهل العينين، حسن الشمائل، جالس على سريره. قال المأمون: وكأنى بين يديه قد ملئت هيبة، فقلت: من أنت؟ قال: أنا أرسططاليس. فسررت به وقلت: أيها الحكيم، أسألك؟ قال: سل. قلت: ما الحسن؟ قال: ما حسن فى العقل. قلت ثم ماذا؟ قال: ما حسن فى الشرع. قلت: ثم ماذا؟ قال: لاثم بينهما وعليك بالتوحيد». لاشك أن هذا الحلم - إن صحت روايته - فإنما يعبر عما كان يفكر فيه المأمون فى اليقظة كما أنه يتصل اتصالا وثيقاً بسياسة المأمون نحو تأييد حركة المعتزلة التى تعتبر من أهم الحركات الفكرية فى تاريخ الفلسفة الإسلامية والتى تمثل اتجاهاً عقلياً حراً.

وفى أيام الخليفة المعتصم وولديه الواثق والمتوكل، واصلت العلوم العقلية تقدمها وازدهارها، وبرز فيها عدد كبير من العلماء والأطباء نذكر منهم: الطبيب يحيى بن ماسويه (ت ٢٤٣هـ) وكان مسيحيًا من مدرسة جنديسابور، وتنسب إليه مؤلفات طبية عديدة من أهمها كتاب «دغل العين» أى ما يضر العين ويؤذيها، وهو أول كتاب عربى فى علم الرمد. كذلك يؤثر عن هذا الطبيب أنه كان يدرس التشريح عن طريق تقطيع أجسام القردة. وكان الخليفة المعتصم يعتمد على مشورته، ولهذا كان يحتفظ بينهة قوية. وقد عرف ابن ماسويه فى الغرب باسم ماسوى الكبير Mesue Mayor كذلك تذكر الطبيب اللامع حنين بن إسحاق (ت ٢٦٠هـ) الذى كان صبيبًا مسيحيًا من مدرسة جنديسابور وعرف عند علماء الغرب باسم يوهانيتس Yo-hanitus درس حنين الطب على أستاذه يحيى بن ماسويه السالف الذكر ثم واصل دراسته للطب فى بلاد الروم والإسكندرية وفارس وألف كتبًا كثيرة اعتمد فيها على المصادر اليونانية. ومن أهم كتبه كتاب فى الرمد باسم العشر مقالات فى العين وكتاب السموم والترياق، وكتاب فى أوجاع المعدة، وكتاب فى الحميات، وكتاب فى الفم والأسنان. والكتاب الأخير أعجب به الخليفة الواثق لأنه يصف الفم والأسنان وصفاً دقيقاً وقد نقل المسعودى فى كتابه مروج الذهب (ج٤ص٨٠) قسماً منه ذكر فيه أن عدد الأسنان فى الفم اثنتان وثلاثون سناً منها فى اللحى (الفك) الأعلى ستة عشر سناً، وفى اللحى الأسفل كذلك وهى على الشكل التالى فى كل واحد من اللحيين:

(١) أربعة عراض محددة الأطراف تسميها الأطباء من اليونانيين القواطع وهى الثنايا والرباعيات الأمامية ومهمتها قطع الطعام كالسكين.

(٢) نابان رؤوسهما حادة وأصولهما عريضة وهى الأنياب وبها تكسر الأشياء الصلبة مما يؤكل.

(٣) خمس أسنان في كل جانب من الفك وهى الأضراس ويسميها اليونانيون الطواحن لأنها تطحن ما يؤكل.

ولاحظ حنين أن أصول أو جذور الأضراس في الفك الأعلى يزيد على أصول أضراس الفك الأسفل، فالأضراس العليا لكل منها ثلاثة أصول ما عدا الضرسين الأقصيين (ضرس العقل) فلكل منهما أربعة. أما أضراس الفك الأسفل فلكل واحد منها أصلان ما عدا الضرسين الأخيرين (ضرسا العقل) فلكل واحد منهما ثلاثة أصول. وسبب هذه الزيادة في أصول الأضراس العليا هو تعلقها بأعلى الفم.

أما العلوم الفلكية، فقد برز فيها في تلك الفترة أبو العباس أحمد الفرغانى (ت ٢٤٦هـ) وهو عند الغربيين يسمى Alfraganus الفراجانوس وقد ترجمت كتبه في علم الفلك إلى اللاتينية والعبرية في العصور الوسطى، وكان لها تأثير على دانتى صاحب الكوميديا الإلهية. ويقال إن الأمريكيين أطلقوا اسم الفرغانى حديثاً على قطاع من القمر تقديراً لفضله.

ثم هناك العالم الفيلسوف أبو يوسف يعقوب الكندى (ت ٢٦٠هـ) نسبة إلى قبيلة كندة اليمنية وقد اشتهر اسمه عند الغربيين على شكل Alkindus. ومن أهم مؤلفاته كتابه في الهندسة الذى أثر في العالم الإنجليزى روجر بيكون في القرن السابع الهجرى (١٣م)، ورسالة في المد والجزر نشرها فيدمان مع ترجمة ألمانية سنة ١٩٣١م، ورسائل في الموسيقى ألفها للخليفة العباسى الواثق بالله الذى كان بدوره يتقن الموسيقى والغناء.

ولقد ترتب على حركة الترجمة وانتشار الكتب المنقولة إلى اللغة العربية أن انتقل هذا التراث العربى إلى الأندلس حيث تناوله الأندلسيون بالبحث والدراسة، كما أضافوا إليه من عندهم إضافات وابتكارات قيمة ولاسيما في ميادين الطب والفلسفة والأدب مما جعل للحضارة الأندلسية

شهرة واسعة في أوروبا وقام عدد كبير من المستعربين والأندلسيين والإسبان بترجمة الكتب العربية في الفلسفة وغيرها إلى اللاتينية والعبرية ولاسيما في زمن الملك الإسباني الفونسو العاشر الملقب بالحكيم أو العالم El Sabio (١٣م) الذى أنشأ في طليطلة وإشبيلية ومرسيه مراكز علمية للترجمة من العربية إلى اللاتينية والقشتالية (الإسبانية)، فترجمت كتب علماء الأندلس أمثال ابن حزم وابن رشد وابن طفيل وابن زهر فضلا عن كتب علماء المشرق الإسلامي. كذلك ترجمت في عهده رحلة الإسراء والمعراج النبوى إلى الإسبانية والفرنسية واللاتينية (Escala de Mahoma) وتأثر بها الشاعر الإيطالي دانتي إليجييري في ملحمته المعروفة بالكوميديا الإلهية، مما كان له أثر كبير في تطور الفكر الأوروبي في العصر الوسيط

وما يقال عن الأندلس يقال أيضًا عن جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا حيث قامت في بالرمو، ونابلي، تحت رعاية الإمبراطور فردريك الثاني، معاهد علمية لترجمة الكتب العربية الإسلامية إلى اللاتينية ونشرها في العالم الغربي المسيحي حيث أحدثت أثرًا قويًا في تفتيق الأذهان وتحررها من قيود رجال الكنيسة مما مهد الطريق إلى حركة النهضة الأوروبية Rennaissance وحركة الإصلاح الديني Reformation اللذين بهما تبتدئ الحضارة العالمية الحديثة.

الفصل الثالث

نظم الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية

النظم هي الخطط ومفردها خُطة (بضم الخاء) وتعني نظم الحكم والإدارة Institutions وما يرتبط بها من تشريعات وأحكام مما يحقق للإنسان الأمن والعدالة والحكم الصالح. أما الخِطط ومفردها خِطة (بكسر الخاء) فهي تعني الأماكن والأحياء. فهناك مثلاً خِطط القاهرة للمقريزي، وخِطط الشام لكرد علي، ومعناها أحياء وأقاليم القاهرة والشام. فالخُطة (بالضم) ما يدبر عقلاً، والخِطة (بالكسر) ما يدبر مكاناً. على أن الذي يعنينا في هذا الموضوع، هو المصطلح الأول، الذي يتناول خُطط المجتمع الإسلامي أو وظائفه الكبرى مثل خطة الخلافة وخطة الوزارة، وخطط القضاء والجيش والأسطول، وغير ذلك من الوظائف التي تختص بنظام الحكم والإدارة.

أولاً: خطة الخلافة:

لا شك أن موضوع الخلافة موضوع قديم واسع متشعب، وقد كثر الكلام والجدال فيه بين العلماء القدامى والحديثين، فبعضهم يقيم هذا النظام على العقل، لأنه لولا الحكام لكان الناس فوضى مهملين. والبعض الآخر

يقيمه على الشرع دون العقل، لأن أول اختصاص للخليفة هو حفظ الشرع وتطبيقه اقتداءً برسول الله ﷺ وعلى الرغم من أن خطة الخلافة، أصبحت الآن مجرد اصطلاح لغوي قديم، إلا أننا إذا انتقلنا إلى البعد التاريخي، وجدنا فيها صورة مجسدة لمبادىء الإسلام في الحكم، من حيث تنظيم العلاقات الإنسانية وفقاً لأحكام الشرع والدين. ولا شك أن الحكم الصالح يقتضي وجود حكومة ترعى مصالح الدين والدنيا اقتداء برسول الله، يرأسها خليفة عنه، وهو ما يعرف في العصر الوسيط بالخليفة أو الإمام أو أمير المؤمنين. فالخليفة هنا، هو خليفة رسول الله في قيادة جماعة المسلمين، وإن كان المضمون قد تطور بعد ذلك إلى خليفة الله في أرضه استناداً إلى قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إذ قال ربُّك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾. غير أن هذه الآية تعني الخلافة العامة للآدميين في الأرض يخلف بعضهم بعضاً لعمارتها، ولا يقصد منها معنى الحكم. ولكن البعض مع ذلك فسروها بهذا المعنى أي معنى الحكم وتلقبوا بها[1]. وقد أنكر أبو بكر الصديق إطلاق هذه التسمية عليه حين دُعي بها، وقال: «لست خليفة الله، ولكني خليفة رسول الله».

كذلك نلاحظ من الناحية اللغوية أن لفظ خليفة أو استخلاف، تطلق في حق الغائب وليس في حق الحاضر، لأن الخليفة هو الذي يخلف من قبله الذي غاب، أما خليفة الله فلا تجوز لغوياً لأن الله حاضر في كل زمان ومكان.

وعلى هذا يمكن القول بأن الخلافة تعني خلافة الله في أرض الله ابتداء لعمارتها، ثم خلافة رسول الله في قيادة المسلمين وتنفيذ أحكام الإسلام بين

---

(1) مثال ذلك الوزير الغرناطي- لسان الدين بن الخطيب حينما دخل على خليفة المغرب أبي عنان فارس وأنشده بقوله:

خليفة الله ساعد القدرْ　　علاك ما لاح في الدجى قمرْ

فرد عليه الخليفة قائلاً: طلباتك مجابة مقدماً!

الناس. أما لقب إمام فهو يعطي أيضاً معنى الزعامه أو الرئاسة مثل قوله تعالى ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا، وأوحينا إليهم فعل الخيرات ﴾ وكان النبي ﷺ يؤم الناس في الصلاة باعتباره رعيماً للمسلمين، ولما مرض مرضه الأخير، ندب أبا بكر ليصلي بالناس بدلاً منه. ولقد اتخذ المسلمون السنيون من هذه الحادثة دليلاً أو حجة على أحقية أبي بكر بالخلافة بعد النبي ﷺ مما يدل على أهمية الإمامة في الصلاة كرمز للزعامة. ولهذا كانت الإمامة في الصلاة من أهم أعمال الولاة في الأمصار الإسلامية. وقد آثر الشيعة اختيار هذا اللفظ، فلقبوا الخليفة بالإمام لما له من صفات دينية، لأن الإمام عندهم مستودع العلم الشرعي.

أما لقب أمير المؤمنين، فهو يعني أيضاً قائد المؤمنين، لأن لفظ أمير يعني عند العرب من قديم قائد الجيش. وقد تلقب عمر بن الخطاب بهذا اللقب أمير المؤمنين، لأنه يعني القيادة والقوة والإيمان، وهي صفات تتناسب مع وضعه كقائد عام للمسلمين في حركة الفتوحات العربية التي تمت في عهده.

وهكذا نرى أن الخلافة والإمامة وإمارة المؤمنين، ثلاث كلمات معناها واحد تقريباً، وهو رئاسة الحكومة الإسلامية الجامعة لمصالح الدين والدنيا. وعلى هذا الأساس كان تعيين الإمام أو الخليفة واجباً حتمياً على الجماعة الإسلامية.

أما الشروط التي يجب توافرها في الخليفة، فهي كما أوردها أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) في كتابه الأحكام السلطانية، سبعة، وهي.

العدالة؛ العلم المؤدي إلى الاجتهاد؛ سلامة الحواس؛ سلامة الأعضاء؛ سلامة الرأي المؤدي إلى سلامة الرعية وتدبير المصالح وهو ما يعرف بالكفاية؛ الشجاعة والنجدة لحماية البلاد ومجاهدة العدو؛ وأخيراً النسب القرشي. وهذا الشرط الأخير اختلف فيه إذ نسب للرسول حديث في

هذا الصدد يقول فيه «الأئمة من قريش»

أما الشيعة، فيرون قصر الخلافة على أسرة معينة وهي أسرة النبي ﷺ أي حصر الخلافة بعد الرسول في علي بن أبي طالب ثم أولاده من بعده عن طريق الوراثة، على أساس أن علياً يستحق الخلافة بالكفاية وبالنص عليه من قبل الرسول ﷺ.

أما الخوارج، فيرون عدم حصر الخلافة في بيت معين، كالبيت النبوي، أو في جنس معين، كالجنس العربي. فالخلافة في نظرهم، لله، أي للأمة، فهي التي تختار الشخص الصالح لها بغض النظر عن جنسه أو لونه ما دام مستوفياً لشروط الخلافة. وقد انتشر هذا المذهب بصفة خاصة بين البربر في المغرب لأنه يناسب وضعهم السياسي والاجتماعي.

والحقيقة إن القرآن الكريم لم يشر إلى نظام الحكم الذي يصح أن يتبعه المسلمون، ولكن آياته تحض الناس على طاعة أولي الأمر، ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾، كما تحض على الشورى والتشاور مثل قوله تعالى: ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾، وقوله: ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾. وعلى هذا الأساس حرص رسول الله ﷺ على تحقيق هذه الشورى التي وردت في القرآن الكريم في حياته ومماته، فكان يستشير أصحابه، ثم ترك لهم الأمر شورى ليختاروا من أرادوا بعد وفاته.

ثم جاء عصر الخلفاء الراشدين الذين سموا راشدين لأنهم كانوا من صحابة النبي المرشدين من قبله للسير على نهجه في الحكم. ولم يراع مبدأ الوراثة في مبايعتهم ولما قامت الدولة الأموية، تحول نظام الخلافة إلى ملك وراثي استبدادي، فكان الخليفة الأموي أشبه بشيخ قبيلة يستمد سلطانه من القوى المادية ومن رضى رؤساء القبائل العربية.

وفي العصر العباسي تطور نظام الخلافة فأصبح الخليفة العباسي تتسم

سلطانه بالقداسة، و يستمد سلطانه من الله سبحانه وتعالى. فالخليفة العباسي أبو جعفر المنصور يقول في إحدى خطبه «أيها الناس، إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتأييده، وحارسه على أمواله، أعمل فيه بمشيئته وإرادته فاسألوا الله أن يوفقني إلى الرشاد». كذلك نلاحظ أنه منذ قيام العباسيين، بدأت تظهر الألقاب الخلافية المضافة إلى الله كرمز لهذا الربط المقدس مثل المعتصم بالله والواثق بالله والمتوكل على الله... الخ. فنظرية الخلافة قد تغيرت في عهد العباسيين وأصبحت تشبه نظرية الحق الإلهي في الحكم التي كانت سائدة بين الفرس قديماً أيام الساسانيين، والتي سادت أوروبا في بداية العصور الحديثة باسم. Divine Right of Rule.

وقد اندمجت هذه النظرية في نفوس المسلمين حتى صارت عقيدة يؤمنون بها، والفضل في ذلك يرجع إلى الدعاية التي قام بها العباسيون لهذه الفكرة، للدرجة أنهم استخدموا في سبيل تدعيمها وترويجها أحاديث نبوية لم تثبت صحتها تبرر لهم هذا الحق إلى يوم القيامة. والتاريخ الإسلامي قد دون معظمه في عهدهم، ولعل هذا كله هو السر في بقاء الخلافة العباسية مدة طويلة، وفي تمتعها بمركز الزعامة الروحية في العالم الإسلامي حتى بعد زوالها من بغداد. يروي جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) في كتابه تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة، أنه حينما سقطت الخلافة العباسية وزالت من بغداد على أيدي المغول سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م)، «خيل للمسلمين أن العالم على وشك الانحلال وأن الساعة آتية عن قريب، وصاروا يؤولون كل ظاهرة على أنها تعبير عن سخط الله، واتخذوها أدلة على ما سيحدث في العالم من انقلاب سيء لخلوه من خليفة».

وإزاء هذه المكانة المقدسة التي تمتعت بها الخلافة العباسية في العالم الإسلامي، حرصت مصر على إحيائها من جديد في القاهرة، وقد تم لها ما أرادت سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) على عهد السلطان الظاهر بيبرس. واستمرت الخلافة العباسية قائمة بالقاهرة إلى أن احتل الأتراك العثمانيون مصر سنة

٩٢٢ هـ (١٥١٧ م) فقضوا على الخلافة، واستأثر السلطان العثماني بالسلطتين الزمنية والروحية معاً.

وهكذا نرى مما تقدم أن العباسيين قد خلطوا السياسة بالدين، وهم في هذه الناحية يختلفون عن الأمويين الذين اتهموا بالخروج عن الدين والاهتمام بالمصالح الدنيوية لدرجة أن الثورات التي قامت في عهدهم، اتخذت صبغة دينية، واعتصمت بالأماكن المقدسة مما أوقع الأمويين في الحرج، واضطرهم إلى ضرب الكعبة والاعتداء على أهالي مكة والمدينة لإخماد تلك الثورات عما أساء إلى سمعتهم الدينية. أما الخلفاء العباسيون فعلى العكس من ذلك، أقاموا سياسة ممزوجة بالدين، وأعلنوا أنهم يريدون إحياء السنة وإقامة العدل، وإرجاع الخلافة الحقة بدلاً من الملك الذي أقامه الأمويون، فأحاطوا أنفسهم بهالة من الدين، وجذبوا الفقهاء والعلماء حولهم، وتلقبوا بالأئمة، وارتدوا بردة[1] النبي (ﷺ) كرمز لسلطتهم الدينية، وذلك في المناسبات الخاصة كصلاة الجمعة والعيدين. وفي ذلك يقول البحتري في مدح الخليفة المتوكل العباسي:

وَوَقَفْتَ في بُرْدِ النبي مـذكـراً ۞ تُـنـذِرُ تـارةً وتُـبـشِّـرُ

ولكي يزيد الخلفاء العباسيون في مهابتهم وقداستهم، اتبعوا بعض عادات الأكاسرة الفرس مثل الاحتجاب عن الرعية والظهور في وسط ستار

---

(١) البردة رداء من الصوف يسدل على الكتفين، واستعمله العرب قبل الإسلام وبعده. ويروى أن الرسول (ﷺ) كانت له بردة من هذا النوع وأنه ألقاها يوماً على كتفي الشاعر كعب بن زهير تعبيراً عن تقديره لشعره. ويقال إن معاوية اشتراها من ولد كعب ثم حفظت بعد ذلك في خزانة الخلفاء أيام العباسيين. ولما استولى هولاكو على بغداد حاول حرقها ولكنها أنقذت من براثنه وهي الآن محفوظة بالقسطنطينية. أما قصيدة البردة المشهورة للشاعر الصوفي شرف الدين محمد البوصيري (ت ٦٩٤ هـ). فاسمها في الأصل: «الكواكب الدرية في مدح خير البرية». وسبب تسميتها بالبردة، أن البوصيري مرض مرضاً عضالاً فجاءه الرسول في المنام وألقى عليه بردته فشفي على الأثر واشتهرت القصيدة باسم البردة وقد ترجمت إلى الفارسية والتركية ونهج على منوالها عدد من الشعراء نذكر منهم أحمد شوقي في قصيدته «نهج البردة»

كثيف من الأتباع. ونشأت نتيجة لذلك وظيفة الحجابة وصاحب الستر أو الستارة، ولم يعد الخليفة يرى كما كان الحال من قبل إلا بعد برنامج محكم دقيق عند مقابلته. كذلك وجدت طريقة خاصة للتسليم على الخليفة مثل الانحناءات وتقبيل الأرض أو ذيل الثوب، وهذه كلها تقاليد فارسية لأن السلام عند العرب كان يبسط اليد أو ضربها.

من كل ما تقدم نرى أن العباسيين قد استفادوا من الدين لتثبيت مركزهم السياسي، وفي ذلك يقول ابن طباطبا في كتابه الفخري في الآداب السلطانية:

«إن هذه الدولة قد ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك، فكان خيار الناس يطيعونها تديناً، والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة».

الخلافات المعادية للخلافة العباسية:

كانت الدعوة في المغرب والأندلس عقب الفتح الإسلامي قائمة لخلافة دمشق الأموية التي ما كاد ينتهي أجلها سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠م) على يد العباسيين حتى سيطرت على تلك البلاد دويلات وخلافات إسلامية تدين بمختلف المذاهب المعادية للخلافة العباسية في بغداد، نذكر منها خلافة الخوارج والشيعة في المغرب، والخلافة الأموية السنّية في الأندلس. ولقد أقام العباسيون في عهد الرشيد دولة الأغالبة في المغرب الأدنى لحماية أطراف الدولة العباسية من أخطار الخوارج والأدارسة والأمويين.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن النزعات الاستقلالية التي دبت في المشرق الإسلامي لم تحل دون استمرار دوله المستقلة على ولائها الروحي تجاه الخلافة العباسية. أما دول المغرب الإسلامي فإنها نزعت إلى الاستقلال السياسي والروحي عن الخلافة العباسية مما اضطر هذه الأخيرة إلى إقامة دولة الأغالبة كدولة حاجزة بينها وبينهم Buffer State.

خلافة الخوارج

كان مذهب الخوارج في بادىء الأمر، من أكثر المذاهب انتشاراً بين قبائل البربر في المغرب، لأنه، كما ذكرنا من قبل، يقوم على مبدأ عدم حصر الخلافة في بيت معين أو جنس معين ويرى تركها لاختيار الأمة، فهي التي تختار الشخص الصالح لها بغض النظر عن جنسه أو لونه ما دام مستوفياً لشروط الخلافة. لهذا وجد البربر أن مذهب الخوارج يناسب وضعهم الاجتماعي والسياسي، فاتخذوه عنواناً للمعارضة ضد أي سيادة تفرض عليهم.

وكانت الصفرية والإباضية أكثر مذاهب الخوارج رواجاً في المغرب، وأكثرها اعتدالاً وتسامحاً مع المخالفين إذا قورنت بغيرها من المذاهب الخارجية الأخرى كالأزارقة والشراة في المشرق. فالصفرية والإباضية لا يرون إباحة دماء المسلمين أو سبي النساء والذرية بل لا يرون قتال أحد سوى جيش السلطان. وعلى أساس هذه المبادىء السابقة قامت في المغرب دولتان خارجيتان إحداهما تدين بالمذهب الصفري، والأخرى تدين بالمذهب الإباضي.

أما الأولى، فهي دولة بني مدرار الصفرية التي قامت في منطقة سجلماسة، التي تعرف اليوم باسم تافيلالت، في جنوب المغرب الأقصى سنة ١٤٠ هـ (٧٥٧ م). ومؤسسها كان سودانياً أسود اللون يدعى عيسى بن يزيد المكناسي الصفري. ويلاحظ أن اختياره يتفق مع مبادىء الخوارج التي لم تتقيد بجنس أو لون معين.

وقد انتهت هذه الدولة على يد قائد الفاطميين جوهر الصقلي سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م).

أما الدولة الخارجية الثانية، فهي الدولة الرستمية الإباضية التي قامت في المغرب الأوسط سنة ١٤٤ هـ (٧٦١ م). ومؤسس هذه الدولة رجل

فارسي الأصل وهو عبد الرحمن بن رستم الذي بويع بالخلافة وصار يلقب بالإمام هو وأبناؤه من بعده ويلاحظ أن أصله الفارسي لم يحل دون اختياره إماماً تمشياً مع مبادىء الخوارج. وكانت عاصمة هذه الدولة مدينة تاهرت التي بناها عبد الرحمن بن رستم سنة ١٥٠ هـ وتقع تقريباً في مكان تيارت الحالية في ولاية وهران غربي الجزائر. ولم تلبث هذه المدينة أن ازدهرت وهاجر إليها التجار والعلماء والطلبة من جميع أنحاء العالم الإسلامي، حتى صارت تسمى بالعراق الصغير، تشبيهاً لها ببلاد العراق الصاخبة بمختلف الأجناس والملل والنحل

وقد عمل عبد الرحمن بن رستم على تدعيم دولته، فعقد تحالفاً مع الدولة الأموية في الأندلس، وكذلك مع الدولة الخارجية الأخرى في سجلماسة وهي الدولة المدرارية الصفرية ونتج عن هذا التحالف الأخير تلك المصاهرة التي تمت بزواج المنتصر بن مدرار على أروى بنت عبد الرحمن ابن رستم. وأنجب المنتصر من أروى ولداً سماه ميموناً، وهو الذي خلفه في الحكم بعد ذلك.

ولما توفي عبد الرحمن بن رستم سنة ١٦٨ هـ ترك الأمر شورى في سبعة أشخاص من بينهم ابنه عبد الوهاب الذي مالت الأغلبية إلى مبايعته وسلمت عليه بالخلافة، بينما اتخذ المخالفون جزءاً معارضاً، ولهذا سموا بالنكار أو النكارية

واستمرت هذه الدولة الرستمية تحكم المغرب الأوسط الى أن قضى عليها الفاطميون سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م). على أن سقوط هذه الدولة الرستمية لم يكن معناه القضاء على مذهب الإباضية في المغرب بدليل أن الإباضية ما زالوا يعيشون إلى اليوم في جنوب الجزائر بمنطقة مزاب، وفي جبل نفوسة في جنوب طرابلس بليبيا.

إمامة الأشراف الأدارسة:

إلى جوار هاتين الدولتين السابقتين، قامت في المغرب الأقصى دولة

علوية حسنية سنة ١٧٢ هـ (٧٨٨ م) وهي دولة الأشراف الادارسة، ومؤسسها هو أبو العلاء إدريس بن عبدالله الأكمل بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب، الذي فر إلى المغرب بعد هزيمة العلويين في موقعة فخ بأحواز مكة سنة ١٦٩ هـ (٧٨٦م). وهناك في المغرب الأقصى، أقام إدريس الأكبر دولته بمساعدة قبيلة أوربة، وبنى عاصمته مدينة فاس التي أتمها ابنه إدريس الأصغر (الثاني) من بعده.

ويفهم من كلام المؤرخين أن الأدارسة في المغرب، كانوا يلقبون بلقب الإمام، وأن هذه الإمامة انتقلت في الأصل إلى جدهم إدريس بن عبد الله بوصاية من أخيه محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية، والذي انعقدت له الإمامة قبل بني العباس. ولما ثار في المدينة المنورة مطالباً بحقه الشرعي، قتله الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور سنة ١٤٥ هـ.

وكان عالم دار الهجرة الإمام مالك بن أنس في ذلك الوقت يرجح إمامة محمد النفس الزكية علي بني العباس. وقد لحق مالك أذى كبير إذ ضربه والى المدينة بالسياط من جراء ذلك. ولا شك أن هذا الحادث جعل لمالك بن أنس ومذهبه مكانة في دولة الأدارسة بالمغرب بدليل ما رواه ابن خلدون من أن الإمام إدريس بن عبد الله (الأكبر) قال في هذا الصدد: «نحن أحق باتباع مذهبه وقراءة كتابه». يعني موطأ مالك - وأمر بذلك في جميع عماله.

ولقد امتد حكم الأدارسة بالمغرب من السوس الأقصى إلى تلمسان في المغرب الأوسط، وتوجد في خزانة الرباط وثيقة هامة، وهي قطعة من رسالة الإمام إدريس الأول أو الأكبر إلى أهل مصر يذكرهم فيها بفضائل أهل البيت النبوي الذي ينتمي إليه، ويصف التضحيات التالية التي بذلوها في سبيل حقهم الشرعي الموروث عن الرسول (ﷺ)، ويطالبهم بتأييده ومساندته. ورسالة الإمام إدريس أو المولى إدريس، كما يسمونه المغاربة، إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الأدارسة لم يفكروا في فصل المغرب عن بقية العالم الإسلامي كما يزعم البعض، بل كانوا يريدون توحيد العالم الإسلامي تحت

قيادتهم مستندين في ذلك إلى أصلهم الشريف وشرعيتهم في الحكم

ويتضح من الأحداث التاريخية التالية أن الخلافة العباسية، قد خشيت على نفسها من اتساع أهداف الدولة الإدريسية، فأقامت دولة الأغالبة في إفريقية (أي القطر التونسي) سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م)، لتكون حداً فاصلاً بين بلادها وبلاد الأدارسة.

ولكن على الرغم من هذا الحاجز الذي أقامه العباسيون في وجه المغرب، حاول الأدارسة من جانبهم استمالة الأغالبة وكسب صداقتهم، ووجدوا استجابة من بعض أمرائهم، ففي هذا الصدد يقول لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) في كتابه أعمال الأعلام (القسم الخاص بتاريخ المغرب ص ١٧ - ١٨): «وكتب إدريس بن عبد الله، القائم بالمغرب، إلى ابراهيم ابن الأغلب، يستكفيه عن ناحيته، ويُذكّره بقرابته من رسول الله، فأجابه عن كتابه وأودعه، ولم تجر بينهما حرب». ثم يضيف ابن الخطيب في موضع آخر من كتابه:

«وذكر أن الخليفة المأمون وجه إلى زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب، كتاباً يأمره فيه بالدعاء لعبد الله بن طاهر حاكم مصر، فلم يرض بذلك زيادة الله، وأمر بإدخال رسول المأمون عليه ليلة وهو ثمل، ونار عظيمة بين يديه في كوانين، وقد احمرت عيناه، فهال الرسول منظره وكان من كلامه بعد تقرير شأنه وطاعة سلفه: يأمرني بالدعاء لعبد خزاعة؟ هذا ما لا يكون أبداً، ثم مد يده إلى كيس بجنبه فيه ألف دينار ودفعه إلى رسول المأمون وصرفه. وكانت في الكيس دنانير من المضروبة بأسماء بني إدريس الظاهر ملكهم يومئذ بالمغرب، ففهم المأمون مغزاه ولم يعاتبه أبداً».

وواضح من هذه النصوص السابقة، أن الأدارسة قد اتصلوا بأهل مصر كما اتصلوا بأهل تونس لدرجة ان احد ملوك الأغالبة قد هدد الخليفة المأمون بمتابعتهم والانضمام إليهم

واستمر الأدارسة في الحكم إلى أن قضى على نفوذهم الفاطميون.

خلافة العبيديين أو الفاطميين:

قامت الخلافة الفاطمية في المغرب سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩م) على أثر دعاية سرية واسعة النطاق قام بها داعيتهم أبو عبد الله الشيعي وانتهت بتولية الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي[1]. ولا شك أن دعوة العلويين الأدارسة، رغم كونها لا تدين بالمذهب الإسماعيلي الشيعي، مذهب الدولة الفاطمية، إلا أنها مهدت السبيل لدعاة الفاطميين في المغرب، وهيأت الأذهان بقبول دعوتهم لآل البيت.

واستطاعت الدولة الفاطمية بفضل تأييد بعض القبائل المغربية، أن تقضي على نفوذ الأغالبة والرستميين والمدراريين بل والأدارسة أيضاً، وأن تحقق وحدة مغربية قاعدتها مدينة المهدية في افريقية (نسبة إلى المهدي الذي بناها).

والخلافة الفاطمية خلافة دينية وراثية تقوم على أساس المذهب الشيعي الاسماعيلي وتستند إلى أساسين هامين:

الأساس الأول: هو العلم اللّدني أو الإلّهي الموروث عن النبي (ﷺ) عن طريق علي بن أبي طالب ثم أولاده من بعده إلى الفاطميين. فالإمام الفاطمي هو المشرع وهو المنفذ، وهو معصوم من الخطأ نتيجة لما ورثه من علوم لدنية عن النبي. وهناك نوعان من العلوم: علم الظاهر وعلم الباطن، أي ظاهر القرآن وباطنه. وقد علّم النبي (ﷺ) الإمام علياً هذين النوعين من العلوم، فأطلق على خفايا الكون والسر المكنون من هذه العلوم، وكل إمام ورّث هذه الثروة العلمية لمن جاء بعده، ولهذا كان الإمام معلماً أكبر.

---

(١) درجت المصادر على تسميتهم بالعبيديين نسبة إلى عبيد الله المهدي، بصيغة التصغير والأصح تسميتهم بالعبديين نسبة إلى عبد الله المهدي، بلا تصغير، كما هو مدون على الدنانير والموازين المضروبة في عهده

أما الأساس الثاني للإمامة الفاطمية: فهو مسألة الوصية أو النص على ولاية العهد. والمعروف في ذلك أن الخلافة الفاطمية ترى كما يرى الشيعة عموماً أن علياً يستحق الخلافة بعد النبي لا عن طريق الكفاءة وحدها (أي سلامة الرأي)، بل عن طريق النص عليه بالإسم. فالإمامة عندهم ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، وإنما هي ركن من أركان الدين ولا يمكن للنبي أن يتركها للأمة، بل كان عليه تعيين إمام لهم معصوماً من الخطأ، وأن علياً هو الذي عينه النبي إماماً بعده. ويستشهدون في ذلك بوصية الرسول عقب حجة الوداع، وفي مكان يسمى بغدير خُم بين مكة والمدينة، حيث قال: «ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى، قال: من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه» وقوله أيضاً: «عليّ مني بمنزلة هارون من موسى». ومن هنا نشأت فكرة الوصية، ولقب الإمام عليّ بالوصي، بينما لقب من جاء بعده بالأئمة، ومرتبة الوصاية أعلا من مرتبة الإمامة، وتلي مرتبة النبوة. ثم انتشرت الوصية بين الشيعة عامة والفاطميين خاصة فقالوا: إن الإمامة تنتقل من الآباء إلى الأبناء ولا تنتقل من أخ إلى أخ بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين، فالأب ينص على ابنه في حياته، ولا يقوم النص في الإمامة على أساس تولية الابن الأكبر، فالإمام يستطيع أن ينص على أي ابن له، فهذا أمر يخصه وحده، لأنه يتلقى علمه ووحيه من الله.

الخلافة الأموية بالأندلس ٣١٦ - ٤٢٢ هـ (٩٢٩ - ١٠٣١ م):

وهي خلافة سنّية قامت متأخرة بالأندلس، زمن عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر لدين الله وذلك في سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م)، ونتيجة لظروف سياسية خاصة أحاطت بالأندلس في ذلك الوقت. أما قبل ذلك التاريخ، فقد مرت الأندلس في دورين أساسين: -

الدور الأول: يمتد من سنة ٩٢ إلى ١٣٨ هـ (٧١١ - ٧٥٦ م) أي منذ

الفتح الإسلامي للأندلس، إلى قيام الدولة الأموية بها. وفيه كانت الأندلس إمارة غير مستقلة وغير وراثية وتتبع الخلافة الأموية بدمشق ويحكمها والي يعرف بالأمير.

الدور الثاني: يمتد من سنة ١٣٨ إلى ٣١٦ هـ (٧٥٦ - ٩٢٩ م) أي منذ مجيء الأمير عبد الرحمن الأول (الداخل) الملقب بصقر قريش إلى الأندلس سنة ١٣٨ هـ وينتهي بإعلان عبد الرحمن الثالث نفسه أميراً للمؤمنين وتلقبه بالناصر لدين الله سنة ٣١٦ هـ. وفي هذا الدور كانت الأندلس إمارة وراثية مستقلة سياسياً عن خلافة المشرق العباسية. أما من الناحية الروحية، فيفهم من كلام بعض المؤرخين أن أمراء بني أمية الذين حكموا الأندلس قبل عبد الرحمن الناصر، دعوا في خطبهم الدينية لخلفاء بني العباس ببغداد رغم العداء السياسي الذي كان قائماً بين هاتين الدولتين. غير أن هذه الرواية في الواقع لم يقم عليها دليل أو اجماع تاريخي. أما ثقاة مؤرخي الأندلس فقد حددوا مدة الدعاء لبني العباس بفترة قصيرة في بداية عهد عبد الرحمن الداخل ثم قطع الدعاء لهم بعد ذلك.

فالفقيه أبو محمد بن حزم القرطبي (ت ٤٥٦ هـ) في كتابه «نقط العروس» (ص ٧٥)، يقول إن الدعوة للعباسيين استمرت عدة سنوات ثم قطعها عبد الرحمن الداخل. كذلك يقول المؤرخ البلنسي ابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ) في كتابه «الحلة السيراء» (جـ ١ ص ٣٥)، إن عبد الرحمن الداخل أقام أشهراً دون السنة يدعو لأبي جعفر المنصور، ثم قطع الدعاء له بعد ذلك. أما المؤرخ الجزائري أحمد المقري (ت ١٠٤١ هـ) فقد أورد لنا في كتابه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» (جـ ٤ ص ٥٩)، رواية طريفة يبين فيها الظروف والملابسات التي تم فيها انقطاع هذه الدعوة للعباسيين فيقول: «وفر من الشام الأمير عبد الملك بن عمر بن مروان الأموي، خوفاً من المسوّدة (أي العباسيين)، فمر بمصر ومضى إلى الأندلس، وقد غلب عليها الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل، فأكرمه ونوه به وولاه

إشبيلية، لأنه كان قُعْدُدَ[1] بني أمية. ثم إنه لما وجد الداخل يدعو لأبي جعفر المنصور العباسي، أشار عليه بقطع اسمه من الخطبة وذكّره بسوء صنيع بني العباس ببني أمية، فتوقف عبد الرحمن في ذلك، فما زال به عبد الملك حتى قطع الدعاء له، وذلك أنه قال له حين امتنع من ذلك: إن لم تقطع الخطبة لهم قتلت نفسي!!، فقطع حينئذ عبد الرحمن الخطبة للمنصور بعد أن خطب باسمه عشرة أشهر.

من هذه النصوص السابقة يبدو لنا أن ما يتعلق بدعاء بني أمية في قرطبة للعباسيين أمر مبالغ فيه وأن هذه الدعوة لم تدم أكثر من فترة قصيرة في بداية عهد عبد الرحمن الأول ثم قطعت بعد ذلك نهائياً. على أنه يلاحظ أن أمراء بني أمية الذين حكموا قبل الناصر وإن كانوا قد قطعوا الدعاء لبني العباس إلا أنهم لم يلقبوا أنفسهم بلقب خليفة، واكتفوا بتلقيب أنفسهم بأبناء الخلائف، وهناك فرق كبير بين خليفة وابن خليفة بطبيعة الحال. ولا شك أن السبب في ذلك هو شعورهم بأن الخلافة وحدة لا تتجزأ ولا تتعدد وأن الخروج عنها عصيان وأن الخليفة الشرعي هو حامي حمى الحرمين الشريفين أي المسيطر على الحجاز أصل العرب والملة ومركز العصبية.

هذا هو الأصل النظري للخلافة السنّية، غير أن مصلحة العمل، ومقتضيات السياسة، وتغيرات الظروف فيما بعد، حتمت الخروج عن ذلك الأصل النظري ووضعه محل الاجتهاد، ومن ثمّ أجاز السنّيون أنفسهم تعدد الخلافة ما دامت هناك مصلحة تقضي بذلك، واعترفوا بشرعية إمامين يتوليان الحكم في وقت واحد على شرط أن تكون بينهما مسافة كبيرة ومساحة واسعة لمنع الاصطدام والفتنة بين المسلمين، وقد يؤيد ذلك ما رواه صاحب كتاب الحلل الموشية (ص ١٩) من أن الأندلسيين أنفسهم هم الذين بايعوا وحملوا الأمير عبد الرحمن بن محمد (الثالث) على حمل هذين الإسمين: أمير المؤمنين والناصر لدين الله، وصاروا يخاطبونه باسم الخليفة قبل إعلانه رسمياً.

---

(١) القُعْدُد: الأقرب نسباً من الجد الأعلى

وهكذا نرى مما تقدم أن نظرية الخلافة السنّية قد تكيفت تكيفاً جديداً تبعاً للواقع وللضرورة السياسية، والنظريات الناجحة دائماً تتبع الواقع وتتأثر به. وعلى أساس هذا المفهوم الجديد للخلافة، أعلن عبد الرحمن الثالث نفسه خليفة للمسلمين سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م)، ولا شك أنه كان مدفوعاً في ذلك بمصالح مختلفة في الخارج والداخل معاً، وأهمها:

١ - قيام خلافة شيعية فتية معادية في المغرب الإسلامي وهي الخلافة الفاطمية التي كانت ترنو إلى الأندلس بعين لا تخلو من الطمع.

٢ - ضعف الخلافة العباسية في المشرق أيام الخليفة المقتدر، واستبداد القواد الأتراك بها وعجزها عن حماية العالم الإسلامي.

٣ - الاستجابة لرغبة الأندلسيين في أن يكون خليفة للمسلمين.

وهكذا تحولت الأندلس منذ سنة ٣١٦ هـ من إمارة إلى خلافة، واستمر لقب خليفة في ذرية عبد الرحمن الناصر من بعده حتى سقوط الدولة الأموية سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) ويلاحظ أن نظام الخلافة الأموية في الأندلس كان نظاماً ملكياً سنّياً يقوم على أساس التوريث، إلا أنه في الوقت نفسه كان يتسم بالبساطة وعدم التعقيد، فالخليفة إنسان عادي قد يخطىء وقد يصيب والناس أحرار في نقده وإن استطاعوا عزله عزلوه. ومن أمثلة هذه الروح الديمقراطية التي امتازت بها الخلافة الأموية بالأندلس أن الخليفة عبد الرحمن الناصر حينما بنى مدينة الزهراء في شمال غرب قرطبة وصرف عليها جزءاً كبيراً من وقته ومن مال الدولة، قامت ضده معارضة شديدة تزعمها قاضي قرطبة المنذر بن سعيد البلوطي الذي أخذ يعرض بالخليفة في المسجد أيام الجمعة. وقد أثارت هذه المعارضة غضب الخليفة الناصر، ويؤثر عنه أنه قال في هذا الصدد: «والله لقد تعمدني منذر بخطبته، فأسرف عليّ وأفرط في تقريعي وتفزيعي، ولم يحسن السياسة في وعظي، فزعزع قلبي وكاد بعصاه يقرعني!!» ثم أقسم بألا يصلي خلفه صلاة الجمعة أبداً، ولكنه لم يستطع إيذاءه أو عزله.

ومن حسن الحظ أن وثيقة إعلان الخلافة التي ورعها الخليفة الناصر على عماله في هذا الشأن، محفوظة لدينا في كتب بعض المؤرخين مثل كتاب البيان المغرب لابن عذاري وكتاب الحلل الموشية، ويلاحظ فيها البساطة في العرض والطلب، فهي أشبه بعقد بين الحاكم والمحكوم.

الصراع بين خلافتي المغرب والأندلس:

لا شك أن قيام خلافتين متجاورتين وعلى أسس مذهبية مختلفة، كان من شأنه أن يحدث صداماً بينهما، وهذا ما حدث فعلاً بالنسبة لخلافة الفاطميين الشيعة بالمغرب وخلافة الأمويين السنّة بالأندلس.

ولقد اتخذ الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر لمحاربة النفوذ الفاطمي الخطوات التالية:

١ - تحصين الثغور الأندلسية الجنوبية المواجهة للمغرب مثل جبل طارق والجزيرة الخضراء وطريف.
٢ - احتلال الثغور المغربية المطلة على مضيق جبل طارق مثل سبتة وطنجة ومليلة، للسيطرة على المضيق ومنع أي غزو يقوم به الفاطميون للأندلس من الجنوب.
٣ - التحالف مع القوى السنّية في المغرب ومع بعض قبائل البربر مثل قبيلة زناتة التي عمل على تحريضها ودفعها إلى قتال حلفاء الفاطميين من البربر مثل قبيلة صنهاجة. ولم يقف الفاطميون مكتوفي الأيدي، بل اتخذوا كذلك سياسة عدائية مماثلة لمحاربة النفوذ الأموي في المغرب، ومثال ذلك: -

١ - التحالف مع بعض قبائل البربر في المغرب مثل قبيلتي كتامة وصنهاجة لمقاومة قبيلة زناتة الموالية للأمويين.

٢ - إرسال الدعاة والجواسيس إلى الأندلس لمعرفة أحوال البلاد، ومواطن القوة والضعف فيها من جهة، ولنشر الدعوة الشيعية فيها من جهة أخرى. وكان هؤلاء الدعاة يخفون أهدافهم الحقيقية بستار من

المصالح المشروعة كالتجارة والعلم والسياحة الصوفية ومن بين هؤلاء الدعاة أو الجواسيس نذكر الرحالة المعروف ابن حوقل النصيبي الذي دخل الأندلس في زي تاجر، وكتب للفاطميين تقريراً عن الأندلس وثرواتها وأحوال جيوشها. وقد أورد هذا التقرير في كتابه المعروف بصورة الأرض.

واستمر النزاع بين هاتين الخلافتين قائماً على إثارة الفتن بين القبائل، واحتلال المواقع الهامة، وتدبير المؤامرات من وراء ستار، بل تطور الأمر إلى اشتباك مسلح بينهما على شكل غارات بحرية تشنها أساطيل كل من الدولتين على سواحل الأخرى.

وأخيراً، يبدو أن الفاطميين شعروا آخر الأمر بأن بقاءهم بالمغرب أمر محفوف بالمخاطر أمام وثبات البربر وتقلباتهم، وأمام غارات الأمويين ودسائسهم، ولعل هذا هو السبب الحقيقي الذي جعلهم يصممون على إخلاء هذا الميدان والتحول إلى مصر.

وفي عام ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) تمكن القائد الفاطمي جوهر الصقلي من الاستيلاء على مصر وتأسيس العاصمة الجديدة القاهرة وبناء مسجدها المعروف بالجامع الأزهر، وفي ذلك يقول الشاعر الفاطمي ابن هانىء الأندلسي معبراً عن سروره:

تقول بنو العباس هل فُتحت مصرٌ؟ فقل لبني العباس قد قضي الأمرْ

ثم لحق الخليفة المعز لدين الله الفاطمي بقائده جوهر في مصر سنة ٣٦٢ هـ تاركاً حكم المغرب في يد حلفائه بني زيري زعماء صنهاجة الذين اكتفوا بحكم النصف الشرقي من المغرب باسم الدولة الزيرية. أما القسم الغربي فقد سيطرت عليه زناتة وحلفاؤها الأمويون. وبذلك حدث نوع من توازن القوى بين الخلافتين المتنازعتين وحلفائهما في المغرب.

ثانياً: خطة الوزارة

بعد الخلافة تأتي الوزارة من حيث الأهمية الإدارية في الدولة. ونظام الوزارة فارسي قديم وليس من مستحدثات الإسلام ولهذا اختلف اللغويون حول أصل لفظ وزير وهل هو فارسي من كلمة وتشير أي الرئيس الذي يحكم، أم هو عربي من الوزْر (بسكون الزاي) وهو الثقل أو العبء، أو من الوزَر (بفتح الزاي) وهو الملجأ أو المعتصم بمعنى أن الوزير يحمل الثقل عن الخليفة أو أنه يلجأ إليه في الأمور الهامة.

ومهما يكن من شيء، فقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في سورة طه: ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري ﴾. وفي سورة الفرقان: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً ﴾. كذلك عرفه العرب أيام الرسول وفي عهد الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية من حيث أن الخلفاء كانوا يرجعون إلى مستشارين أو أصحاب رأي فيما يحتاجون إليه من أمور فهؤلاء الأشخاص كانوا يقومون بعمل الوزير ولكنهم لم يحملوا هذا اللقب إلا نادراً[1]. نذكر على سبيل المثال أن الكاتب في عصر الدولة الأموية، كان يقوم مقام الوزير[2].

ثم جاءت الدولة العباسية متأثرة بتقاليد الفرس ونظمهم، فجعلت للوزارة اختصاصات معينة وقواعد مقننة من أهمها الإشراف على الشؤون المالية. فالوزير هو المختص بحسابات الدولة من دخل وخرج ونفقات، وهذا كان يتطلب منه دراية واسعة بإيرادات الدولة ومواردها الاقتصادية في مختلف الأقاليم والأمصار. وقد حفظت لنا المصادر الإسلامية عدداً من قوائم الخراج التي كانت تمثل إيرادات الدولة العباسية[3].

---

(١) نذكر على سبيل المثال زياد بن أبيه الذي لقب بالوزير في عهد معاوية بن أبي سفيان، وروح ابن زنباع الذي لقب بالوزير في عهد عبد الملك بن مروان

(٢) مثال ذلك عبد الحميد الكاتب على عهد مروان بن محمد

(٣) مثال ذلك قائمة الجهشياري (ت ٣٣١هـ) في كتابه الوزراء والكتاب ص ٢٨١ وهي تمثل

فالوزير بحكم اختصاصه، كان هو المشرف على ديوان الخراج في الدولة (الدخل)، كما كان هو المشرف أيضاً على ديوان النفقات (المنصرف). وقدرة الوزير تظهر حينما يحدث عجز في الميزانية بين الدخل والمنصرف، فيتخذ التدابير اللازمة لتلافي الأمر وسد العجز.

وإلى جانب هذه النواحي المالية والاقتصادية، كان الوزير أيضاً هو المختص بفن الإنشاء وذلك كما يقول الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية، كي يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه. ولهذا جرت العادة أن يكون الوزير من بلغاء اللغة، لأنه هو الذي يتولى بنفسه الإشراف على ديوان الرسائل الذي سمي فيما بعد بديوان الإنشاء.

كذلك كان على الوزير أن يلم بأصول الآداب السلطانية ليعرف كيف يعامل الخلفاء، وأن يكون دارساً كذلك لعقلية الجماهير ليعرف كيف يسوسهم ويعاملهم.

كذلك أصبح للوزير العباسي راتب خاص ودار خاصة عرفت بدار الوزارة بجوار قصر الخلافة. كما صار له لباس خاص عرف بالسواد وهو شعار الدولة العباسية. ويقال إن وزراء العباسيين كانوا يلبسون قلانس فارسية سوداء طويلة حتى إنهم كانوا يستعينون على رفعها من داخلها بالقصب.

وهكذا نجد أن الوزارة أيام العباسيين أصبح لها من حيث المظهر والاختصاص والتسمية والمعاش، طابع جديد لم يوجد من قبل. وفي هذا

الخراج في عهد هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ)؛ وقائمة ابن خلدون في مقدمته ص ١٧٩ وهي منسوبة إلى عصر الخليفة المأمون (١٨٩ - ٢١٨ هـ)؛ وقائمة ابن خرداذبة في كتابه المسالك والممالك وهي تمثل خراج الدولة العباسية في القرن الثالث الهجري، وقائمة قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) في كتابه الخراج وصنعة الكتابة وهي تمثل الخراج الكلي للدولة العباسية. راجع (محمد ضياء الدين الريس: الخراج في الدولة الإسلامية ص ٤٢٢ - ٤٣٥).

الصدد يقول ابن خلدون في تحديد اختصاص الوزير العباسي (المقدمة ص ٢٣٨):

«فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت، عظم شأن الوزير، وصارت إليه النيابة في انفاذ الحل والعقد، وتعينت مرتبته في الدولة، وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب، وجُعل لها النظر في ديوان الحسبان، لما تحتاج إليه خُطته من قَسم الأعطيات في الجند، فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه. وأضيف إليه النظر فيه، ثم جعل له النظر في القلم والترسيل، لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور. وجعل له الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع، فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة».

هذا، ويلاحظ أن معظم وزراء العباسيين كانوا من عائلات فارسية كأسرة البرامكة، وبني سهل، وبني طاهر، وبني الفرات، وبني الجراح، وبني خاقان، وبني وهب.. الخ.

وحينما ضعف نفوذ الخلفاء العباسيين، تحول السلطان والنفوذ من الخلافة إلى الوزارة وهنا أخذت الوزارة معنى آخر، فبعد أن كانت وزارة تنفيذ، أصبحت وزارة تفويض، أي بعد أن كان الخليفة يأمر والوزير ينفذ، صار الخليفة يفوض إلى وزيره تصريف جميع أمور الدولة بينما بقي هو كالمحجور عليه.

ولما استبد بالخلافة العباسية أسرة بنو بويه الفرس (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ) أنف هؤلاء من اتخاذ لقب وزير، وطمعوا في ألقاب الإمارة والسلطنة، فاتخذوا لقب ملك، وأمير الأمراء (شاهنشاه). ثم جاء بعدهم الأتراك السلاجقة (٤٤٧ - ٦٥٦ هـ)، فغيروا هذا اللقب واتخذوا لقب سلطان وصار بيدهم كما حدث للبويهيين من قبل، الأمور السياسية والحربية معاً. أما لقب

وزيره فقد ظل باقياً إلا أن مكانته انحطت بعد أن زالت عنه جميع اختصاصاته وصار عمله محدوداً ككاتب للخليفة أو كاتم لأسراره.

وما يقال عن وزارة العباسيين يقال أيضاً عن وزارة الخلافة الفاطمية في القاهرة، من حيث إنها بدأت هي الأخرى منذ عهد الخليفة العزيز بالله بوزارة تنفيذ ثم أصبحت وزارة تفويض حينما ضعف نفوذ الخلفاء الفاطميين وسيطر على الدولة أمير الجيوش بدر الجمالي وأولاده من بعده. فنظام إمرة الجيوش في أيام الفاطميين كان يشبه نظام إمرة الأمراء في عهد العباسيين.

أما عن نظام الوزارة في المغرب، فنلاحظ أن الدول الإسلامية الأولى التي قامت في المغرب، لم يظهر فيها لقب وزير باستثناء دولة الأغالبة التي اتخذ بعض أمرائها وزراء في دولتهم، إلا أنه يلاحظ أن نفوذ وزراء الأغالبة كان ضعيفاً حتى كاد لقب الوزير عندهم أن يكون لقباً تشريفياً. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن الأغالبة، رغم استقلالهم، كانوا يحكمون باسم خلافة بغداد، وقد اعتادوا أن يكونوا عمالاً لها من قديم في هذه المنطقة مما جعلهم يباشرون أعمالهم بأنفسهم منذ بداية دولتهم في القيروان. أما الأدارسة في فاس، والرستميون في تاهرت، والمدراريون في سجلماسة، والفاطميون إبان حكمهم في المغرب، فعلى الرغم من أنهم استعانوا بمن عاونهم في الحكم، إلا أنهم لم يطلقوا عليهم لقب وزير. فالفاطميون مثلاً لم يتخذوا الوزراء إلا في القاهرة ومنذ أيام الخليفة العزيز بن المعز الفاطمي. وفي ذلك يقول المقريزي (ت ٨٤٥ هـ) في كتابه الخطط (جـ ٢ ص ٢٠٥): «وأول من قيل له الوزير في الدولة الفاطمية، الوزير يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله».

أما في الأندلس، فقد وجدت خطة الوزارة منذ قيام الدولة الأموية، وكان منصب الوزير في بادىء الأمر يشبه في مدلوله ما كان سائداً في بقية أنحاء العالم الإسلامي، ثم جاء الأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط) (٢٠٧ - ٢٣٨ هـ) الذي أعاد ترتيب الجهاز الحكومي في الأندلس، وأجرى تعديلات في الوظائف العامة ومن أهمها خطة الوزارة التي خصها بعنايته، وقسمها إلى

عدة وزارات مختلفة. وقد أمدنا المؤرخون الأندلسيون بمعلومات هامة عن هذه القاعدة الثانية في الدولة.

فابن عذاري في كتابه البيان المغرب يشير إلى أن وزراء الأمير عبد الرحمن الثاني كانوا تسعة وأن رزق كل واحد منهم كان ثلاثمائة دينار في الشهر. ويقول ابن حيان القرطبي في هذا الصدد: «والأمير عبد الرحمن (الثاني) أول من ألزم الوزراء على الاختلاف إلى القصر، كلّ يوم، والتكلم معهم في الرأي، والمشورة لهم في النوازل، وأفرد لهم بيتاً رفيعاً داخل قصره مخصوصاً بهم يقصدون إليه ويجلسون فيه فوق أرائك قد نضدت لهم، فكان يستدعيهم إلى مجلسه جماعة وأشتاتاً، ويخوض معهم فيما يطالع به من أمور مملكته، ويفحص معهم الرأي فيما يبرمه من أحكامه. وإذا قعدوا في بيتهم (أي بيت الوزارة)، أخرج رقاعه ورسائله إليهم بأمره ونهيه، فينظرون فيما يصدر إليهم من عزائمه، وجرى على ذلك من تلاهم».

ويضيف ابن خلدون بعض التفصيلات عن اختصاص كل وزير بقوله (المقدمة ص ٢٣٩): «وأما دولة بني أمية بالأندلس، فأبقوا اسم الوزير في مدلوله، ثم قسموا خطته أصنافاً، وأفردوا لكل صنف وزيراً، فجعلوا لحسبان المال وزيراً، وللترسيل وزيراً، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً، وللنظر في أحوال الثغور وزيراً. وجُعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم، وينفذون أمر السلطان هناك، كلٌّ فيما جُعل له. وأُفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب، ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم».

من هذه النصوص السابقة، نفهم أنه كان يوجد بالأندلس على عهد الدولة الأموية، وزارات متعددة المناصب، لها رئيس وزراء وهو الحاجب الذي يتصل بالخليفة. وهذا التعدد في مناصب الوزراء لا نجده في نظام الوزارة بالشرق العربي حيث كانت السلطة مركزة في يد وزير واحد فقط.

والحاجب في المشرق هو الذي كان يقف بباب الخليفة أو السلطان، أما في الأندلس فكل ناحية من نواحي الإدارة العامة لها وزير مختص بها، ثم هناك الرئاسة العامة للوزارة وهي الحجابة كما كان هناك بيت خاص لانعقاد مجلس الوزراء في قصر الخلافة. فالوزارة في الأندلس كانت «قريبة الشبه بنظام الوزارات الحديثة»، وهي في هذا تختلف عن نظام الوزارة المعروف في المشرق وفي أوربا في العصر الوسيط.

وفي عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) أطلق لقب «ذو الوزارتين» على بعض الوزراء والحجاب في الأندلس، وقد سبق أن استخدم هذا اللقب في المشرق أيضاً على عهد العباسيين، ومثال ذلك الخليفة المأمون الذي منحه لوزيره الفضل بن سهل. والمراد هنا بتلك التسمية أن صاحبها يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية معاً، ولهذا يقال له أيضاً: «صاحب السيف وصاحب القلم».

أما في الأندلس، فيبدو أن استعمال هذا اللقب قد اختلف في مدلوله عن المشرق، إذ يلاحظ أن الخليفة عبد الرحمن الناصر قد أنعم به على وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد نتيجة للهدايا الثمينة الفاخرة التي اتحفه بها هذا الوزير الثري[1]. عندئذ ضاعف له الخليفة راتبه ولقبه بذي الوزارتين، فهو مجرد لقب تشريفي وليس معناه صاحب السيف والقلم. هذا، ومن المعروف أن مناصب الوزارة في الأندلس كانت لأهميتها تتوارث عندهم في البيوت والعائلات المعروفة مثل: بني شهيد، وبني حدير، وبني فطيس... الخ وهم يشبهون في هذا وزراء العباسيين في المشرق الذين كانوا ينتمون إلى عائلات معلومة.

ولما ضعفت الخلافة الأموية في الأندلس، أخذ نفوذ الحاجب يقوى شيئاً فشيئاً حتى استبد بكل أمور المملكة دون الخليفة، وصار اختصاصه يشمل الشؤون السياسية والعسكرية. وتنبغي الإشارة هنا إلى ما سبق أن بيناه، وهو

(١) راجع وصف هذه الهدايا في (المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٣ - ٣٢٤).

أن الحاجب في الأندلس لم يكن ذلك الرجل الذي يقف بباب الخليفة ليحجبه عن الخاصة والعامة كما كان الحال في الشرق . إنما قصد به رئيس الوزارة، أو ما يسمى بالوزير في المشرق. ولقد برز من هؤلاء الحجاب الأقوياء في الأندلس، جعفر المصحفي ثم المنصور بن أبي عامر وأبناؤه من بعده. ومنذ ذلك الوقت أخذت مكانة الوزير تضعف في الأندلس نتيجة لازدياد سلطة الحاجب في الدولة، وصارت كلمة وزير تمنح للطبقة الوسطى من الموظفين والكتاب وشيوخ القرى، حتى سقوط الدولة الأموية بالأندلس.

ثالثاً: خطة القضاء:

القضاء منصب رفيع قد يأتي بعد الخلافة مباشرة، لأن صاحبه يمثل الشرع وأحكام الدين. حقيقة أن خطة الوزارة كانت أوسع سلطة ونفوذاً، إلا أنها كانت تعتبر من توابع الخلافة، أي أنها لم تكن مستقلة تمام الاستقلال. أما القضاء فكان مستقلاً في إدارته ولا يقبل أي تدخل من جانب السلطة التنفيذية. ولهذا كان كثيراً من العلماء يمتنعون عن قبول منصب القضاء خوفاً من تدخل السلطة الحاكمة في شؤونهم، وقد نال بعضهم أذى كبير من جراء هذا الامتناع، مثال ذلك الإمام أبو حنيفة النعمان (ت ١٥٠ هـ)[1] الذي اعتذر عن تولي منصب القضاء في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، خشية أن يحمله الخليفة على الافتاء بما يخالف الشريعة الإسلامية ولا يتفق مع ذمته وضميره، وقد عاقبه الخليفة المنصور على هذا الرفض بالسجن، ثم عفا عنه بعد ذلك.

وإلى جانب استقلال القضاء عن السلطة التنفيذية، فإن القاضي كان يتمتع بمكانة كبيرة بين الجماهير من حيث أنه المنفذ لأحكام الشريعة والدين.

(١) توفي الإمام أبو حنيفة ببغداد ودفن بها في الحي المعروف بالأعظمية نسبة إلى لقبه الإمام الأعظم.

مصادر التشريع الإسلامي:

١ - القرآن الكريم:

هو عماد التشريع لأنه يعتبر أساس الأصول التي يرجع إليها فقهاء المسلمين في استنباط الأحكام الشرعية. وتنقسم آيات القرآن إلى مكية ومدنية. فالآيات المكية، وهي التي نزلت على الرسول بمكة، تدعو إلى توحيد الله وتقيم البراهين على وجوده، وتذكر بيوم القيامة وما سيحدث فيه من بعث وحساب ثم ثواب وعقاب. بينما الآيات المدنية، وهي التي نزلت على الرسول بالمدينة، فتبحث في التشريع التفصيلي وقصص الغزوات وما كان فيها وأسبابها. وفي القرآن شرائع اجتماعية فيما يتعلق بالأسرة ونظامها وتكوينها وهو ما يسمى اليوم بالأحوال الشخصية، كالزواج والطلاق والوصايا والميراث إلى غير ذلك. وفيه شرائع مدنية تتعلق بمعاملات الناس - كالوفاء بالعهود وتحريم الربا -، وبالقصاص أي العقوبات الجنائية، كما نجد فيه الشرائع الدينية من صلاة وزكاة وحج وصيام - الخ.

٢ - السنّة:

وهي أفعال وأقوال وإقرار الرسول (ﷺ)، وتستمد أحكامها من القرآن، ومن اجتهاد الرسول واستشارته لأصحابه. وتعتبر السنّة مفسرة للقرآن، ومفصلة لما أجمل من أحكامه. ومن الأحكام التي فصلتها السنّة وكانت مجملة في القرآن، أحكام الصلاة، إذ فرضها القرآن دون ذكر أوقاتها أو طرق أدائها وعدد الركوع والسجود فيها. ويؤثر عن الرسول (ﷺ) أنه قال: «صلوا كما رأيتموني أصلي، وخذوا عني مناسككم». وقد أمر القرآن بالزكاة، ولكنه لم يعين المقدار الواجب إداؤه ولا موعد الإداء وشرطه، وقد بيّنت السنّة كل ذلك، وقدرت قيمة الزكاة مثلاً بربع العشر عن المال الذي حلّ عليه الحول. ومن قوله تعالى في هذا الصدد في سورة الحشر (٥٩/٧):
﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾.

٣ - الإجماع

وهو المصدر الثالث ويؤثر عن الخليفة أبي بكر الصديق أنه كان إذا اعترضته قضية ولم يجد في كتاب الله ولا في السنّة نصاً يقضي به فيها كان يجمع كبار الناس وخيارهم، ويستشيرهم، فإن أجمع رأيهم على أمر قضى به. ومن ثمّ صار إجماع العلماء في أي قضية دينية أو تشريعية، حجة نافذة المفعول. وهكذا يعتبر الإجماع مفتاح التطور في الشريعة الإسلامية مع مقتضيات الأحوال المتغيرة التي لم يرد فيها نص مما أدى إلى فتح باب الرأي والاجتهاد فيما لا نص فيه شرط أن يستند إلى روح الشريعة الإسلامية

٤ - القياس أو الرأي.

وهو قياس حادثة طارئة على حادثة فيها نص أو إجماع لاتحاد الصلة فيهما. غير أن المسلمين توسعوا في القياس وأطلقوه على الاجتهاد فيما لا نص فيه، أي جعلوه مرادفاً للرأي وخاصة أهل العراق الذين اعتمدوا على الرأي والقياس، وإمامهم في ذلك أبو حنيفة النعمان، وكان ذلك طبيعياً بسبب تعقد الحياة وتطور المدنية في البيئة العراقية لكونها مجمعاً لمختلف الأجناس والملل والنحل مما أدى إلى ظهور قضايا ومشاكل جديدة لا تنطبق عليها النصوص وتحتاج إلى وضعها محل الاجتهاد والحكم فيها عن طريق الاستنباط العقلي القائم على المنطق الدقيق وهو القياس أو الرأي.

٥ - جاري العمل:

والمقصود به جاري العرف، وهو ما يتعارف الناس عليه من فعل أو قول أو عادات جروا عليها من قديم. ولكل أمة أعرافها وعاداتها التي تتوسم الخير في اتباعها. ولهذا فإن العرف غير ثابت ويتغير بتغير الناس والبيئات والأزمان فليست له صفة الدوام. وعلى الرغم من أن هذا المصدر التشريعي، لم يتفق جمهور العلماء على الاستدلال به، فقد ظل للعرف سلطانه ما دام لا يحل محرماً، ويُستند إليه في استنباط الأحكام الشرعية والقضاة عموماً لا

يحكمون بالنصوص فقط، بل يجتهدون ويستمدون أحكامهم من البيئة المحلية التي يعيشون فيها، والقانون جزءٌ من الحياة العامة يتأثر بها ويجاريها، فلا مفر للقاضي أن يراعي في أحكامه - إلى جانب القرآن والسنّة والإجماع - ما اعتاد الناس عليه من قديم، خصوصاً وأن المسلمين الفاتحين اختلطوا بأهل البلاد الأصليين وأصبحت حياتهم مشتبكة مع حياتهم.

وقد راعى أئمة المسلمين في الشرق والغرب هذه الحالة، وجعلوها من أسس تشريعاتهم واعتبروها «عملاً» خاصاً بهم. فالإمام مالك خضع للبيئة الحجازية واعتبر عمل أهل المدينة من أسس تشريعه، وكذلك فعل أبو حنيفة في العراق والشافعي في مصر. واعتمد المشرعون في المغرب على عمل أهل فاس وعمل أهل الرباط وعلى أعراف البربر إلى جانب المذهب المالكي. وبالمثل يقال بالنسبة لقضاة الأندلس الذين كان لهم فقه خاص يقوم أساساً على المذهب المالكي، ولكنه يراعي العرف ويتأثر بالبيئة المحلية، وهذا ما اصطلح على تسميته «بعمل أهل قرطبة» الذي استمر العمل به جارياً إلى أواخر العصر الإسلامي بالأندلس بدليل قول الوزير الغرناطي ابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ): «وقرطبة التي على هدى عملها جاري العمل». فهذا العمل التشريعي القرطبي - وإن كان في الأصل قياساً على عمل أهل المدينة الذي كان أصلاً من أصول المذهب المالكي - يمكن أن يعد مظهراً من مظاهر استقلال الفقه الأندلسي المالكي، كما يمكن أن نجد فيه استمراراً لتقليد تشريعي أصيل كان سائداً في إسبانيا قبل الفتح الإسلامي أيضاً أي منذ أيام الرومان والقوط.

تطور خطة القضاء في الإسلام:

على الرغم من أن العرب قبل الإسلام لم تكن لهم سلطة تشريعية تسن لهم القوانين، إلا أنه يمكن القول بأن فكرة القضاء نبتت عندهم في الجاهلية، وكانوا يعتمدون في أحكامهم على مصادر مختلفة نذكر منها:

١ - الأعراف والتقاليد المستمدة من تجاربهم.

٢ ـ الاحتكام إلى العرافين والكهان

٣ ـ الاحتكام بالقرعة

٤ ـ النظر في المظالم وردّ حقوق المظلومين وقد شهد الرسول في صغره مجلساً من هذا النوع، تحالف فيه القرشيون على نصرة المظلوم من الظالم وهو حلف الفضول.

٥ ـ وجد عند العرب قديماً ما يسمى بالحكومة، وهي لا تعني جهاز الحكم كما هو معروف حالياً وإنما كانت بمثابة مجلس قضائي لتقدير الضرر والتعويض عنه. وكان بنو سهم هم أصحاب الحكومة في قريش، وإليهم كان يحتكم القرشيون وغيرهم من العرب الوافدين على مكة فيما كان يقع بينهم من خصومات.

ولما جاء الإسلام، احتكم المسلمون الأوائل إلى الرسول (ﷺ)، واعتبر حكمه ملزماً حين نزلت الآية: ﴿ فلا وربّك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويُسلموا تسليماً ﴾.

وبذلك يعتبر الرسول أول قاضٍ في الإسلام. وكان يحكم بين الناس بما ينزله الله عليه من الوحي، كما كان يستشير أصحابه، ويجتهد في بعض الأحيان. وكانت طرق الإثبات عنده: البيّنة واليمين وشهادة الشهود. وكان يقول في هذا الصدد: «البيّنة على من ادعى واليمين على من أنكر».

ولما انتشرت الدعوة الإسلامية، أذن الرسول لبعض الصحابة بالقضاء بين الناس بالكتاب والسنّة والاجتهاد. ولما وُلي أبو بكر، أسند القضاء إلى عمر بن الخطاب، فمكث عمر سنتين لا يأتيه متخاصمان لشدته وحزمه، ولم يتخذ عمر لقب قاضٍ.

ولما وُلي عمر الخلافة واشتغل بالفتوح والسياسة، مست الحاجة إلى فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية لاتساع رقعة الإسلام وعدم قدرة الخليفة والولاة في الجمع بين السلطتين. فالخليفة عمر يعتبر أول من عين

القضاة في الولايات الإسلامية للفصل في الخصومات طبقاً لأحكام القرآن والسنّة والاجتهاد. وكان يراعي في اختيار القاضي، غزارة العلم والتقوى والعدل.

واستمر القضاء مستقلاً عن السلطة التنفيذية، وبعيداً عن المؤثرات السياسية في عصر الدولة الأموية حيث كان القضاة يحكمون بالكتاب والسنّة وما يوحيه إليهم اجتهادهم، إذ لم تكن المذاهب الفقهية الأربعة التي تقيد بها القضاة بعد ذلك قد ظهرت بعد. ويلاحظ أنه لم يكن يفرق بين قاضٍ وآخر إلا من ناحية اتساع دائرته.

وفي عصر الدولة العباسية تطور نظام القضاء نتيجة لظهور المذاهب الفقهية المعروفة في عهدها. فأصبح القاضي ملزماً بأن يصدر أحكامه وفق إحدى هذه المذاهب، فكان القاضي في العراق يحكم وفق مذهب أبي حنيفة، وفي الشام والمغرب والأندلس وفق مذهب مالك بن أنس، وفي مصر وفق مذهب الشافعي وهكذا. وقد نتج عن ذلك ضعف روح الاجتهاد في الأحكام.

هذا، ويلاحظ أن الدولة العباسية اعتمدت في كثير من إدارتها على النظم الفارسية، ومن بين ذلك المنصب القضائي الساساني، «موبذان موبذ»، وتعريبه قاضي القضاة أو رئيس القضاة، وهو أعلا الوظائف الدينية قدراً ورتبة، فهو قاضي الدولة كلها، ومن سواه من القضاة في الأقاليم والأمصار نواب عنه، فهو المتصرف فيهم تعييناً وعزلاً مثل وزير العدل اليوم. ولهذا كان يلقب بقاضي القضاة، ومن عداه بالقاضي فقط أو قاضي بلد كذا. وأول من لقب بهذا اللقب في بغداد القاضي أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم، صاحب كتاب الخراج، وحجة الفقه الحنفي وذلك في عهد الخليفة هارون الرشيد ولم يلبث هذا النظام أن انتقل إلى القاهرة أيام الفاطميين حيث كان كبير القضاة يسمى أيضاً بقاضي القضاة.

أما في الأندلس، فكان كبير القضاة يسمى أول الأمر بقاضي الجند، لأن المسلمين في الفترة الأولى بعد فتح الأندلس كانوا جنوداً. وعندما استقرت الدولة أيام عبد الرحمن الأول (الداخل)، وصارت قرطبة هي العاصمة، سمي بقاضي الجماعة أي قاضي الحضرة أو العاصمة. وكان مقره الدائم في قرطبة. والجماعة هنا تفسير بالجماعة الإسلامية التي استقرت في العاصمة الجديدة قرطبة.

غير أننا نلاحظ فرقاً جوهرياً بين منصب قاضي القضاة في المشرق، ومنصب قاضي الجماعة في الأندلس. فقاضي القضاة في بغداد أو القاهرة، هو قاضي الدولة كلها، ومن سواه من القضاة في الأقاليم نواب عنه ويتم تعيينهم وعزلهم على يديه وبأمر منه. أما قاضي الجماعة في الأندلس، فإن سلطته كانت قاصرة على العاصمة قرطبة ونواحيها فقط، بمعنى أنه لم يكن له سلطان على بقية القضاة في الكور[1] الأندلسية، فهم مستقلون بأنفسهم وليسوا نواباً عنه، بمعنى أن قاضي الجماعة لا يمتاز عن بقية القضاة إلا من الناحية الأدبية فقط بحكم كونه قاضياً للعاصمة ومستشاراً للخليفة وإماماً للصلاة في أيام الجمعة والأعياد.

وهكذا نجد أن القضاء في المشرق اتسم بطابع المركزية بينما اتبع في الأندلس نظام اللامركزية وكانت جلسات القاضي تعقد إما في المسجد الجامع أو في أي مسجد من المساجد، لأن المساجد في ذلك الوقت لم تكن قاصرة على الصلاة فقط، وإنما كانت بمثابة المحكمة للفصل في أمور الناس، والمدرسة لتعليمهم، والبرلمان الذي تناقش فيه مشاكلهم وقضاياهم، فضلاً عن انها كانت أحياناً مقراً لبيت المال.

---

(١) الكور وتعني الولايات أو المقاطعات ومفردها كورة. وهذه الكلمة لا يعرف أصلها بالضبط هل هي من قرية او مجموعة القرى، أو من اللفظ اليوناني خوره بمعنى الريف أو الأرض أو من اللفظ اللاتيني كوريا بمعنى الحي. وعلى أية حال فإن الأندلس كانت في مجموعها مقسمة إدارياً إلى كور ومدن

وفي القضايا التي تقع بين المسلمين وغير المسلمين (أهل الذمة)، فكان ينظر فيها قضاة مسلمون ويحكمون فيها بشريعة الإسلام، وفي هذه الحالة كان القاضي يجلس في رحبات المسجد الخارجية كي يستطيع النصراني أو اليهودي أن يصل إليه.

أما القضايا التي تقع بين أهل الذمة فيما بينهم، فكان ينظر فيها قضاة منهم يسمون بقضاة العجم. ونظراً لكثرة أهل الذمة المسيحيين في الأندلس، فقد دخلت كلمة قاضي في اللغة الإسبانية Alcalde وإن كان مدلولها أخذ يقل مع مرور الزمن، فهي اليوم تعني العمدة أو شيخ القرية.

ويشير محمد بن حارث الخشني (ت ٣٦٠ هـ) في كتابه القضاة بقرطبة (ص ١٣٨، ١٨٧)، إلى أن معظم قضاة الأندلس كانوا يتكلمون اللغة الأعجمية أو الرومانسية أي الإسبانية القديمة، ويناقشون بها المتهمين الإسبان المسيحيين. وهذه ظاهرة اجتماعية هامة ترينا إلى أي حد انتشرت اللغة الإسبانية بين مسلمي الأندلس.

أما من جهة رواتب القضاة، فكانت مرتفعة سواء في المشرق أو المغرب حتى يتسنى للقاضي الاستغناء عن الناس وصيانة كرامته.

هذا وقد كان يوجد في الأندلس حق الاستئناف، فالخصم الذي لا يرضيه حكم القاضي يستطيع أن يتظلم أمام قاضي آخر يسمى «صاحب الرد» الذي كان ينظر في القضية مرة ثانية، فإذا وجد فيها مظلمة ردها للقاضي أو رفعها للسلطان كي يصدر فيها حكمه بعد استشارة مجلس المشورة أو الشورى الذي كان يضم قضاة للفتيا. ويبدو أن ولاية الرد لم تكن موجودة إلا في المغرب والأندلس فقط إذ إن فقهاء المشرق ولا سيما أبا الحسن الماوردي لم يذكرها في كتابه «الأحكام السلطانية». لقد وجد بالمشرق ما يسمى بديوان المظالم ولكن لم تكن له فيما يبدو صفة دائمة.

الشرطة

تطلق كلمة الشرطة على الجند الذين يعملون على حفظ النظام وإقرار الأمن في البلاد ليلاً ونهاراً ويقال إن الإسم مشتق من شرط أي وضع علامة، بمعنى أن الشرطة هم الذين أشرطوا أو أعلموا معلامات خاصة تميزهم عن غيرهم. ويقال كذلك إن هذا النظام مأخوذ عن نظام الأمن عند البيزنطيين سكيوريتاس Securitas

وكانت الشرطة في الإسلام أول الأمر تابعة للقضاء وعملها يقوم على إقامة الحدود أي تنفيذ العقوبات والأحكام التي يصدرها القاضي. ثم لم تلبث أن انفصلت واستقلت عن القضاء وأصبح صاحب الشرطة هو الذي ينظر في الجرائم.

وهكذا أصبح هناك نوعان من القضاء.

١ ـ قضاء شرعي يتناول الأمور الشرعية والأحوال الشخصية مثل الزواج والطلاق والمواريث والوصايا والأحباس إلى غير ذلك من الأمور التي تتصل بالشرع والتي وردت فيها أحكام شرعية، ويتولاه قاضي القضاة في الشرق أو قاضي الجماعة في الغرب.

٢ ـ قضاء مدني يفصل في الجرائم الخاصة بالقضايا الجنائية والسياسية، ويتولاه صاحب الشرطة.

وهذه التفرقة بين القضاء الشرعي وبين القضاء المدني أو الجنائي، أوجدتها واستلزمتها المصلحة العامة، لأن القاضي الشرعي مجبر على تطبيق الشرع وإقامة الحدود التي وردت صريحة في القرآن: القاتل يقتل والزاني يرجم والسارق تقطع يده... الخ. حتى إنه يقال أن أحد الصحابة نصح امرأة قدمت إليه بتهمة السرقة بأن تنكر التهمة عن نفسها حتى لا يضطر إلى إقامة الحد عليها والأمر بقطع يدها. أما القاضي المدني أو صاحب الشرطة، فإنه يفصل بين القضايا وفق الشعور المعاصر إذ إنه يقيس الجرائم بمقاييسها

ويدخل في حيثيات حكمه الظروف والملابسات والاعتبارات التي وقعت فيها الجريمة أو التي أحاطت بمرتكب الجريمة فيجعلها أساساً لحكمه دون التقيد بحكم الشرع تماماً.

لهذا رؤي من باب السياسة - كما يقول ابن خلدون (المقدمة ص ٢٥١) - تنزيه القاضي عن هذه السلطة ووضعها في أيدي أناس آخرين يكونون عادة من كبار القادة وعظماء الخاصة. وهذه السلطة المدنية الواسعة كانت تسمى بخطة الشرطة ويسمى الذي يتولاها بصاحب الشرطة.

إذن، فصاحب الشرطة هو الذي ينظر ويحقق ويفصل في الجرائم السياسية والمدنية وكل ما يتعلق بحفظ الأمن في البلاد. فهو بمثابة قاضي الجنايات، وكثيراً ما كان يُرشح للوزارة أو الحجابة لأهمية مركزه عند السلطان.

هذا، ويشير ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) في مقدمة تاريخه (ص ٢٥١)، إلى أن خطة الشرطة في الأندلس، كانت مقسمة إلى قسمين: شرطة عليا، وشرطة صغرى. فصاحب الشرطة العليا أو الكبرى، كان ينظر في الجرائم التي يرتكبها كبار القوم من الخاصة وأهل الجاه. وكان يتولاها رجل من كبار رجال الدولة، وكانت جلساته تعقد بباب قصر السلطان.

أما صاحب الشرطة الصغرى، فكان ينظر في الجرائم التي يرتكبها العامة.

ولا شك أن هذا التقسيم الطبقي للشرطة يتنافى مع روح الإسلام وتعاليمه التي لا تفرق بين مسلم وآخر. وخير مثال على ذلك الخليفة عمر بن الخطاب الذي كان يقاضي الصحابة مع عامة الناس على قدم المساواة.

وتنبغي الإشارة هنا إلى أن هذا التقسيم أيضاً وجد في مصر ولكن على أساس إقليمي وليس على أساس طبقي، فوجدت الشرطة العليا في شمال الفسطاط، والشرطة السفلى في جنوب الفسطاط.

وكيفما كان الأمر، فإن صاحب الشرطة كان يعتبر رأس السلطة التنفيذية القضائية، وكان يعاونه رجال الشرطة والعسس الذين يطوفون بالليل للحراسة، وكانوا يعرفون في الأندلس بالدرابين، لأن بلاد الأندلس كانت لها دروب تغلق في أول الليل بواسطة هؤلاء الدرابين. وكان كل واحد منهم معه سلاح وكلب وسراج. ومن الطريف أن عادة غلق الأبواب ما زالت متبعة في إسبانيا منذ الساعة العاشرة ليلاً وبواسطة درابين يعرفون باسم سيرينوس Serenos.

الحسبة:

كانت خطة الاحتساب أو الحسبة تعتبر في بادىء الأمر من توابع القضاء الشرعي ومتممة له، وإنْ كانت فيما بعد انتقلت إلى القضاء المدني، وفي ذلك يقول ابن خلدون: «كانت الحسبة في كثير من الدول الإسلامية قبل العبيديين بمصر والمغرب، والأمويين بالأندلس، داخلة في عموم ولاية القاضي يولي فيها باختياره. ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة، وصار نظره عاماً في أمور السياسة، اندرجت في وظائف الملك، وأفردت بالولاية وأصبح تعيين المحتسب من وحي الإدارة المدنية لا من حق القاضي».

ونظام الحسبة يعد من أوائل النظم الإسلامية ظهوراً، لهذا كانت له صفة دينية في أساسه الأول ويقوم على تنفيذ النصيحة التي وردت في القرآن الكريم: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾. فوظيفة المحتسب إذن، هي الأمر والنهي وتغيير المنكر في المشاكل اليومية الواضحة التي لا نزاع فيها والتي لا تحتاج إلى حلف يمين أو سماع شهود أو إقامة حدود، فهذه كلها من اختصاص القاضي ولا دخل للمحتسب فيها. أما التعزيزات أو الأحكام التأديبية السريعة كالتوبيخ والتشهير فهي من اختصاص المحتسب. لهذا كانت وظيفة المحتسب تتولى الإشراف على العمال والتجار والصنّاع وكل من يصح أن يخدع عملاءه بأي صفة كانت مما يؤدي إلى الإضرار بالجماعة الإسلامية

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الرقابة على السوق منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب، كانت في يد موظف خاص يدعى العامل على السوق أو صاحب السوق، وكان من واجباته مراقبة الأوزان والمكاييل، والتحكيم في الخلافات التي تنشأ بين أصحاب المهن، وجمع ضريبة الأسواق أحياناً. ويمكن اعتبار هذه الوظيفة أصل وظيفة المحتسب التي ذكرت في التاريخ الإسلامي لأول مرة في عهد يزيد بن هبيرة، عامل مدينة واسط (حوالى سنة ١٠٣ هـ) حيث كان مهدي بن عبد الرحمن ثم إياس بن معاوية محتسبين في واسط، ثم كان عاصم الأحول على الحسبة في الكوفة، ثم اكتسبت الحسبة أهمية كبيرة بعد ذلك في العصر العباسي وفي بقية أنحاء العالم الإسلامي بحيث صار المحتسب هو المنظم الحقيقي للحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية.

ومن القضايا التي ينظر فيها المحتسب:

أولاً: منكرات الأسواق:

مثل بيع الخمور وسائر المحرمات، ونقص المقياس وتطفيف الميزان، والمبيعات المغشوشة، إلى غير ذلك من المعاملات الجارية في الأسواق. ويفهم من كلام المؤرخين أن أسعار المبيعات كانت محددة، وتوضع عليها أوراق بسعر كل سلعة بأمر من المحتسب.

ثانياً: الإشراف على الآداب العامة:

كان المحتسب يعتبر مشرفاً على أخلاق المجتمع، ومن ثم فإن من واجباته أن يراعي إقامة الصلوات في أوقاتها، وهو مسؤول عن نظافة المساجد ومراقبة ما يقول الخطباء والوعاظ، هذا إلى جانب إشرافه على المعاهد التعليمية، وعلى الحمامات، وعلى الآداب العامة في الأزقة والطرقات.

وولاية الحسبة كان يطلق عليها في الأندلس في بادىء الأمر اسم ولاية السوق أو أحكام السوق، وكان متوليها يدعى صاحب السوق التي انتقلت إلى الإسبانية Zabazoqoque. أما لفظ المحتسب الذي شاع في المشرق، فقد

انتقل إلى الأندلس والمغرب في فترة متأخرة يمكن تقديرها بأواخر القرن السادس الهجري ثم انتقل بدوره إلى إسبانيا المسيحية تحت اسم Almotacen.

هذا، وقد تكلم الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية، والمقريزي في كتابه إغاثة الأمة بكشف الغمة، عن ولاية الحسبة في المشرق، وهي لا تختلف عنها في المغرب والأندلس، إلا أن ولاية الحسبة في المغرب والأندلس كانت أكثر تحديداً منها في المشرق، كما كانت تقوم على الضرورات التي تقتضيها الحاجة الحقيقية في تلك البلاد بحيث يمكن أن يقال إن نظام الحسبة في المغرب والأندلس قد استمر بدون انقطاع طوال العصر الوسيط.

ولعل أحسن دليل على أهمية المحتسب في الأندلس من الناحية العملية، أن ملوك إسبانيا المسيحيين، كانوا كلما استردوا من المسلمين أقليماً، أبقوا فيه المحتسب، ولهذا نجد لفظ المحتسب يدخل في اللغة الإسبانية كما رأينا ويطلق على الوالي المكلف بضبط الموازين والمكاييل أما في المغرب، فالدليل على اهمية وظيفة المحتسب وشدة الحاجة إليها، أنها ما زالت باقية مستمرة إلى اليوم في المدن المغربية بينما زالت من المشرق. ويلاحظ أن اختصاصات المحتسب حالياً في المغرب لا تختلف كثيراً عما كانت عليه في العصر الوسيط.

ثالثاً: خطة البريد:

عُرف البريد من قديم عند الرومان والفرس، ولهذا قيل إن لفظ بريد أصله لاتيني Veridus، بينما ذهب البعض الآخر إلى أن أصله فارسي معرب.

وكيفما كان الأمر، فالمعروف أن معاوية بن أبي سفيان هو أول من أدخل نظام البريد في الإسلام، ثم جاء عبد الملك بن مروان فأدخل عليه تحسينات ولم يكن البريد في ذلك الوقت بريداً عاماً للجمهور كما هو الحال اليوم، بل بريداً خاصاً بأعمال الدولة وسلامتها وكانت مهمته مراقبة عمال

الدولة، وإبلاغ العاصمة في أقرب وقت مستطاع بما يجري في الأقاليم من أحداث سياسية واقتصادية وغيرها، أي أنه يشبه ما يسمى بإدارة المخابرات حديثاً.

وكان المشرف على هذه الإدارة يسمى صاحب البريد، وجرت العادة أن يكون رجلاً أميناً يكتب الأخبار بدقة وأمانة. وقد اهتم العباسيون بهذا النظام ولا سيما في عهد هارون الرشيد الذي أحاط مملكته بشبكة دقيقة من خطوط البريد كي يتوخى السرعة في تلقي الأخبار وإصدار الأوامر.

وقد قسمت هذه الخطوط أو المسافات إلى محطات، وفي كل محطة يوجد عدد من العمال والخيل والجمال وكل ما يحتاج إليه عامل البريد من زاد وعلف ومياه.

وتقدر مسافة البريد بين كل محطة وأخرى بنحو أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال، أي أن مسافة البريد إثنا عشر ميلاً.

كذلك كان هناك ما يمكن أن نسميه بالبريد الجوي، ونعني بذلك الحمام الزاجل الذي كان يستخدم في الحالات المستعجلة. وكان لهذا الحمام أبراج خاصة في جميع أنحاء الدولة مثل محطات البريد البري ولكنها تزيد عنها في المسافة. فإذا نزل الحمام في مركز من هذه المراكز، نقل البرّاج الرسالة التي بجناحه إلى طائر آخر كي يصل بها إلى المرحلة التي تليها وهكذا.

وكان الإيجاز والتركيز من أهم مميزات الرسائل التي ينقلها الحمام الزاجل، إذ يستغنى فيها عن البسملة والمقدمات والألقاب ويكتفى بذكر التاريخ والساعة والمطلوب، في صيغة مختصرة، ويخط دقيق عرف باسم الغبار، لأنه مثل ذرات الغبار. كذلك كان حجم هذه الرسائل الجوية صغيراً جداً قد يقدر بحجم سُلاميات الأصابع.

وهكذا نرى مما تقدم أن نظام البريد كان نظاماً دقيقاً يربط الدولة بقائدها، ويطلعه على كل ما يتجدد فيها أولاً بأول.

رابعاً: الجيش الإسلامي

ترتبط نشأة الجيش في الإسلام بفكرة الجهاد أو القتال في سبيل الله، الذي يعتبر ركناً من أركان الدين، وفرضاً[1] فرضه الله على المسلمين للدفاع عن النفس وعن أرض الإسلام من جهة، ولتأمين الدعوة الإسلامية ضد من يقف في سبيلها من جهة أخرى.

عناصر الجيش:

كان الجيش في أيام الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين والأمويين، أي في عصر الدولة العربية، يتكون في أساسه من العنصر العربي بحكم أن العرب هم مادة الإسلام، وإن كان هذا لم يمنع من اشتراك بعض العناصر الغير عربية التي دخلت الإسلام كالفرس والروم الذين كانوا يسمون بالحمراء. مثال ذلك عمرو بن العاص حينما بنى مدينة الفسطاط في مصر، اختط لكل قبيلة من القبائل العربية خطة (بكسر الخاء) أو حيًّا لتنزل فيه. كما أفرد خططاً أو أحياء للعناصر الغير عربية في جيشه مثل خطط للفارسيين والحمراوات يعني الروم وهؤلاء كانوا أقلية ضئيلة بالنسبة للعرب.

ولما كانت الفتوحات العربية الأولى تمت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، فقد تطلب الأمر سرعة اتخاذ تنظيم عسكري لهذه الجيوش العربية المنتشرة في البلاد المفتوحة. لهذا اتخذ عمر بن الخطاب في هذا السبيل خطوات حاسمة تشهد ببراعته كقائد حربي ممتاز. مثال ذلك أنه أوجد ما عرف بديوان الجند أو الجيش أو العساكر، للإشراف عليهم بتقييد أسمائهم وإحصاء أعمالهم والإنفاق عليهم وعلى أسراتهم بما يعرف بالعطاء أو الرزق.

فديوان الجند هو أول ديوان في الإسلام. كذلك يرجع الفضل إلى عمر

(1) يتجه فقهاء المسلمين إلى اعتبار الخروج إلى الغزو والجهاد، فرض كفاية وليس فرض عين لأن الجهاد وإن كان قد فرض على جميع المسلمين إلا أنه قد استثنى منه بعض الناس، كالأطفال والنساء، والشيوخ والمرضى والأعمى والأعرج بمعنى أنه يتطلب فيه بعض الشروط شأنه في ذلك شأن الإمامة مثلاً. أما فرض العين فيعتبر من الفروض الواجبة التي لا جدال فيها كالصلاة والزكاة الخ

ابن الخطاب في إقامة الحصون والمعسكرات في البلاد المفتوحة لإقامة المحاربين العرب، نذكر من أهمها البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان التي لم تلبث أن تحولت إلى عواصم وأمصار أي مدن كبرى.

ولما ولي الأمويون، ساروا على نفس هذه السياسة العربية من حيث تنظيم ديوان الجند وإقامة القواعد والحصون وإدخال نظام التجنيد الإجباري لمواصلة عملية الفتح الكبرى ومحاربة أعداء الدولة وفي مقدمتهم البيزنطيين أو الروم.

أما في عهد العباسيين، فقد حدثت تطورات كبيرة في الجيش الإسلامي، إذ أصبح معظمه من الجنود الفرس أو العجم الذين اعتمدت عليهم الدولة بقيادة أبي مسلم الخراساني. وقد أدى ذلك إلى وجود تنافس وصراع بين العرب والعجم نلمس آثاره في مقتل أبي مسلم الخراساني، وفي نكبة البرامكة، ثم في النزاع بين الأمين والمأمون. ورأت الدولة نفسها في هذا الصراع مثل الفارس الذي يركب جوادين في آن واحد، فهو على شفا السقوط منها مهر في الركوب. ولهذا اضطر خلفاء العباسيين الأوائل إلى استخدام عنصر محارب جديد في الدولة وهو العنصر التركي، وذلك للحد من نفوذ الفرس والعرب.

وكانت أقاليم ما وراء النهر (أي نهر جيحون) مثل خوارزم والشاش (طشقند) وأشروسنه وفرغانة وسمرقند وبخاري، تعتبر في ذلك الوقت مراكز هامة للرقيق التركي بعد إعداده وتربيته تربية عسكرية إسلامية ثم تصديره إلى أنحاء العالم الإسلامي.

وقد جرت العادة أن ولاة هذه الأقاليم، كانوا يرسلون بعض هذا الرقيق على شكل هدايا إلى الخليفة أو الوزير، حتى صار انقطاع ذلك النوع من الهدايا علامة من علامات الثورة أو العصيان في الأقاليم. وتشير المراجع إلى أن هؤلاء الأتراك الذين جاءوا إلى المجتمع الإسلامي الأول عن طريق

الحرب أو الشراء، ثم يعاملوا معاملة سائر الرقيق بالخدمة في الأعمال الحقيرة ككنس الدار وخدمة الدواب وما أشبه ذلك، بل كانوا يتولون مناصب الحكم والقيادة في الدولة. وقد يؤيد ذلك قول المؤرخ ابن حسّول (ت ٤٥٠ هـ) في رسالته «تفضيل الأتراك على سائر الأجناد» (نشرها عباس العزاوي في المجلة التركية الجزء الرابع سنة ١٩٤٠): «ولا يرضى التركي إذا خرج من وثاقه إلا بزعامة جيش أو التوسم بحجابة أو الرياسة على فرقة، كما أنه لا يرضى إلا بأن يساويه سيده في مطعمه ومشربه وملبسه ومركبه».

وكان استخدام المماليك الأتراك في الوظائف الكبرى في الدولة يرجع إلى بداية العصر العباسي الأول، مثال ذلك الخليفة المأمون الذي استخدم في حرسه عدداً من المماليك الأتراك مثل طولون التركي الذي صار قائداً للحرس الخلافي العباسي وهو والد أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية في مصر والشام.

ثم جاء أخوه الخليفة المعتصم بالله وكانت أمه تركية فتوسع في استخدام المماليك الأتراك كجنود في الجيش حتى بلغ عددهم بضعة عشر ألفاً وبنى لهم عاصمة جديدة في شمال بغداد وهي مدينة سر من رأى أو سامراء. ولم يكتف المعتصم بذلك بل أمر بإسقاط العرب من ديوان الجيش وقطع أعطياتهم وأرزاقهم منه وإحلال الترك محلهم.

وكان من الطبيعي أن يزداد نفوذ الأتراك بعد أن صاروا عنصراً هاماً في المجتمع والجيش الإسلامي. فلما ضعف نفوذ الخلافة العباسية في الأقاليم وجنح عمال الأطراف إلى الاستقلال بولاياتهم، صار هذا العنصر التركي هو عماد تلك الحركات الإستقلالية.

فجميع الدول الإسلامية التي قامت في المشرق الإسلامي منذ أواخر القرن الثالث الهجري، اعتمدت على المماليك الأتراك في جيوشها، واتبعت نظاماً تربوياً وعسكرياً إسلامياً دقيقاً في تربيتهم وإعدادهم. ولعل من أبرز

. هذه الدول، الدولة السامانية التي قامت في بلاد ما وراء النهر سنة ٢٩٠ هـ واتخذت مدينة بخارى عاصمة لها. فقد حرص ملوك هذه الدولة، رغم أصلهم الفارسي، على الجهاد في وسط آسيا وجذب المماليك الأتراك والاهتمام بتربيتهم حتى صار معظم جيوشهم منهم. وقد أعطانا الوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي (ت ٤٨٥ هـ) في كتابه «سياسة نامه»، وصفاً دقيقاً باللغة الفارسية لهذا النظام التربوي الذي وضعه السامانيون لمماليكهم، ومن ذلك قوله ما معناه (الترجمة الفرنسية للمستشرق شيفر ص ١٣٨): «إن مماليك السامانيين يُرقّون تدريجياً بناءً على خدماتهم وشجاعتهم وليس اعتماداً على المحسوبية أو الجاه. فالمملوك عند شرائه يخدم عاماً على قدميه فيسير مرتدياً قباء من القطن بجوار سيده الممتطي صهوة جواده. ولا يسمح للمملوك في عامه الأول من الخدمة أن يركب الخيل إطلاقاً وإلا عوقب أشد العقاب فإذا ما أتم عامه الأول، يسمح له بركوب فرس بدون سرج ولجام، ثم يمنح في العام الخامس من خدمته سرجاً ولجاماً وسروالاً من القطن المخلوط بالحرير وبعض الأسلحة. وفي العام السادس يمنح المملوك ملابس أفخر من ملابسه السابقة. وفي العام السابع يمنح خباءً وثلاثة من الرقيق ليقوموا بخدمته، وعندئذٍ يستحق المملوك لقب عريف الدار، ويضع على رأسه طاقية من الجوخ الأسود الموشاة بالفضة كما يرتدي قباءً حريرياً. ثم يأخذ المملوك في الترقي عاماً بعد عام وتزداد حاشيته تدريجياً إلى أن يصل الى مرتبة صاحب الخيل ثم حاجب الحجاب. ولا يأخذ المملوك لقب أمير ولا يتولى عملاً كبيراً مثل القيام على ولاية من الولايات أو فرقة من الفرق العسكرية إلا بعد أن ينضج. وسن النضوج في العادة هو سن الخامسة والثلاثين».

ويضيف الوزير نظام الملك في كتابه السالف الذكر، أن هذا النظام التربوي الساماني قد طبق على أيامه في القرن الخامس الهجري في دولة الأتراك السلاجقة الذين أكثروا من جلب المماليك الأتراك من بلاد القفجاق شمالي البحر الأسود، واهتموا بتربيتهم ثم أطلقوا على كبارهم اسم الأتابكة

وهي جمع أتابك ومعناها الوالد الأمير لأنهم جعلوهم مربين لأولادهم القصر ومنحوهم الإقطاعات الكبيرة مقابل قيامهم على شؤون هؤلاء الأبناء وتأديتهم الخدمة العسكرية وقت الحرب. ولكن سرعان ما صار هؤلاء الأتابكة أصحاب النفوذ الفعلي في تلك الإقطاعات، وانتهزوا ضعف الدولة السلجوقية واستقلوا بولاياتهم شيئاً فشيئاً حتى اقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم ما عدا الفرع الرومي في آسيا الصغرى، فإنه ظل في حوزة السلاجقة أنفسهم حتى أتى العثمانيون واحتلوا تلك البلاد في القرن الثامن الهجري.

والدول الأتابكية كثيرة العدد وبيوتها شتى لا تنتهي إلى نسب واحد، إلا أنها يجمعها صفة المملوكية، والاتصال بالبيت السلجوقي، والنظام الاقطاعي الإسلامي. ومن مماليك السلاجقة الذين صاروا أتابكة، الأمير عماد الدين زنكي مؤسس أتابكية الموصل وحلب. وهو ابن قسيم الدولة آق سنقر أحد مماليك السلطان السلجوقي ملكشاه. وعن طريق زنكي وابنه نور الدين كان ظهور صلاح الدين الأيوبي الذي تأثر بالنظم السلجوقية، وإليه يرجع الفضل في انتقال تلك النظم إلى مصر حيث بقيت عدة قرون زمن الأيوبيين ثم بعد ذلك دولة المماليك الأتراك التي تبلورت فيها خلاصة وحصيلة هذه النظم التربوية العسكرية الإسلامية السابقة، ولهذا استطاعت أن تقهر المغول شرقاً وتطرد الصليبيين غرباً وفي آن واحد.

وإذا كان العنصر التركي قد سيطر على جيوش الدول التي قامت في الجزء الشرقي من الخلافة العباسية، فإن هناك عنصراً آخر من المماليك وهم الصقالبة، قد لعبوا دوراً هاماً في جيوش دول المغرب والأندلس غرباً.

وكلمة صقلب وصقالبة أطلقها الجغرافيون العرب في العصور الوسطى على الشعوب السلافية، لأن الجرمان دأبوا على سبي تلك الشعوب وبيع رجالها ونسائها إلى عرب إسبانيا. ولذا أطلق العرب عليهم اسم الصقالبة وهو تعريب للكلمة الأوروبية اسكلاف Esclave أو سلاف Slave ومعناها عبد أو رقيق وهي الكلمة التي سميت بها الشعوب السلافية. ثم توسع

العرب في استعمال هذا الاسم، فأطلقوه على أرقائهم الذين جلبوا صغاراً من مختلف نواحي أوروبا بصفة عامة ومن شمال إسبانيا بصفة خاصة ثم ربوهم تربية عسكرية إسلامية ووضعوهم في معسكرات خاصة بجوار قصر الإمارة بقرطبة ومنعوهم من الاختلاط بالأهالي شأنهم في ذلك شأن المماليك الأتـراك في الشرق الإسلامي.

وكانت جيوش المغرب والأندلس في باديء الأمر تقوم على أساس نظام القبائل والعشائر من العرب والبربر. وكانت الدولة تستمد منهم القوة الحربية على أساس النظام الاقطاعي العسكري المعروف في العصور الوسطى شرقاً وغرباً. فقبائل العرب والبربر التي حلت بالأندلس مثلاً قد وزعت على القرى والمدن الأندلسية وأبيح لها حق استغلالها وجباية الأموال من أهلها. فكانت تأخذ عطاءها من هذه الأموال وترسل الفائض إلى خزانة الدولة، وفي مقابل هذا الاقطاع كان على كل قبيلة أن تساهم بعدد من أبنائها في حالة الحرب.

وظل هذا النظام العسكري هو النظام المتبع في الأندلس حتى أيام الأمير الأموي الحكم بن هشام الملقب بالربضي وهو حفيد عبد الرحمن الداخل. فقد رأى هذا الأمير أن يقيم إلى جانب هذا النظام الاقطاعي نظاماً عسكرياً دائماً يعتمد عليه في كل وقت ويتقاضى جنوده مرتباً ثابتاً من الدولة. وقد جاء هذا التغيير نتيجة لثورة خطيرة قامت في ربض من أرباض قرطبة (أي ضواحيها) كادت تطيح بعرش هذا الأمير، ولكنه تمكن من القضاء عليها قضاء مبرماً لدرجة أن اسمه صار مقترناً بها فقيل «الحكم الربضي». وقد رأى هذا الأمير عقب ذلك أن يتخذ لنفسه فرقة من الحرس الخاص عرفوا باسم الصقالبة، وهم كما سبقت الإشارة، كانوا من أصل مسيحي وجلبوا صغاراً واعتنقوا الإسلام وربوا تربية عسكرية إسلامية، واستطاع بعضهم أن يصل إلى مناصب القيادة والرئاسة في الدولة. وهكذا وجد في الدولة الأموية بالأندلس نظام الجيش الدائم الذي كان مقره العاصمة قرطبة، ونظام القبائل والعشائر التي كانت تقيم في البوادي والولايات.

ولكن يبدو أن هذا الوضع الجديد قد أثار الحسد والتنافس بين هذه العناصر المختلفة. ونلحظ ذلك بوضوح في الهزيمة التي مني بها الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر أمام الإسبان في موقعة شمنقه Simancas سنة ٣٢٧ هـ في شمال مدريد. وسببها أن الخليفة الناصر منح قيادة جيوشه لمملوكه نجدة الصقلبي، فأثار بذلك غضب القواد العرب، فتخلوا عنه إبان المعركة مما أدى إلى هزيمته وقتل قائده نجدة الصقلبي.

ولما جاء الحاجب المنصور بن أبي عامر وقبض على زمام الأمور في الأندلس سنة ٣٧١ هـ، رأى أن هذا النظام العسكري كفيل بأن يخلق الحزازات والفتن بين عناصر الجيش وقواده، ولهذا عول على تغييره بنظام آخر يجعل الجيش كله وحدة نظامية متماسكة خاضعة لقيادته. فألغى العنصرية في ترتيب الجيش كما ألغى النظام الاقطاعي العسكري، بمعنى أنه جعل الجيش نظامياً دائماً يتكون من فرق متعددة، وكل فرقة تتألف من جميع هذه العناصر المختلفة كالعرب والبربر والصقالبة، وكل جندي من هؤلاء يتقاضى مرتباً شهرياً من الدولة حسب رتبته بدلاً من استغلاله للاقطاع كما كان الحال سابقاً. ولقد أفاد هذا النظام الجديد في بادىء الأمر، إذ زالت العصبية العنصرية بين فرق الجيش واستطاع المنصور بن أبي عامر أن يفرض على الجيش نفوذه وسلطانه وأن يحرز به انتصاراته الحربية المشهورة ضد الإسبان.

ولكن بعد موت المنصور سنة ٣٩٢ هـ وابنه عبد الملك المظفر سنة ٣٩٩ هـ، دب الفساد في جسم الدولة، فلم تستطع الحكومة دفع رواتب الجند فكثر شغبهم، وانتقل الفساد إليهم فضعفوا وهزموا أمام العدو. وظل الحال على هذا الوضع إلى أن جاء المرابطون في القرن الخامس الهجري فرأوا أن خير وسيلة لإصلاح الجيش هي إعادة النظام الإقطاعي العسكري من جديد وفي ذلك يقول المؤرخ الأندلسي المعاصر أبو بكر الطرطوشي (المتوفى ٥٢٠ هـ) في كتابه سراج الملوك (ص ٢٢٩):

«وسمعت بعض شيوخ الأندلس من الأجناد وغيرهم يقولون: ما زال

أهل الإسلام ظاهرين على عدوهم، وأمر العدو في ضعف وانتقاص، لما كانت الأرض مقطعة في أيدي الأجناد، فكانوا يستغلونها ويرفقون بالفلاحين، ويربونهم كما يربي التاجر تجارته. كانت الأرض عامرة والأموال وافرة والأجناد متوافرين والكراع والسلاح فوق ما يحتاج إليه، إلى أن كان الأمر في آخر أيام ابن أبي عامر، فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الأموال، وقدّم على الأرض جباة يجبونها فأكلوا الرعايا، واجتاحوا أموالهم واستضعفوهم، فتهاربت الرعايا وضعفوا عن العمارة، فقلت الجبايات المرتفعة إلى السلطان، وضعفت الأجناد وقوي العدو على بلاد المسلمين حتى أخذ الكثير منها، ولم يزل أمر المسلمين في نقص وأمر العدو في ظهور إلى أن دخلها الملثمون (أي المرابطون) فردوا الإقطاعات كما كانت في الزمان القديم».

هذا، وتجدر الإشارة هنا إلى أن ما حدث في الأندلس، حدث أيضاً في المغرب من حيث اعتماد الحكام على قبائل وعشائر البربر المختلفة والنظام الاقطاعي العسكري في البوادي إلى جانب استخدام الصقالبة كحرس خاص في العواصم.

ويفهم من النصوص التاريخية أن هؤلاء الصقالبة جاءوا إلى المغرب أطفالاً من سبي إيطاليا وسواحل دالماسيا، وأنه كانت توجد في مدينة بلرم في شمال جزيرة صقلية العربية حارة الصقالبة وصفها الرحالة ابن حوقل كمدينة عامرة مما يرجح أنها كانت بمثابة مركز تجمع وإعداد للرقيق الصقلبي قبل إرساله إلى المغرب.

ويشير المؤرخ الغرناطي لسان الدين بن الخطيب إلى أن الأغالبة والفاطميين من بعدهم، اعتمدوا على الصقالبة في جيوشهم، ويضرب مثلاً على ذلك بزيادة الله الأغلبي حينما فر إلى مصر بعد زوال ملكه على يد الفاطميين، بأنه انتخب من مماليكه الصقالبة ألف خادم وجعل على وسط كل واحد منهم ألف دينار. كذلك يرجح المستشرق التشكوسلوفاكي هربك أن القائد الفاطمي المعروف جوهر الصقلي كان صقلبياً وليس صقلياً، ويدلل على

ذلك بأن جزيرة صقلية كانت تقع في يد المسلمين وأهلها أهل ذمة لا يخضعون للرق، ويفترض أن جوهراً جاء إلى المغرب عن طريق صقلية (حيث حارة الصقالبة) فنسب إليها رغم كونه صقلياً.

ومن الطريف أن الدولة الفاطمية حينما استقرت في مصر، استخدمت في جيوشها عناصر تركية إلى جانب العناصر الصقلبية، فهي بهذا تعتبر الدولة الإسلامية الوحيدة التي جمعت على نطاق واسع بين الأتراك والصقالبة أي بين مماليك المشرق والمغرب.

أسلحة الجيش:

استخدم المسلمون جميع أنواع الأسلحة المعروفة في العصر الوسيط استخدموا السيوف والرماح والنُشّاب أي السهام ذات النصول المثلثة، كما استخدموا أقواس اليد والرجل، وأقواس اللولب التي تشد بواسطة لولب، وأقواس الركاب التي تشد من ركاب الخيل. كذلك استخدموا ما يسمى باللتوت وهي أعمدة ذات رؤوس حديدية مستطيلة ومضرسة، والدبابيس وهي تشبه اللتوت إلا أن رؤوسها مدورة ومضرسة، والطبر أو الطبرزين وهي الفأس، والدرق اللمطية لاتقاء ضربات العدو وسهامه، وهي مغطاة بجلد اللمط وهو حيوان يعيش في الصحراء. كذلك لبسوا الخوذات أو البيضات الحديدية لحماية رؤوسهم كما لبسوا الجواشن التي تحمي صدورهم، والدروع المسبلة ذات المغافر الملثمة التي تغطي جميع أجزاء الجسم.

هذا، وكان الحصان يعتبر سلاحاً هاماً من أسلحة الجيش، ولذا اهتموا بتربيته وإعداده وتدريبه، كما اهتموا بسلامته وتغطية جسمه بدروع فولاذية أو جلدية تسمى التجافيف. ويشير العذري (ترصيع الأخبار ص ٢) على سبيل المثال إلى أن ساحل تدمير (مرسية) بشرق الأندلس، كان مركزاً لتربية الخيل حتى إنه كان يخرج ألف فرس من كل ألوان الخيل في كل عام.

كذلك استخدم المسلمون أسلحة الحصار الثقيلة مثل المنجنيقات المدمرة

للحصون، والدبابات والكباش لنقب الحوائط والأسوار.

كل هذه الأسلحة صنعها المسلمون في بلادهم الممتدة شرقاً وغرباً، معتمدين في ذلك على ما لديهم من مواد خام وأيدٍ صناعية ماهرة. وقد أمدتنا الكتب الجغرافية والمعاجم اللغوية بمادة غزيرة عن المعادن المختلفة ولا سيما مناجم الحديد التي كانت منتشرة في فرغانة، وكابل، وكرمان، وأذربيجان وأرمينية، ولبنان والشام، وصقلية والمغرب والأندلس. هذا إلى جانب الحديد المستورد من الهند وسيلان وروسيا وبيزنطة.

وعلى أساس هذه الخامات الحديدية، قامت صناعة الأسلحة التي اشتهرت باسم أماكن صنعها في العالم الإسلامي مثل: السيوف الفارسية، والسيوف اليمنية والسيوف الشامية والمشرفية والدمشقية، والسيوف الحنيفية التي كانت تصنع في الحجر عاصمة بني حنيفة في اليمامة. ومثل الرماح الخطية التي كانت تصنع في الخط بين البحرين وعمان على الخليج العربي. وكذلك كان الفولاذ الأندلسي مشهوراً بجودته في أنحاء العالم، ومن أهم مراكز صناعته: طليطلة، وغرناطة، وإشبيلية، ومرسية، والمرية حيث كانت تصنع السيوف والدروع والخوذات وغيرها من الآلات الحربية.

ولقد اشتهرت مدينة سبتة بأسلحة الرمي حتى صارت بعض الأسر تتوارث صناعتها هناك. كذلك اشتهرت مدينة فاس في المغرب بصناعة السيوف والسكاكين معتمدة في ذلك على الحديد المجلوب من مناجم بني سعيد المجاورة.

وإلى جانب هذه الأسلحة التقليدية، توصل المسلمون إلى اختراع أسلحة متطورة، مثال ذلك أنهم صنعوا قدوراً خزفية في حجم الرمانة محشوة بالجير والنشادر والبول، وأطلقوا عليها اسم القدور الكفيات لأنها تلقى على العدو بالكف أو اليد مثل القنابل اليدوية. فإذا اصطكت بجسم العدو المدرع بالحديد، انكسرت وخرجت رائحتها في خياشيمه وسببت له اختناقاً.

كذلك استخدم المسلمون قدوراً أخرى وهي قوارير النفط أو نِيم النفط التي تحتوي على مادة حارقة أساسها النفط، فإذا ألقيت على هدف من الأهداف أشعلت النار فيه وهذا السلاح وجد عند البيزنطيين من قبل وأطلقوا عليه اسم «النار الإغريقية».

ولهذا وجه المسلمون عنايتهم نحو استغلال آبار النفط التي في بلادهم، والتي كانت تكثر في إيران والعراق وصقلية. فيحدثنا الرحالة أبو دلف الخزرجي (القرن الرابع الهجري) عن عيون النفط التي في باكويه من أعمال شروان في إقليم طبرستان، وكيف أن قَبالة (ضمان) كل عين منها بلغ ألف درهم في اليوم (الرسالة الثانية لأبي دلف ص ٤٢). كذلك يصف لنا ابن الشباط التونسي (القرن السابع الهجري) طريقة استخراج زيت النفط من الآبار القريبة من سرقوسة Syracuse على الساحل الشرقي لجزيرة صقلية، وكيف أن الرجل الذي يتزل في البئر كان عليه أن يغطي رأسه ويسد مسام أنفه وإلا هلك لساعته. (وصف الأندلس لابن الشباط ص ١٨٥).

وفي أواخر القرن السابع الهجري (١٣ م) توصل مسلمو المغرب والأندلس إلى اكتشاف خاصية أخرى للنفط كمادة هادمة متفجرة إذا اختلطت بملح البارود أو النشادر وحصى الحديد في درجة حرارة عالية. وهذا الاكتشاف أدى إلى ظهور المدافع والأسلحة النارية. وفي هذا الصدد يروى ابن خلدون (العبر جـ ٧ ص ١٨٨) أن سلطان المغرب يعقوب المريني عندما هاجم مدينة سجلماسة (تافيلالت الحالية في الجنوب) سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٢ م) نصب عليها هندام (آلة) النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار المرقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة بارئها».

كذلك استخدم سلطان غرناطة اسماعيل بن الأحمر هذا السلاح الجديد في حصار مدينة أشكر Huescar في جنوب الأندلس. وفي ذلك يقول الوزير الغرناطي ابن الخطيب (اللمحة البدرية ص ٧٢): «وفي سنة ٧٢٤ هـ

(١٣٢٤ م) نازل السلطان بلدة أشكر ونشر عليها الحرب، ورمى بالآلة العظمى المتخذة بالنفط، كرة محماة، طاقة البرج المنيع، فعاثت عياث الصواعق السماوية، ونزل أهلها قسراً على حكمه، وفي ذلك يقول شيخنا ابن هذيل:

وظنوا بأن الرعد والصعق في السما	فحاق بهم من دونها الصعق والرعدُ
غرائب أشكال سما هرمس[1] بها	مهندمة تأتي الجبال فتنهد
الا إنها الدنيا تريك عجائباً	وما في القوى منها فلا بدّ أن يبدو

ومن الطريف أن المصادر الإسبانية المعاصرة في وصفها لأحداث هذه الحرب، أشارت إلى هذا السلاح الجديد. ففي حوليات ثوريتا Zurita الإسبانية (جـ ٤ ص ٣١) نجد العبارة التي تقول ما معناه: «وانتشرت الإشاعات في مدينة لقنت أن ملك غرناطة يمتلك سلاحاً جديداً مبيداً».

واضح من النصوص السابقة ومن تواريخ أحداثها، أن مسلمي المغرب والأندلس توصلوا إلى استخدام الأسلحة النارية قبل ظهورها في أوروبا لأول مرة في موقعه كريسي Creasy سنة ١٣٤٢ م، في حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا والتي انتصرت فيها انجلترا بسبب توصلها إلى هذا الاختراع. كذلك نلاحظ أن المسلمين استعملوا كلمة «النفط» بمعنى النار الإغريقية الحارقة، كما استعملوها أيضاً بمعنى المدفع المدمر الهادم الذي يحدث فرقعة مثل الصواعق السماوية. ولا يزال يوجد في المغرب وفي مدينة العرائش بالذات، مدافع أثرية يرجع تاريخها إلى بداية العصر الحديث في عهد السعديين (القرن العاشر

---

(١) هرمس Hermes الاسم اليوناني للإله الروماني Mercure إله الفصاحة والتجارة والسرقة ولذا أطلق اسمه على معدن الزئبق Mercure الذي لا يعرف كيف يمسك. ويرى ابن خلدون في مقدمته ص ٤١٢ أن هرمس هو أول من ابتكر صناعة الحياكة أو الخياطة وأنه هو نفسه النبي إدريس عليه السلام أقدم الأنبياء. وسواء أكان هرمس مثل الزئبق أو مثل الخياط الماهر، فالتشبيه هنا يرمز لغرابة الاختراع.

الهجري) قد نقش عليها ما يفيد ذلك وأمر بصنع هذا النمط السعيد، السلطان كذا. . »

طرق الاشتباك في الحرب.

تطورت أساليب القتال عند المسلمين حسب تطور المدنية وتقدمها خلال العصر الوسيط. ففي أيام الرسول (ﷺ) كانت طريقة القتال تقوم على الصفوف أو المصاف مثل صفوف الصلاة استناداً إلى قوله تعالى: ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾. وهكذا أخذ العرب يقاتلون زحفاً أي صفوفاً بعد أن كانوا يتبعون في الجاهلية طريقة الكر والفر.

وبعد أن اتصل العرب بالفرس والروم، أخذوا عنهم نظام التعبئة أي تقسيم الجيش إلى كراديس وهي كلمة يونانية معناها الكتائب أو الوحدات أو الكتل Khortos. وكانت توزع على شكل خمسة أجزاء رئيسية: المقدمة، ثم ميمنة وميسرة وقلب في الوسط ثم كتيبة في الخلف وراء الجيش تعرف بالساقة أو ساقة الجيش. ولهذا أطلقوا على الجيش اسم الخميس على أساس هذا التقسيم الخماسي. وبطبيعة الحال كانت هذه الكتائب تعبأ أو توزع على شكل أهلة أو مربعات أو مثلثات. . الخ.

ويقال إن الخليفة الأموي مروان بن محمد هو الذي أدخل نظام الكراديس أو الكتائب Phalanges في الجيش الإسلامي بدلاً من الصفوف

أما الأمويون في الأندلس فيحدثنا أبو بكر الطرطوش الأندلسي في كتابه سراج الملوك (ص ٣٢٧) عن طريقة قتالهم بقوله. «فأما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأيناه في بلدنا، فهو أن تتقدم الرجالة بالدرق الكاملة والرماح الطوال والمزاريق المسنونة النافذة، فيصفوا صفوفهم، ويركزوا مراكزهم. رماحهم خلف ظهورهم في الأرض وصدورهم شارعة إلى عدوهم وهم جاثمون في الأرض، وكل رجل منهم قد ألقم الأرض بركبته اليسرى وترسه

قائم بين يديه، وخلفهم الرماة المختارون التي تمرق سهامهم من الدروع، والخيل خلف الرماة. فإذا حملت الروم على المسلمين، لم يتزحزح الرجّالة عن هيئاتهم ولا يقوم رجل منهم على قدميه، فإذا قرب العدو رشقتهم الرماة بالنشاب والرجالة بالمزاريق وصدور الرماح تلقاهم، فأخذوا يمنة ويسرى، وتخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجالة فتنال منهم ما شاء الله».

ولقد جرت العادة أن تحدث قبل الموقعة مبارزات فردية بين بعض أبطال الجيشين، وهي عادة قديمة عند العرب الغرض منها هو تقوية روح الجنود المعنوية لأن منظر الدماء يثير حماستهم، كما أن هذه المبارزات تبين أهمية هذا النوع من القتال الفردي في سير المعركة بعد ذلك، لأن قوة الجيش كانت تقاس بعدد أبطاله وشجعانه وليس بكثرة أعداده. لهذا حرص ملوك المسلمين وقوادهم على معرفة عدد الشجعان في جيوش أعدائهم عن طريق جواسيسهم لأن النصر والهزيمة كانا يتوقفان إلى حد كبير على عدد هؤلاء الأبطال.

وإلى جانب هذه المبارزات الفردية، كانت هناك وسائل أخرى لتقوية روح الجنود المعنوية أثناء المعركة مثل دق الطبول أو الكوسات، وقرع الصنوج أو الصاجات التي تحدث أصواتاً عالية تثير الحماس وترهب العدو. كذلك يروي ابن خلدون (المقدمة ص ٢٥٨) أن جيوش المغاربة من قبائل زناتة استخدموا الشعراء والمغنين والمغنيات الذين كانوا يحركون بغنائهم الجبال الرواسي ويسمون ذلك «تاصوكايت» باللغة الزناتية بمعنى الطرب والفرح الذي يحدث في النفس فتنبعث عنه الشجاعة.

وإلى جانب هذا أيضاً كانت هناك صيحات الحرب التي كان يصرخ بها القادة والجنود وقت المعركة لاستجماع القوى وشحذ العزائم، فضلاً عن أنها كانت أيضاً بمثابة العلامة المميزة (أو كلمة السر) التي يتعارف بها الجنود في الحرب ولا سيما في ظلمة الليل.

ولقد عرفت هذه الصيحات في المشرق كما عرفت في المغرب

والأندلس. فيروى أن الرسول (ﷺ) في معركة بدر كان شعاره: «يا منصور»، وفي يوم حنين كان شعاره: «حم لا ينصرون»، أي اللهم لا ينصرون. ويقال إن كلمة حم («حاميم») نزلت في سبع سور قرآنية مما جعل الرسول يحرص على ذكرها لشرف منزلها، ويستظهر بها على إنزال رحمة الله في نصرة المسلمين. ولقد اتخذ المهلب بن أبي صفرة هذا الشعار أيضاً «حاميم لا ينصرون» في قتاله للخوارج.

كذلك يروى أن صيحة صلاح الدين في يوم حطين ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) كانت «يا للإسلام» وقد كتب له النصر فيها على الصليبيين. كذلك تذكر صيحة سلطان مصر سيف الدين قطز حينما هاجمه المغول في عين جالوت جنوبي فلسطين سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) وكادوا يهزمونه، فصرخ بصوت مرتفع سمعه جميع العسكر «وا إسلاماه»، وأخذ يرددها عدة مرات فكان لها مفعول السحر في نفوس جنوده فاندفعوا خلف قائدهم وحملوا على التتار حملة صادقة انتهت بالنصر المبين.

ومن الطريف أن الإسبان أخذوا عن المسلمين أمثال هذه الصيحات التي تستنجد بالقوى الإلهية وبالرسل والقديسين. فتروي المصادر الإسبانية في وصف إحدى المعارك التي دارت بين المسلمين والمسيحيين في إسبانيا، أن المسلمين كانوا يصيحون: «يا محمد» بينما كان الإسبان يصيحون: «يا سنتياجو». وسنتياجو هذا أو شنت ياقب كما تسميه المصادر العربية هو القديس يعقوب أحد الحواريين للسيد المسيح ويسمونه في إسبانيا سنتياجو دي كومبو ستيلا. ويزعمون أنه مدفون في غاليسيا أو جليقية في شمال غرب إسبانيا. وأقاموا فوق ضريحه كنيسة عظيمة يحج إليها المسيحيون من جميع أنحاء العالم. ولا تزال مدينة سانتياجو من أشهر المدن الإسبانية حتى اليوم. وتشير الأساطير الإسبانية إلى أن سنتياجو هذا كان يخرج للجنود المحاربين الإسبان على شكل ملاك بيده سيف ويمتطي فرساً أبيض ثم يأخذ في معاونتهم على قتال المسلمين حتى يكتب لهم النصر، ولهذا أطلقوا عليه كلمة متاموروس

Matamoros أي قاتل المسلمين،* واتخذوه رمزاً قومياً في الحروب التي خاضوها مع المسلمين. ومن هنا ندرك لماذا حرص الحاجب المنصور بن أبي عامر في حملته الشهيرة على غاليسيا على تحطيم كنيسة سنتياجو، لقد كان غرضه من غير شك هو تحطيم أسطورة سنتياجو الحربية وطعن الإسبان في صميم زعامتهم القومية والروحية.

ونختم هذه الشعارات بصيحة حرب جميلة تدل على شدة التجاوب الروحي بين شعوب المشرق والمغرب. فلقد حدث في سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) أن أغار ملك جزيرة قبرص المدعو بطرس لوسنيان بأساطيله على مدينة الإسكندرية غارة وحشية غادرة. وقد انتهز هذا اللعين وقتاً مناسباً لغارته فالوقت كان صيفاً والأهالي يتنزهون على شواطيء المدينة كما هي العادة، وكان الوقت موسماً للحج وحاكم المدينة غائباً عنها لتأدية فريضة الحج، وكان نائبه رجلاً ضعيفاً لا يصلح لمثل هذه المواقف الخطيرة، كذلك كان في هذا الوقت موسم فيضان النيل والطريق بين القاهرة والإسكندرية مملوء بالطمى ولا يصلح لمجيء نجدة عسكرية لإنقاذ المدينة. بل كان على هذه النجدة أن تتبع طريقاً آخر عبر الصحراء وهو طريق طويل متعب. فالظروف كلها كانت مهيأة لخدمة العدو.

وهكذا تمكن القبارصة من دخول الإسكندرية ونهبها وحرقها وقتل عدد كبير من رجالها ونسائها وأطفالها. ثم أقلعوا عنها بأساطيلهم قبل أن تلحق بهم جيوش النجدة.

هذا الحادث الوحشي أثار استياء عميقاً في الأوساط الإسلامية. وقد تبلور هذا الغضب بصفة خاصة في الأندلس لأنها في حالة حرب دائمة مع المسيحيين فتروي المصادر الأندلسية أن سلطان غرناطة محمد الخامس الغني بالله، أغار بجيوشه على مدينة جيان Jaen التابعة لملك قشتالة ودمرها وأحرقها وكانت صيحة جنوده في هذه الغارة: «يا لثارات أهل الإسكندرية!!». هذه الصيحة الجميلة التي كانت شعار الأندلسيين في

هجومهم، تعبر عن موجة الغضب التي أثارتها غارة القبارصة الوحشية على الإسكندرية، كما أنها تحمل في طياتها معاني الأخوة والتضامن بين الشعوب الإسلامية أمام الغدر والعدوان مهما بعدت بينها المسافات.

والجدير بالذكر أن مصر لم تقف مكتوفة الأيدي بعد هذا العدوان، بل اخذت أساطيلها تغير على جزيرة قبرص حتى استولت عليها سنة ٨٢٩ هـ (١٤٢٦ م) في عهد السلطان الأشرف برسباي. أي بعده حوالى ستين سنة من تاريخ هذا العدوان، وبذلك انتقمت مصر لنفسها ولو بعد حين.

خامساً: البحرية العربية الإسلامية:

كان احتلال المسلمين الأوائل للشام ومصر وافريقية، طعنة نافذة في جسم الامبراطورية البيزنطية شطرتها إلى شطرين: الامبراطورية الأم في آسيا الصغرى وما وراءها، ثم الولايات التابعة لها والتي احتلها العرب مثل الشام ومصر وافريقية، ولم يعد هناك ما يصل بين أجزاء هذه الامبراطورية إلا البحر المتوسط. ولهذا لعب هذا البحر دوراً هاماً في محاولة إنقاذ الامبراطورية على يد البيزنطيين أو الروم، وفي محاولة تصفيتها على يد المسلمين. فكلا الفريقين ركب البحر ليعلو خصمه وكان النصر حليف العرب. ولم يلبث المسلمون منذ خلافة عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان، أن وجدوا أنفسهم مطلين على البحر المتوسط من شواطىء طويلة تمتد من طرسوس شمالاً إلى برقة وتونس جنوباً، ويواجهون أعداء ألداء مثل البيزنطيين الذين دأبوا على شن الغارات على هذه الشواطىء الإسلامية.

لهذا أدرك المسلمون قيمة البحرية كسلاح حربي مضاد، فاخذوا في إنشاء دور الصناعة لبناء السفن الحربية في معظم المرافىء الممتدة على طول هذه الشواطىء مثل طرابلس وصور وعكا ودمياط ورشيد وتنيس والاسكندرية ثم برقة وتونس. وقد انتقلت كلمة دار الصناعة إلى اللغات الأوربية مثل دارسانا Darsana وأرسنال Arsenal وتعني المكان الذي تصنع فيه السفن.

ومن الطريف أننا الآن نطلق على هذا المكان اسم ترسانة، وهو تعريب للكلمة الأوربية العربية الأصل!! وهكذا ظهر للمسلمين منذ عهد الخليفة عثمان أسطول بحري. وكلمة أسطول تسمية من أصل يوناني Stolos، وكانت تطلق على السفينة الواحدة أو على مجموعة من السفن الحربية. وقد استعان المسلمون في بناء هذا الأسطول بحراج أو غابات شجر السنط الذي كان ينبت في صعيد مصر بالإضافة إلى أخشاب الصنوبر التي تنبت في جبال لبنان فضلاً عن معدن الحديد الذي كان يستخرج من جبل بالقرب من بيروت والذي كان يستخدم في صنع مراسي السفن.

وما كاد معاوية بن أبي سفيان يظفر بالخلافة سنة ٤١ هـ حتى عمل على تدعيم الدفاع عن السواحل وذلك بالوسائل الآتية:

أولاً: تقوية أجهزة الدفاع والحراسة الساحلية كالمحارس والمناور أو المنائر أو المواقيد الممتدة على طول سواحل مصر والشام. وكان على المنورين إذا ما كشفوا عدواً في البحر مقبلاً من بعيد اشعلوا النار على قمم المناور أو المواقيد إذا كان الوقت ليلاً أو أثاروا فيها الدخان إن كان الوقت نهاراً. هذا، إلى جانب استخدام الطبل والنفير لتحذير أهالي المدن المجاورة من غارة العدو. وكثيراً ما استعمل المنورون إشارات نارية أو دخانية بطرق أو حركات معينة للإخبار عن حالة العدو أو عدده أو جنسيته أو غير ذلك وإن كانت المراجع للأسف لم تشرح لنا طريقة إرسال هذه الإشارات.

ثانياً: عمد معاوية إلى نقل أهالي البلاد الداخلية إلى هذه الجهات الساحلية ومنحهم فيها الإقطاعات الواسعة بقصد تشجيعهم على ركوب البحر من جهة، وتعمير هذه البلاد وزيادة عدد سكانها من جهة أخرى. فيروي البلاذري في كتابه فتوح البلدان أن معاوية نقل قوماً من فرس بعلبك وحمص إلى سواحل الأردن وصور وعكا، كما نقل أقواماً من جنود البصرة والكوفة إلى أنطاكية في شمال الشام.

ثالثاً يؤثر عن معاويه كذلك أنه اعتمد على القبائل اليمنية في العمليات البحرية في الشام لما عرف عنها من ولاعه وتنظيم وخبرة ملاحية ولأنها كانت تفوق منافسيها القيسية في هذا المضمار كذلك اعتمد معاوية على قبط مصر الذين تخصصوا في سد الثغرات في السفن واستخدام المسامير الحديدية في بنائها التي ثبت أنها أفضل بكثير من السفن التي تشد بالحبال.

ولقد سار خلفاء بني أمية بعد ذلك على نفس هذه السياسة عند تعمير سواحل إفريقية، وفي هذا المعنى يروي البكري عند كلامه عن تأسيس مدينة تونس أن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) كتب إلى أخيه عبد العزيز والي مصر أن يوجّه إلى معسكر تونس ألف قبطي بأهله وولده وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش وهي تونس. وكتب إلى حسان بن النعمان الغساني أمير المغرب يأمره أن يبني لهم دار صنعة تكون قوة وعدة للمسلمين، وأن يجعل على البربر جرّ الخشب لإنشاء المراكب ليكون ذلك جارياً عليهم إلى آخر الدهر، وأن يصنع بها المراكب ويجاهد الروم في البر والبحر. وقد نفذ حسان أوامر الخليفة وأنشأ هذه القاعدة الحربية الإسلامية الجديدة التي عرفت بجبانة تونس والتي صارت تخرج منها أساطيل المغرب تحمل راية الإسلام في غرب حوض البحر المتوسط وهكذا أصبحت إفريقية مركزاً بحرياً إلى جانب الشام ومصر. هذا، وقد جرت العادة لحماية هذه الموانيء وما فيها من سفن أن تشد سلاسل حديدية في البحر عند مدخلها، فإذا أريد إدخال سفينة إلى الميناء أرخيت السلسلة حتى تغوص في الماء فتمر السفينة فوقها أما إذا أريد منعها من الدخول فتشد السلسلة أمامها فتحول دون دخولها، وقد عرفت هذه السلاسل باسم المآصر (المآصر في بلاد الروم والإسلام لميخائيل عواد).

السفن الإسلامية وأنواعها وبحارها وأوجه نشاطها:

السفن الإسلامية أسماؤها كثيرة لا تنتهي، وأشكالها وأحجامها مختلفة ومتعددة ومنها مراكب خاصة بالأنهار وأخرى خاصة بالبحار، وهذه بدورها

تختلف فيما بينها، فمراكب البحر المتوسط تختلف عن مراكب البحر الأحمر وعن مراكب المحيطات. ونظراً لهذه الكثرة في الأسماء والأنواع، فقد حاول بعض المؤرخين المحدثين وضع معاجم للسفن الإسلامية لتسهيل دراستها (معجم السفن لدرويش النخيلي).

وحسبنا في هذا الصدد أن نقتصر على بعض نماذج لهذه السفن المختلفة:

أولاً: المراكب الخاصة بالأنهار مثل التي وجدت في نهر النيل الذي يقدر طوله بنحو ٦٦٥٠ ك.م. وقد وصفه المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) بقوله: «وليس في أنهار الدنيا نهر يسمى بحراً ويماً غير نيل مصر لكبره واستبحاره». (مروج الذهب للمسعودي جـ ١ ص ٣٧٧).

ومراكب النيل معروف منها حراريق ودرامين وشخاتير: فالحراريق واحدتها حراقة وتتخذ لنزهة الملوك والأمراء لقضاء أشغالهم. والدرامين واحدتها درمونة وتتخذ لحمل غلالهم من إقطاعاتهم. والشخاتير واحدتها شختورة وهي برسم تعدية الناس من الشط إلى الآخر إبان زيادة النيل، إذ إنه في وقت الفيضان تغطي مياهه أراضي مصر فلا يُتوصل إلى قراها إلا في الشخاتير.

أما مراكب نهر الفرات بالعراق فمعروف منها: الطيارات والسميريات الزبازب.

ثانياً: أما البحر الأحمر، فيقدر طوله من السويس إلى باب المندب بنحو ٢٢٤٠ ك.م. وتسميته بالبحر الأحمر تسمية إغريقية نسبة إلى لون الشعب المرجانية التي تكثر فيه. وكان المصريون القدماء يطلقون عليه اسم الأخضر العظيم، أما العرب فأطلقوا عليه أسماء متعددة وهي نفس أسماء البلاد والمدن المطلة عليه مثل: بحر القلزم (السويس)، وبحر جدة، وبحر عيذاب، وبحر اليمن، وبحر الحجاز، وبحر فرعون. ولعل هذه التسمية الأخيرة تعبر عن

قصة غرق فرعون مصر في هذا البحر أثناء مطاردته للنبي موسى عليه السلام

ولقد أجمعت كتابات المؤرخين والجغرافيين العرب على أن البحر الأحمر يختلف عن البحر المتوسط في طبيعته و... ه ورياحه وأعاصيره وطرق الملاحة فيه. ويفهم من كلامهم أن سفن البحر الأحمر والمحيط الهندي كانت تصنع من أخشاب متينة مثل خشب الساج أو ... ب جوز الهند الذي امتاز بمتانته ومرونته وقوة احتماله للتأثيرات الجوية والبحرية القاسية في تلك البحار. كذلك يجمع المؤرخون على أن هذه السفن كان لا يستعمل في بنائها المسامير الحديدية مثل سفن البحر المتوسط، بل كانت تخاط ألواحها بحبال الليف وتثبت بدسر (مسامير خشبية) من عيدان النخيل ثم تطلى بالشحوم مثل دهن سمك القرش كي يلين عودها لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر، علماً بان سفن البحر المتوسط كانت تقلفط بالقطران أوالقار. ويلاحظ أن الليف المستعمل في خياطة هذه السفن كان يسمى بالقنبار، وهو ليف قشر جوز الهند أو النارجيل، كانوا يدبغونه في حفر على الساحل ثم يضربونه بالمرازب ثم يفتله النساء وتصنع منه الأمراس أو الحبال التي تستخدم في صناعة هذه المراكب التي كانت تنقل التجارة أو الحجاج في البحر الأحمر أو المحيط الهندي.

ولقد اختلف المؤرخون حول الأسباب التي أدت إلى استخدام الحبال بدلاً من المسامير في بناء هذه السفن، فبعضهم يردد الأسطورة القائلة بأن جبال البحر الأحمر كانت تحتوي على صخور المغناطيس تحت سطح الماء فتجذب السفن المبنية بالحديد إلى قاع البحر. ولا شك أن هذه الأسطورة غير صحيحة بدليل أن السفن الحديدية تسير في هذه البحر دون أن يصيبها أذى. ويرى فريق آخر أن استعمال حبال الليف في صنع هذه المراكب يرجع إلى ملوحة مياه البحر الأحمر التي كانت تتلف المسامير، غير أن هذا الرأي أيضاً غير صحيح لأن مياه البحر المتوسط لا تختلف عن مياه البحر الأحمر في درجة

الملوحة إلا بنسبة ضئيلة جداً ولعل السبب الحقيقي في ذلك هو أن السفن المخيطة بالليف تكون أقل عرضة للكسر من المراكب المصنوعة من المسامير إذا اصطدمت بشعاب المرجان في البحر الأحمر فضلاً عن أنها تستطيع الرسو على الشواطىء الصخرية المنتشرة في هذه البحار. هذا، إلى جانب أن صناعة المسامير أو استيرادها إلى مناطق البحر الأحمر والمحيط الهندي كان يتطلب نفقات كثيرة في حين أن خشب جوز الهند والليافه ودهن القرش وغير ذلك من المواد اللازمة للخياطة كانت متوافرة في هذه المناطق.

ومن أسماء مراكب هذه البحار: الجلاب ومفردها جلبة، والزوم ومفردها زومة، والسنابك ومفردها سنبوك.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الصليبيين حاولوا في عهد صلاح الدين الأيوبي السيطرة على هذا البحر والوصول إلى الأماكن المقدسة بالحجاز والعيث في الحرمين الشريفين. ولكن صلاح الدين تصدى لهم، وأرسل أمير البحر الحاجب حسام الدين لؤلؤ الذي تمكن من هزيمتهم وأسرهم ثم ذبحهم ذبح النعاج في منى حتى لا يعرف أحد شيئاً عن هذا البحر الأحمر الذي اعتبره المسلمون بحراً إسلامياً خاصاً بهم.

ثالثاً: أما البحر الأبيض المتوسط، فهو مركز الحضارات الكبرى وأداة الوصل بينها شرقاً وغرباً. وقد حمل لواءها الشعوب المطلة عليه كالمصريين القدماء والفينيقيين واليونان والرومان ثم العرب، فتحكموا في مياهه وجزره وسواحله. ففي خلافة عثمان غزا معاوية بن أبي سفيان عامل الشام سنة ٢٧ هـ جزيرة قبرص وصحبه جمع من الصحابة أمثال أبي ذر الغفاري، وأبي الدرداء، وعبادة بن الصامت، والمقداد بن الأسود. وما كادت السفن تصل إلى الجزيرة حتى لذعن أهلها بالطاعة، وصالحهم معاوية على جزية سنوية، واشترط عليهم أن يلزموا الحياد في الصراع العربي البيزنطي.

وبعد هذه الغزوة بسبع سنوات سنة ٣٤ هـ حدثت موقعة ذات

الصواري عند سواحل كليكيا جنوبي آسيا الصغرى (الأناضول) وهو أول نصر عربي على البيزنطيين في معركة بحرية كان يقودهم من المسلمين والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي السرح، أخو عثمان من الرضاعة، ويقودها من الروم الامبراطور البيزنطي قسطنطين الثاني. ويبدو أن انتصار العرب جاء نتيجة لخطة غير عادية استخدمها العرب وهي ربط سفنهم بعضها ببعض بسلاسل ثقيلة فاستحال بذلك على البيزنطيين اختراق صفوف العرب الذين استخدموا في الوقت نفسه خطاطيف طويلة يصيبون بها صواري سفن الأعداء ويجرونها إلى جوار سفنهم، فغدت المعركة وكأنها معركة برية. وقد وصف الطبري (ت ٣١٠ هـ) هذه المعركة بقوله: «إن الدم كان غالباً على الماء وإن الأمواج طرحت جثث القتلى ركاماً». ولا شك أن الغرض من هذه المعركة هو الحصول على خشب الأناضول اللازم لبناء السفن.

كذلك حاول المسلمون منذ خلافة عثمان ومعاوية غزو جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا وسواحل البحر الأدرياتي، أو بعبارة أخرى غزو الامبراطورية البيزنطية من ناحية الغرب إلى جانب حملاتهم عليها من ناحية الشام وآسيا الصغرى من جهة الشرق لكي يتم تطويق القسطنطينية وخنقها.

وأدرك أباطرة البيزنطيين أهداف السياسة العربية بدليل أنهم بذلوا مجهودات كبيرة لحماية هذه الأجزاء الغربية من الامبراطورية لدرجة أن بعضهم مثل الامبراطور قسطنطين الثاني السالف الذكر اضطر إلى اتخاذ خطوة جريئة لم تتخذ من قبل وهي ترك عاصمته القسطنطينية سنة ٤٢ هـ (٦٦٢ م) والإقامة في روما وصقلية كي يدافع عن هذه الأجزاء الغربية أو كما يقول هو نفسه: «لحماية الأم قبل حماية البنت» ويعني بذلك حماية روما أم الملك ومركزه، فهي أعظم من القسطنطينية بطبيعة الحال، وقد نجحت سياسة هذا الامبراطور وخلفائه من بعده في الحيلولة دون سقوط جزيرة صقلية في يد المسلمين فترة من الزمان.

ولما تولى التابعي المشهور موسى بن نصير إمارة المغرب سنة ٨٥ هـ،

شن حملات بحرية متابعة على جزيرة صقلية والجزر التي تليها غرباً مثل سردانية وقورسيقة وجزر البليار (ميورقة ومنورقة ويابسة) وأمكنه بذلك أن يشل حركة الأسطول البيزنطي في غرب حوض البحر المتوسط، وأن يتقدم بكل اطمئنان لفتح إسبانيا سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) بعد أن حمى ظهره وضمن سلامة مواصلاته من خطر البيزنطيين

أما فتح جزيرة صقلية، فقد جاء بعد ذلك في عهد الأغالبة أيام زيادة الله الأول الأغلبي سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) وبقيادة العالم والقائد الفارسي أسد بن الفرات الذي استشهد ودفن هناك. وفي عهد محمد الأغلبي الملقب بأبي الغرانيق، استولى المسلمون على جزيرة مالطة سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) التي تقع بين صقلية وتونس، وما زالت لغة أهل هذه الجزيرة مزيجاً من العربية والإيطالية والإنجليزية.

أما جزيرة كريت، فقد استولى عليها جماعة من الأندلسيين بقيادة زعيمهم أبي حفص عمر البلوطي حوالي سنة ٢١٠ هـ (٨٢٥ م). وهناك أسسوا قاعدة لهم أحاطوها بخندق كبير فعرفت باسم الخندق، ثم انتقل هذا الاسم إلى الأوربية على شكل Chandax ثم Candia كانديا وهو اسم المدينة الحالية التي تعرف أيضاً بالاسم اليوناني هراكليون Herakleon. ولم تلبث جزيرة كريت أن صارت قاعدة بحرية إسلامية هامة، ومصدر تهديد مستمر لجزر وسواحل الدولة البيزنطية مدة قرن ونصف تقريباً، إلى أن استعادها البيزنطيون في سنة ٣٥٠ هـ على يد القائد نقفور فوكاس.

وهكذا نرى أن المسلمين في خلال العصر الوسيط، سيطروا على معظم سواحل البحر المتوسط وجزره.

ولقد تعددت قطع الأسطول الإسلامي في البحر المتوسط، نذكر منها:

الشواني جمع شيني وشونة، وهي مركب حربي ضخم كالقلعة، مزودة بالأبراج والقلاع وصهاريج المياه وأهراء القمح، وبها مائة وأربعون مجذافاً.

البطس جمع بطسة، وهي أيضاً من السفن الحربية الكبيرة وتشتمل على عدة طبقات وعلى عدد كبير من القلوع يصل إلى أربعين قلعاً، وتستخدم في نقل الأقوات والمؤن والذخائر فضلاً عن المحاربين.

الحراريق والحراقات ومفردها حراقة، وتستخدم في حمل الأسلحة النارية كالنار الإغريقية، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو في البحر.

الشلنديات جمع شلندي، ولعلها خصصت إلى صندل الحالية وهي أيضاً من المراكب الكبيرة المسطحة من أعلى، ليتمكن المقاتلة من قتال أعدائهم من ظهرها بينما يجدف الجذافون تحتهم. وتستخدم هذه السفن في حمل المؤن والمقاتلة والأسلحة، وهي في هذا تتشابه مع أنواع أخرى من السفن مثل الحمالات والمسطحات.

الطرائد جمع طريدة، استخدمت في المشرق لحمل الخيل، وكانت تفتح عادة من الخلف حتى يتيسر دخول الخيل وخروجها منها عند الإقلاع والرسو. أما في المغرب والأندلس فقد ورد ذكر الطرائد على أنها سفن صغيرة سريعة وقد استخدمها الإسبان بنفس الاسم Tarida وللغرض نفسه وهو مطاردة العدو.

الأغربة جمع غراب، وهو مركب قوي طويل وسريع، ورد ذكره في بعض النصوص «غراب طيار». وربما سمي بهذا الاسم لأنه يدهن بالقار الأسود ومقدمته تشبه رأس الغراب. وقد انتقل اسمها إلى أوربا على شكل Corvette.

وكان للأسطول ورجاله ديوان خاص في الدولة يعرف بديوان الجهاد أو ديوان العمائر أو ديوان الأسطول. وقد غلب على قائد الأسطول اسم أمير البحر، ولم يلبث هذا الاسم أن انتقل إلى اللغات الأوربية مثل أميرال بالفرنسية، وأدميرال بالانجليزية، والميرانتي بالإسبانية. ومن الطريف أن مسلمي الأندلس في أواخر أيامهم عرفوا هذا الاسم الإسباني الميرانتي

Almirante إلى الملند. وفي ذلك يقول الوزير الغرناطي ابن الخطيب مهنئاً قائد البحر على مولود أنجبه (نفاضة الجراب ص ١٩٤):

يستبشر الأسطول منه بقائد ... كالبدر تحت شراعه أو بنده
والبحر يفخر منه يوم ولاده ... بجلنده بن ملنده بن ملنده

هذا، وقد جرت العادة أن تقام احتفالات لتوديع الأساطيل عند خروجها للغزو يحضرها الخليفة أو السلطان، ويقوم الأسطول خلالها بحركات أو مناورات تشابه تحركاتها في القتال. فتنتظم الأساطيل في صفوف وعلى ظهرها البحارة والغزاة من رام وسائف ورامح وقد لبسوا الحديد ورفعوا عقائرهم بالتحميد والتمجيد، ثم تقرع الطبول، وتعلو أصوات البوقات، وتدوى طلقات الأنقاط، وترفرف على صواريها الرايات... الخ. وأحياناً يقوم البحارة بحركات تبين مهارتهم وخفة حركتهم في التسلق والهبوط على الحبال، وفي ذلك يقول الشاعر ابن الخطيب (الإحاطة لوحة ٤٥٤):

وبحري تلاعب في شريط ... وحيُّ الفصل متصل الصموت
تدلى وارتقى وسما وأهوى ... وأعجب في التماسك والثبوت
وقلنا إن يكن بشراً سوياً ... ففيه غريزة من عنكبوت

وكثيراً ما يصاحب الأسطول، الجيش البري إلى ارض الحرب اي أرض العدو، وقد تضطرهم الظروف إلى نقل المراكب مفصلة أجزاء على ظهور الجمال إلى البحر الأحمر مثلاً أو إلى نهر الفرات حيث يتم تركيبها وانزالها في البحر وشحنها بالجنود لتعبر فيها وتقاتل الصليبين أو المغول.

كذلك كان يحدث أحياناً حينما تشتد وطأة العدو في البحر أن يلجأ المسلمون إلى استخدام الحيلة والخدعة لمباغتة العدو على حين غفلة وذلك بأن يجعلوا سفنهم في شكل السفن المسيحية، فيضعوا على سطحها الخنازير والرهبان ويرسموا على أعلامها الصلبان كي يوهموا العدو بأن سفنهم مسيحية فلا يتعرض لهم. وقد لجأ صلاح الدين إلى هذه الوسيلة في محاولة إمداد مدينة عكا بالمؤن عندما حاصرها الصليبيون. كذلك استخدم السلطان الظاهر

بيبرس هذه الطريقة في الغارة التي شنها أسطوله على جزيرة قبرص وقد أنكر بعض المجاهدين المسلمين هذه الطريقة ولكنهم عادوا واقتنعوا بها لأنها تتفق مع المصلحة العامة، والحرب خدعة كما قال الرسول (ﷺ). وفي كثير من الأحيان كان المسلمون يأسرون قطعاً من أسطول العدو وهنا كانوا يقومون «بعكسها» أي بتحويلها إلى سفن إسلامية وقد وصف لنا المقريزي على سبيل المثال (الخطط جـ ١ ص ٤٤٤) عودة الأسطول الفاطمي وكيف كان الأسرى يعرضون في موكب على ظهور الجمال كل اثنين على جمل ظهراً لظهر. وجرت العادة أن يحمل الأسرى إلى مكان على مقربة من القصر الخلافي يسمى المناخ (أي المكان الذي تناخ به الجمال) فتضاف الرجال إلى من فيه من الأسرى السابقين، ويمضي بالنساء إلى قصر الخليفة بعدما يعطي الوزير طائفة منهن. أما الصغار من الأسرى فيدفعون بهم إلى الأستاذين فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ويسمونهم «الترابي»، وقد يرتقي أولئك الصبيان إلى رتب الأمراء. وظلت تلك الطائفة «الترابي» موجودة أيام الدولتين الأيوبية والمملوكية. ويلاحظ أصلها أشبه ما يكون بأصل طائفة الإنكشارية في الدولة العثمانية، وكان جنودها هي الأخرى يؤخذون أطفالاً من العناصر المسيحية ثم يربون تربية عسكرية إسلامية ويتحولون إلى الرعية العثمانية المسلمة.

أما بلاد المغرب والأندلس، فقد كانت هي الأخرى تمتلك أساطيل قوية سيطرت على الحوض الغربي للبحر المتوسط. والسبب في ذلك يرجع إلى أن حكام هذه البلاد لم يجدوا صعوبة في الحصول على خامات الخشب والحديد وكل ما هو ضروري لبناء الأساطيل، فكل ذلك كان وما زال متوافراً في تلك البلاد ويتمثل في غابات شجر الصنوبر التي تنبت هناك بكثرة، وفي خامات الحديد التي تصنع منها مراسي السفن، والقطران الذي تطلى به السفن وكان يستخرج من دهون بعض الأشجار في منطقة اللك بالمغرب الأدنى؛ هذا إلى جانب كثرة المرافئ، ودور الصناعة الممتدة على طول سواحلها

وكما اعتمد الأمويون في الشام على القبائل اليمنية الكلبية في شؤونهم البحرية فكانوا النواة الأولى للبحرية العربية في الشرق، اعتمد كذلك الأمويون في الأندلس على اليمنيين القضاعيين في هذه الأمور البحرية في بادىء الأمر، فأنزلوهم في المناطق الساحلية الشرقية، وعهدوا إليهم حراسة ما يليهم من البحر وحفظ الساحل، وقد سمي هذا الإقليم أرض اليمن أي غطيتهم من الأرض أو الإقطاع، وكانت بلدة بجانة Pechina هي أهم قاعدة لهم في هذا الإقليم الشرقي.

وإلى جانب هذه العناصر اليمنية العربية بالأندلس، اعتمد الأمويون كذلك في شؤونهم البحرية على عناصر أندلسية من المولدين والبربر والإسبان المستعربين الذين تعاونوا مع اليمنيين وقاموا بنشاط بحري كبير سواء في البحر المتوسط أو في المحيط الأطلسي.

ففي البحر المتوسط قام هؤلاء البحريون الأندلسيون بالانتشار في الساحل الإفريقي الشمالي على شكل جاليات أندلسية، وأسسوا مدناً هناك مثل وهران سنة ٢٩٠ هـ، وتنس سنة ٢٦٢ هـ، في الجزائر، وصاروا يترددون بسفنهم في كل عام بين شواطىء المغرب والأندلس فيقضون فصل الشتاء في المغرب والصيف في الأندلس. كذلك كان لهؤلاء البحريين الأندلسيين مغامرات ومحاولات في المحيط الأطلسي لكشف غياهبه وظلماته، في منتصف القرن الثالث الهجري، ومثال ذلك ما أورده البكري عن خشخاش بن سعيد بن أسود الذي خاطر مع جماعة من الأحداث فركبوا المراكب ودخلوا المحيط وغابوا فيه مدة ثم عادوا بغنائم واسعة وأخبار مشهورة. وكان بيت بني أسود من البيوت المشهورة في بلدة بجانة ولهم رباط على ساحلها عرف بقابطة بني الأسود ومكانه اليوم Cabo de Gata على ساحل المرية.

وحديث خشخاش وأصحابه يذكرنا بحديث الفتية المغررين أو المغربين من أهل لشبونة الذين توغلوا كذلك في المحيط الأطلسي في منتصف القرن الثالث الهجري، وإن كان يبدو أنهم لم يذهبوا أبعد من جزر الخالدات التي

تعرف اليوم باسم جزر كناريّاس Canarias

أما عن النشاط الحربي لهذه الجماعات البحرية الأندلسية، فهو نشاط واسع النطاق نكتفي منه بالإشارة إلى احتلالهم لجزيرة كريت من أيدي البيزنطيين بقيادة زعيم منهم يدعى أبو حفص عمر البلوطي في أوائل القرن الثالث الهجري كذلك تشير إلى دورهم الفعال في قتال النورمانديين أو الفايكنج الذين جاءوا من الدانمرك بسفنهم السريعة ذات الأشرعة السوداء وأغاروا على سواحل الأندلس الغربية المطلة على المحيط الأطلسي، واخترقوا نهر الوادي الكبير من مصبه واحتلوا مدينة إشبيلية وضواحيها عدة أيام عاثوا خلالها قتلاً ونهباً وحرقاً وتخريباً سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ م) على عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط. وقد انتهى هذا الصراع بهزيمة النورمانديين وطردهم نهائياً من الأندلس في الوقت الذي تمكنوا فيه من الاستقرار في البلاد الأخرى التي أغاروا عليها مثل انجلترا وفرنسا ثم إيطاليا بعد ذلك. وقد ظهر اسم خشخاش ووالده سعيد بن أسود وغالب بن عبد الرحمن ضمن قادة الأساطيل الأندلسية التي قاتلت النورمانديين وانتصرت عليهم.

واستمر هذا السلاح البحري يزداد قوة في المغرب والأندلس، ويشتد بأسه على القوى الصليبية في هذا الجناح الغربي من العالم الإسلامي وخصوصاً بعد توحيد هذين القطرين في امبراطورية واحدة على عهد المرابطين والموحدين. ويرجع الفضل في ذلك إلى وفرة الخامات المحلية اللازمة لبناء الأساطيل من جهة، وإلى عناية حكام هاتين الدولتين المرابطية والموحدية بإعداد المصانع البشرية التي تتولى تربية الجيل الناشيء وإعداده للحرب والجهاد من جهة أخرى. فيروي المؤرخون على سبيل المثال أن الخليفة عبد المؤمن بن علي الموحدي أنشأ في حاضرته مراكش مدرسة لتخريج قادة الجيش والأسطول، وأنه كان يستدعي إليها الشبان الصغار من أبناء إشبيلية وقرطبة وفاس وتلمسان وتونس وغيرها. وكان في كل يوم جمعة يجمعهم بعد الصلاة في قصره وهم نحو ثلاثة آلاف طالب كأنهم أبناء ليلة واحدة، فيمتحنهم فيما

درسوه، ويزودهم بنصائحه ثم يعمد في أيام أخرى إلى تدريبهم على فنون الحرب المختلفة كالطعن بالحراب والرمي بالقوس والسهام والمبارزة وركوب الخيل ثم في تعلم السباحة وخوض المعارك البحرية، وذلك في بحيرة خاصة أنشأها لذلك الغرض على مقربة من قصره في الحي المعروف اليوم بأكدال (أي المتنزه) وأعد فيها طائفة من السفن الكبيرة والصغيرة ليتمرن الشباب فيها على القتال في البحر والتجذيف وقيادة السفن والوثب إلى سفن العدو ومزاولة جميع التمارين البدنية التي تقتضيها الخدمة البحرية. كذلك كان يشجعهم على قراءة الكتب التي تتحدث عن الفروسية أو سيرها أو كتب المغامرات مثل سيرة عنترة بن شداد.

وهكذا استطاع هذا المجاهد الكبير عبد المؤمن بن علي، الذي يعتبره المؤرخون من أعظم قواد العصور الوسطى، أن يخلق من المغرب والأندلس قوة موحدة في البرّ والبحر واستمرت في عهد ابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور.

ولعل أكبر دليل على اختصاص المغاربة في ذلك الوقت بالأساطيل الحربية، هو ما ترويه المصادر من أن عاهل مصر والشام صلاح الدين الأيوبي، أرسل سنة ٥٨٦ هـ إلى خليفة المغرب والأندلس يعقوب المنصور الموحدي يطلب إعانته بالأساطيل لصد الزحف الصليبي. وعلى الرغم مما قيل من أن المنصور قد رفض هذا الطلب لأن صلاح الدين لم يلقبه في رسالته بأمير المؤمنين أي لم يعترف بخلافة الموحدين، فقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن المنصور قد أرسل لصلاح الدين الأيوبي مائة وثمانين سفينة لمنع الصليبيين من سواحل الشام. يضاف إلى ذلك أن صلاح الدين عمد إلى تجنيد المغاربة المقيمين في مصر للعمل في الأسطول المصري استناداً إلى الفكرة التي كانت شائعة في المشرق عن اختصاصهم بهذا العمل لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر.

الفصـــل الرابع

الحياة الاقتصادية في الدولة الإسلامية

أولاً: الصناعة والأصناف في المدينة الإسلامية

المدينة كلمة آرامية الأصل، ويرجح أنها كانت تطلق خاصة على المكان الذي يكون فيه القضاء، إذ إن المقطع «دين» في الكلمة يدل على معنى العدالة، ولعل منه جاءت كلمة ديان بمعنى القاضي أو المحاسب وقد ورد في سنن البيهقي عن عمر بن الخطاب قوله: «ويل لديان الأرض من ديان السماء». وهذا يعني أن المدينة هي المكان الذي يتوافر فيه العدل والأمن أكثر من أي مكان آخر، لكونها مقر السلطة الحاكمة[1]. فالمدينة إذن، لا تسمى بالمدينة إلا إذا كانت مقراً لصاحب السلطان أو من يمثله. فإن كان صاحب السلطان هو الخليفة نفسه، كانت المدينة عاصمته أو إحدى عواصمه، وإن كان والي إقليم أو كورة، فالمدينة عاصمة هذا الإقليم أو الكورة. وإن كان قائداً على الثغور، فالمدينة قاعدة لهذا الثغر أوحصن استراتيجي فيه

(1) انظر ra Lapidus: Middle Eastern Cities, P 74, California 1969

وقد فسر ابن خلدون هذا الوضع عندما قابل الحضارة بما أسماه بالملك، أي سيادة الدولة، لأن الحضارة في رأيه، لا يكفي أن تكون في الحضر أي المدينة، وإنما ينبغي أن تلازمها سيادة إدارية، أي نظام واستقرار. وكانت المدينة الكبيرة بالعربية تسمى مصراً، وكان هذا اللفظ يطلق في عصر الفتوح الأولى على عواصم الأقاليم خاصة. وعلى هذا الأساس كانت الكوفة والبصرة تعد أمصاراً، فيقال المصران.

ولقد اختصت هذه المدن والأمصار بمؤسسات دينية ودنيوية تميزها عن القرى والأرياف، كالمساجد الجامعة، والحمامات، والأسواق، والصنائع والحرف المختلفة التي تعتبر من أهم معالم المدينة والعمران الحضري. ومن هنا كان الفارق الكبير بين المدن والأمصار من جهة، وبين الريف[٢] والقرى الزراعية من جهة أخرى. وهذا الاختلاف نلمسه في نظام الوظائف، وفي طبيعة السكان بل وفي اختلاف اللهجات التي يتحدثون بها. فأهل القرى والأرياف، يشتغلون بالزراعة، والرعي وتربية الماشية، ولهم تنظيماتهم المحلية التي يشرف عليها أشخاص محليون مثل الدهاقين في الولايات الشرقية، ومثل عمد القرى ورؤسائها في مصر. أما أهل المدن فيشتغلون بحرف غير زراعية مثل التجارة،، والصناعة، والعمارة، والإدارة، والثقافة، والخدمات العامة... الخ.

فالفرق إذن، بين المدينة والقرية، ليس مسألة مساحة أو عدد سكان، بقدر ما هو مسألة وظائف وسلطة إدارية.

ووظائف المدينة الإسلامية في العصر الوسيط، متعددة النواحي، وقد

---

(٢) الريف في اللغة، الأرض القريبة من الماء. وتطلق كلمة ريف في مصر على الأراضي الخصبة الداخلية الممتدة على ضفتي النيل. أما في المغرب والأندلس، فتطلق على الأراضي التي تحف بالبحر أو المحيط. وكلمة ريف أيضاً اسم علم للمنطقة الجبلية الممتدة في شمال المغرب الأقصى.

تناولها بالدراسة عدد من السادة الزملاء في هذا الكتاب واقتصر بدوري في هذا المقال، على جانب اقتصادي منها وهو الصناعة وأربابها، وهو موضوع واسع متشعب تناوله علماء كثيرون بالبحث والدراسة من مختلف جوانبه وجزئياته، وعلى مناطق جغرافية محددة من مختلف العالم الإسلامي، وهذا يبين أن الكلام عن الصناعة في المدينة الإسلامية بشكل عام، رغم التفاوت الكبير بين كل مدينة وأخرى، فيه شيء من المجازفة التي قد يخفف من حدتها إنني سأحاول بقدر الإمكان عرض المظاهر العامة المشتركة، في صورة موجزة.

الموارد المالية في المدينة:

كانت المدينة الإسلامية غالباً ما تكون قصبة إقليم يختلف اتساعاً وضيقاً، ويكون اعتماد الإقليم عليها إدارياً، بينما يكون اعتمادها عليه بما يمونها به من مواد غذائية. وكان يوجد بالمدينة عمال لجباية الضرائب منها عيناً أو نقداً، ويمتد نشاطهم إلى سوادها أي إلى الريف المجاور لها فقط.

وكانت هذه الضرائب تنقسم إلى قسمين: ضرائب شرعية أو مشروعة، وضرائب غير مشروعة تعرف بالمكوس.

أولاً: الضرائب المشروعة وهي التي أباح الشرع جبايتها وتشمل:

١ ـ المال الخراجي الذي يفرض على سواد المدينة من الأراضي الزراعية، ويحدد بناءً على قرار عمال الجباية الذين يزورون الإهراء والمخازن أو يقدرون المحصول المنتظر أثناء الزرع أو بعد الحصاد.

٢ ـ المعادن: التي تستخرج من أرض المدينة أو ضواحيها، ثم الركاز وهو كل مال وجد مدفوناً فيها. وتقدر الضريبة عليه بنحو الخمس أو العشر.

٣ ـ الزكاة أو الصدقة: وهي من فرائض الإسلام، وتعني الطهارة لأنها تطهر المال من الجزء المخصص منه للفقراء شرعاً. وكانت تجبى بطريقتين:

أ - زكاة الأموال الباطنة كالذهب والفضة، فترك إلى الفرد المسلم أن يفرقها بنفسه. فكان عليه أن يدفع ربع العشر (١/٤) عن ماله الذي حل عليه الحول. وكانت بعض الحكومات تتدخل أحياناً في جمعها مثلما حدث بمصر في عهد الدولة الأيوبية وبعض عهود سلاطين المماليك.

ب - زكاة الأموال الظاهرة كالمواشي والمنتجات الزراعية، وبضائع تجار الكارم إذا دخلت البلد وحال عليها الحول. وهذه الزكاة كان عمال المدن يقومون بجبايتها.

٤ - الجزية: وتؤخذ من أهل الذمة كاليهود والنصارى، وتجبى مرة واحدة في السنة من العقلاء والأحرار البالغين من الذكور. وكان الخليفة عمر ابن الخطاب قد قسم الجزية ثلاث درجات وفقاً لحالة الذمي الاجتماعية فجعلها:

٤٨ درهماً على الموسرين، ٢٤ درهماً على متوسطي الحال، ١٢ درهماً على الفقراء. وقد أقر أبو حنيفة هذا التقدير بينما تركه مالك إلى تقدير الإمام. أما الشافعي فيجعل الحد الأدنى اثني عشر درهماً ويترك ما فوق ذلك إلى الإمام. ولفظ الجزية مشتق من الجزاء على اعتبار أن الذميين يدفعونها جزاء ما منحوا من الأمن. وكانت الجزية تسمى أحياناً باسم الجوالي، وهي قد تعني في الأصل جاليات الذميين الذين أجلاهم الخليفة عمر بن الخطاب من أوطانهم في شبه جزيرة العرب، فلزمهم هذا الاسم، ثم صارت الكلمة تطلق على نفس الجزية.

٥ - المواريث الحشرية: وهي مال من يموت وليس له وارث.

٦ - العشور: وهي المال الذي يجبى من تجار الفرنج الذين يفدون ببضائعهم إلى دار الإسلام، فكانوا يدفعون عشر قيمتها مثل الضريبة الجمركية على المستوردات في الوقت الحاضر. وقد أباح الشافعي للحاكم أن يزيد في هذه النسبة إلى الخمس أو ينقصها إلى نصف العشر أو يزيلها نهائياً.

٧ ـ التعتيب: وهي ضريبة حديدة فرضت في الأندلس في عهد المرابطين وعلى يد أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٩ هـ (١١٢٥ م). وكان الغرض منها ترميم الحصون ،الأسوار التي حول المدن الرئيسة، ويقوم بسدادها أهل هذه المدن المنتفعة بها. ويبدو أن هذه الضريبة استمرت حتى أواخر الحكم الإسلامي بالأندلس. وهي وإن كانت خارجة عن الضرائب الشرعية، إلا أن فقهاء الأندلس أجازوها لأن المصلحة تقضي بذلك، بدليل قولهم:

«وكان خراج السور في بعض مواضع الأندلس في ذلك الوقت على أهل الموضع، وقد أجاز ذلك الفقيه أبو إسحاق الشاطبي معتمداً على قيام المصلحة التي إن لم يقم بها الناس فيعطون، ضاعت عليهم»[٣]

ثانياً: المكوس: وهي ضرائب إضافية غير مشروعة نشأت عن حاجات وظروف جديدة اضطرت الدولة إلى فرضها.

وتسمى أيضاً بالمال الهلالي لأنها تجبى مع هلال كل شهر عربي، بعكس المال الخراجي الذي يجبى كل سنة[٤]. وكان فقهاء المسلمين لا ينظرون إليها بعين الرضا لأنها ضرائب غير شرعية، ولكن الضرورة لها أحكامها بعد أن قلت موارد بيت المال وازدادت النفقات وارتفعت المرتبات، فكان لا بدّ من إيجاد موارد جديدة لسداد هذا العجز عن طريق هذه المكوس التي اتسمت بالكثرة والتنوع وعدم الثبات على حال دائم حسب أهواء المسؤولين. وقد شملت أغلب المتاجر الواردة من الخارج، كما شملت أغلب السلع التي كانت تباع وتشترى في الأسواق. ومن الطريف أن المآصر (جمع ماصر) وهي السلاسل الحديدية التي كانت تشد في البحر عند مداخل الموانىء لحمايتها من غارات

---

(٣) الحميري: الروض المعطار ص ٢٢٣.
(٤) المقريزي. الخطط جـ ١ ص ١١١، حسني سالم. اقتصاد مصر الداخلي في العهد المماليكي ص ٢٨٦

السفن العادية، صارت تستخدم أيضاً لغرض جمع المكوس، كما أمدت عبر الأنهار في الداخل لتمنع مرور السفن قبل أن تجبى الضريبة منها لدرجة أن كلمة ماصر صارت تطلق على الضريبة نفسها(٥).

ولا شك أن هذه المكوس كانت تشكل مورداً خصباً للدولة، ولكنها في نفس الوقت كانت تسبب إرهاقاً للناس، ولهذا كثرت الظلامات وعمت الشكوى والفتن في الأسواق، خصوصاً وأن طرق الجباية كثيراً ما كانت تتسم بالعنف وسوء المعاملة. وقد اشتكى الرحالة ابن جبير حينما زار مصر في أوائل عهد صلاح الدين الأيوبي من قسوة الإجراءات الجمركية في الموانىء، وسوء معاملة التجار والحجاج القادمين إلى البلاد والخارجين منها(٦). غير أن شكوى ابن جبير لم تمنع من أن بلاده الأندلس كانت هي الأخرى تعاني من هذه الضرائب الإضافية غير المشروعة المسماة بالمكوس. وقد كان خطرها كبيراً لأنها كانت تعطي التزاماً، وكان ملتزموها من غير المسلمين أحياناً. وقد عرف هذا الالتزام وصاحبه باسم القبالة والمتقبل، وانتقل إلى اللغة الاسبانية بلفظه ومعناه Cabala(٧)

هذه الضرائب المشروعة وغير المشروعة التي كانت تجبى من المدن الإسلامية، كانت تمثل مورداً مالياً هاماً لبيت المال بجانب الأموال الخراجية التي تصله من الأراضي والقرى الزراعية. ومن حصيلة هذا الرصد المالي في بيت المال المركزي، كانت الدولة تقوم بأوجه النفقات المختلفة مثل: نفقات القصور الخلافية أو السلطانية، وأرزاق الجند، ورواتب الموظفين، والانفاق على الحملات العسكرية والمعدات الحربية، ونفقات المشروعات العامة مثل حفر الترع والقنوات وتطهيرها، وإقامة الجسور، وبناء المستشفيات

---

(٥) عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن القرن الرابع الهجري ص ١٩٢

(٦) رحلة ابن جبير ص ٣٨، ٣٩، عطيه القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر ص ٢٣٦

(٧) ليفي بروفنسال: محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها ص ٨٢

(المارستانات) ومنح العلماء والأدباء والنفقة على المسجونين وأسرى الحرب من المشركين ودفن موتاهم

على أننا إذا تساءلنا: ماذا كان نصيب المدينة من أوجه هذه النفقات؟ الجواب: في أغلب الحالات أقل نسبياً عما كانت تساهم به المدينة من أموال في ميزانية الدولة، كما أن نسبة الاستفادة منها كانت تتفاوت من مدينة إلى أخرى، وقد جرت العادة أن العواصم الكبرى كانت تستأثر بالنصيب الأكبر من الخدمات الحكومية، وهي التي سماها ابن خلدون، بالمدن المتوسطة في الأقطار التي هي مركز الدولة ومقرها، وما ذلك إلاّ لمجاورة السلطان وفيض أمواله فيهم، كالماء يخضر ما قرب منه من الأرض[8]

وكيفما كان الأمر، فإنه يمكن عموماً حصر الانفاق الحكومي في المدينة في الأوجه التالية: كانت الدولة مسؤولة عن إنشاء وصيانة بعض المنشآت العامة في المدينة، كدار الإمارة، والمسجد الجامع، والدواوين، ومركز الشرطة، والسجن (الطبق أو المطبق)، والمستشفى أحياناً. وهي مسؤولة كذلك عن العناية بماء الشرب في المدينة وتوفيره لأهلها. وترتيب أناس يكنسون الأزبال والأتربة من الأسواق ورشها بالماء كل يوم، وإزالة الأوساخ من المسالك والأنابيب. وترتيب الخفراء والعسس والدرابين لحراسة الأسواق ومراقبة الأمن في المدينة طوال الليل. ويروي المؤرخ الأندلسي ابن سعيد المغربي في هذا الصدد، أن بلاد الأندلس كانت لها دروب تغلق في أول الليل بواسطة الدرابين، وكان كل واحد منهم معه سلاح وكلب وسراج. ومن الطريف أن عادة غلق الأبواب ما زالت متبعة في إسبانيا منذ الساعة العاشرة ليلاً وبواسطة درابين يعرفون باسم سيرينوس Serenos فعلى كل من يريد الخروج أو الدخول في منزل أثناء الليل، أن ينادي هذا الحارس الليلي بطريقة التصفيق.

---

(٨) ابن خلدون المقدمة ص ٣٦٩

غير أن هذه الخدمات الحكومية لم تكن لها أو لبعضها صفة الدوام في كثير من الأحيان مما اضطر المدينة إلى الاعتماد على نفسها في سد حاجاتها. ومن هنا ظهر لها مورد مالي آخر لعب دوراً هاماً في اقتصادها، الا وهو نظام الوقف أو الحبوس. وهو نظام إسلامي ما زال موضوع دراسته من وثائقه الرسمية في حاجة إلى المزيد من البحث في العالم الإسلامي. والمراد بالوقف أو الحبوس هو الأراضي أو المؤسسات التي تكون ملكاً لشخص حر التصرف في ماله ثم يتنازل عن حقه في عائدها أو دخلها، ويجعل هذا الدخل وقفاً محبساً وبصفة دائمة على جهات البر والإحسان، وصيانة المؤسسات الدينية والعلمية كالمساجد والمدارس والخوانك[9] والمستشفيات، وإعانة الفقراء والمعوزين والمجذومين والأيتام والمساجين. كذلك كان يخصص دخل الوقوف للعناية بماء الشرب بالمدينة وما يتصل بها من سقايات وسبل. وكذلك لتنظيف المدينة وإنارتها، إلى غير ذلك من المنافع العامة التي تشبه حالياً خدمات المجالس البلدية.

● ● ●

الصناعة في المدينة الإسلامية:

حض الإسلام على العمل، وأكد على حرمته، وجعل من الإنتاج عبادة وتقرباً إلى الله بل جهاداً في سبيله. قال تعالى: ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾. وقال تعالى: ﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾، فالمقصود هنا القوة في الحرب والقوة في العمل والإنتاج. وفي الحديث الشريف: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».

ولقد اعتمد العرب في حياتهم بالدرجة الأولى على أعمال التجارة والنقل وتربية الماشية، كما اشتهروا ببعض الصناعات المحلية كالمنسوجات

(٩) الخوانك جمع خانكاه وهي كلمة فارسية الأصل معناها بيت، وهي تعني في الإسلام الأماكن التي يختلي فيها الصوفية لعبادة الله

والجلود والأسلحة وعلى الأخص في اليمن وعمان والبحرين والطائف والمدينة المنوّرة

ومع اتصال الفتوحات العربية شرقاً وغرباً، وانتشار الإسلام بين الموالي أو أهالي البلاد المفتوحة، واختلاط العرب بهم عن طريق الجوار أو المصاهرة، نشأت الشعوب الإسلامية والعربية التي حافظت على تراثها الحضاري القديم في ميادين الزراعة والصناعة، وعملت على تطويره، لأن طبيعة التطور الحضاري تحتم استفادة الخلف من تراث السلف

ويضاف إلى هؤلاء المسلمين من العرب والموالي، أهل الذمة من الصناع وأصحاب الحرف الذين استوطنوا البلاد الإسلامية، مستفيدين من الحماية التي تقدمها لهم الدولة ولم يكن عليهم إلا أن يعترفوا بسيادتها ويطيعوا نظمها، ويدفعوا الضرائب لها.

والواقع أن الحكومات الإسلامية بصفة عامة، كفلت لعمالها من أرباب الحرف والصناعات حرية واسعة في ممارسة أعمالهم. ولم تتدخل إلا في بعض الصناعات المحدودة التي كان يتطلب ممارستها الحصول على إذن خاص مثل إنشاء الحمامات، وصنع الأسلحة، وسك النقود، وتركيب الأدوية، والعمل في دور الطراز وهذا راجع بطبيعة الحال إلى أسباب تتعلق بالمصلحة العامة أو الأمن العام[١٠].

وارتقت الصناعة بتوالي الأجيال ووفرة المواد الخام النباتية والمعدنية، واتصال العمران في المدن الإسلامية. على أنها ظلت مع ذلك في مستوى الصانع اليدوي، وبقيت السلع تصنع في البيوت أو المحال والحوانيت. وقد تطلب هذا العمل اليدوي من العامل أن يبدي مهارة وحذقاً وصبراً مما أعطى

(١٠) صالح أحمد العلي التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري ص ٣٠٢

إنتاجه، رغم قلته، صفة الاتقان وطابع الطلاوة[11].. ولهذا كانت حالة العامل الاقتصادية متواضعة، وتكفي لضروريات عيشه فقط منطبقاً عليه القول المأثور «صناعة في اليد أمان من الفقر وأمان من الغنى»، واعتبر أهل الحرف في عداد العامة أو الطبقة الدنيا من المجتمع الإسلامي. ولهذا كله، كانت الصناعة وأربابها موضع عطف وتقدير عدد من الكتاب والمفكرين المسلمين الذين أفردوا لها الرسائل والفصول في مؤلفاتهم، ومثال ذلك ما نجده في رسائل إخوان الصفا، وفيما كتبه المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون عن الصنائع في مقدمة تاريخه.

وإخوان الصفا جمعية سرية سياسية دينية شيعية، بدأ نشاطها في البصرة ثم انتشرت في مختلف البلدان في القرن الرابع الهجري (١٠ م)، وكانت غايتها السعي إلى إسعاد النفوس وتهذيبها. ولهذا الغرض ألفوا رسائلهم المشهورة التي يبلغ عددها حوالي ثلاث وخمسين رسالة في مختلف نواحي العلوم والمعرفة التي يحتاج إليها الفرد المثقف في ذلك الوقت.

على أن الذي يهمنا في هذا الصدد هو أن رسائل إخوان الصفا، وجهت عناية خاصة إلى العمل وإلى الصناع وأثنت عليهم وعلى شرف الصنائع، ووصفت من لا صناعة له بأنه إما متكبر مثل أولاد الملوك، أو كسول جاهل، أو زاهد ورع لا تعنيه أمور الدنيا. كذلك يلاحظ أنهم في تصنيفهم لطبقات المجتمع، صنفوا الناس على أساس مادي حسب عملهم ودخلهم، وليس على أساس أنسابهم وأحسابهم وذلك كما يلي:

١ ـ الصناع: هم الذين يعملون بأبدانهم وأدواتهم ويعيشون من بيع ما ينتجون.

٢ ـ التجار: هم الذين يتبايعون بالأخذ والعطاء وغرضهم طلب الزيادة فيما يأخذونه على ما يعطون.

---

(١١) جاك ريسلر: الحضارة العربية ص ١١٨ ترجمة غنيم عبدون.

٣ ـ الأغنياء: وهم يملكون المواد الأولية ويشترون الصنائع المنتجة. ويدخل أغنياء التجار في هذه الطبقة[١٢].

أما من جهة الصنائع نفسها، فقد صنفها إخوان الصفا تصنيفات عديدة منها:

١ ـ حسب فائدتها: كالصنائع الضرورية للمجتمع (الزراعة والحياكة والبناء) والصنائع المكملة لها (كالحلج والغزل والخياطة).

٢ ـ حسب موضوعها: كالصنائع الجسمانية والحرف اليدوية وهذه بدورها تصنف إلى صنفين:

أ ـ الصنائع التي يكون موضوعها بسيطاً:

كالماء (كالسقائين والملاحين والسباحين الخ)
والتراب (كحفاري الآبار والترع والأنهار الخ)
والنار (كالنفاطين والوقادين والمشعلين)
والهواء (كالزمارين والبواقين والنفاخين).
والماء والتراب (كصناعة الفخارين والغضارين)

ب ـ الصنائع التي يكون موضوعها مركباً وهي:

المعادن (كالصفارين والحدادين والرصاصين والصواغين)
النباتات (كالنجارين والحصريين والخواصين والكتانيين).

الصناعات (كالصيادين والدباغين والطباخين والوزانين.. ومن الصنائع ما موضوعها أجساد الناس كصناعة الأطباء والمزينين، ونفوس الناس كصناعة المعلمين).

---

(١٢) رسائل إخوان الصفا جـ ١ ص ٢١٠ ـ ٢٢٧، عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ص ٨٦ وما بعدها

ولا شك أن هذه التصنيفات تلقي ضوءاً على الفكر الاقتصادي في هذه الفترة[13].

- أما المؤرخ الفيلسوف بعد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٦ م)، فقد أفرد هو الآخر للصنائع والحرف عدة فصول في مقدمته، وعلق عليها بملاحظات خلاقة تستحق التنويه. فهو يرى أن الصناعة بمهنها المختلفة رمز للحضارة ولا توجد إلا في أهل الحضر، ولا تكمل إلا بكمال العمران الحضري وكثرته، لأنها مركبة وعلمية تصرف فيها الأفكار والأنظار، بينما الفلاحة أوالزراعة في نظره من معاش المستضعفين وأهل العانية من البدو[14]. كذلك يرى ابن خلدون أن العمل هو المقياس الأساسي للقيمة أي أنه أبرز أهمية العمل ودوره في تحديد قيمة السلع والمنتجات، وغير أنه لم يغال كما غالى كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣ م) في إبراز أهمية عنصر العمل، فلم يجعل منه المقياس الوحيد للقيمة[15]. هذا، ويبدو أن ابن خلدون قد تأثر بتصنيف الصنائع عند إخوان الصفا، إذ نراه يتحدث عن أمهات الصنائع حسب ضرورتها، غير أنه اتبع في تصنيفها وتوزيعها المنهج الذي رسمه في مقدمته والذي يقوم على طبيعة العمران الحضري، مثال ذلك قوله: ففي كل مصر توجد الصنائع الضرورية، كالخياط والحداد والنجار وأمثالها، أما ما يستدعي لعوائد الترف وأحواله، فإنما يوجد في المدن المستبحرة في العمارة، الآخذة في عوائد الترف والحضارة مثل الزجاج والصائغ والدهان والطباخ وأمثال هذه وهي متفاوتة. وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف، تحدث صنائع لذلك النوع فتوجد بذلك المصر دون غيره[16].

---

(١٣) راجع (رسائل إخوان الصفا - جـ ١ ص ١١٣ - ١١٥، عبد العزيز الدوري: المرجع السابق ص ٩٨ - ٩٩).

(١٤) المقدمة ص ٢٨٣.

(١٥) المقدمة ص ٣٨١ - ٣٨٢.

(١٦) المقدمة ص ٣٧٧.

ثم يصرف ابن خلدون مثله على كلامه السالف الذكر. بعض الدول الإسلامية على أيامه بقوله «وعلى قدر عمران البلد تكون جودة الصنائع والتأنق فيها، كما بلغنا عن أهل مصر أن فيهم من يعلم الطيور العجم، والحمر الأنسية، ويتحيل أشياء من العجائب بإيهام قلب الأعيان وتعليم الحداء والرقص، والمشي على الخيوط في الهواء، ورفع الأثقال من الحيوان والحجارة، وغير ذلك من الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب لأن عمران أمصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة أدام الله عمرانها بالمسلمين»[١٧]

● ● ●

الطوائف الصناعية أو الأصناف

سبقت الإشارة إلى أهمية المدن في نشأة الحضارات وازدهار الحرف والصناعات. ففي مساحتها المحدودة، يتجمع عدد كبير من العمال من مختلف الأجناس والأديان، متقاربين في السكن ومتصلين بعضهم ببعض في حياتهم اليومية بالأسواق، تجمعهم روابط اقتصادية واجتماعية وفكرية، كل في مجال تخصصه. ومن هنا نشأ نظام الطوائف والتكتلات الصناعية التي عرفت بأسماء متعددة مثل الأصناف[١٨] وأرباب الصنايع، وأصحاب المهن، وأهل الحرف، وهي كلها تعابير تعطي معنى الجماعة لأبناء الصنعة الواحدة، وإن كنا لا نجد ذكراً لاصطلاح يطلق على أهل حرفة معينة.

ومع نمو المدن واتساعها، وتطور الحياة الاقتصادية وتعقدها في العالم الإسلامي، قوي الشعور المشترك بين أصحاب كل حرفة، وصار لهم في نطاقها نظام أو عرف خاص يكفل لهم الحماية من المنافسة، ويرفع من مستواهم الفني والمادي، ويعمل على تدريب الأبناء الجدد أو المبتدئين في الصنعة[١٩].

---

(١٧) المقدمة ص ٤٠١

(١٨) Louis Massignon Ency of Islam Art -Sinf-

(١٩) راجع (برنارد لويس) النقابات الإسلامية Islamic Guilds، ترجمة عبد العزيز الدوري، مجلة

وكان لكل حرفة رئيس أو شيخ اختلف في تلقيبه من بلد لآخر مثل الأمين (في المغرب)، والمعلم أو الأوسطى (ولعلها تحريف أستاذ) في مصر، ومثل لقب العريف الذي استخدم في بلدان كثيرة. وكان تعيين شيخ الطائفة يتم بالاختيار أو الانتخاب وبموافقة المحتسب ممثل الحكومة، كما كان يعاونه أحياناً مجلس من كبار معلمي الصنعة يعرفون بالاختيارية، أو المختارة (أي المسنين). وكانت مهمة هذا الشيخ أو العريف هو القيم يدور الخبير الفني في الخلافات التي تقع بين أهل الحرف وعملائهم حول سلعة من السلع. وكان رأيه مقبولاً لدى القاضي أو المحتسب. كذلك كان هو الذي يبلغ المحتسب رأي طائفته حول تكاليف السلع التي يصنعونها وتحديد ثمن بيعها[٢٠].

وقد جرت العادة أن يتدرج الفرد في الحرفة من مبتدىء أو صبي صغير إلى صانع مدرب. وكانت هذه الترقية تعتبر نقلة هامة في حياة الصانع لأنها تمكنه من الاستقلال بنفسه في حانوت خاص، وتوصله بعد ذلك إلى الرئاسة والمعلمة. ولهذا كان يصحب هذه الترقية احتفال بهذه المناسبة تتلى فيه الفاتحة، وتنشد الأمداح النبوية، ثم تقام مراسيم تعرف بالشد أي شد المحتفل به. وتتلخص في أن يقوم شيخ الطائفة بشد وسط المحتفل به بحزام مع عقده علة عقد يقوم كبار المعلمين الحاضرين في الحفل بحلها. ثم يلبس المحتفل به لباساً خاصاً يعرف بالسروال، ويوضع في كتفه شال، ويعرف بواجباته الجديدة، ويؤخذ عليه العهد والميثاق بأن يلتزم بها ولا يخرج عليها وأن يظل مخلصاً لها، وهي كلها مبادىء تقوم على التحلي بمكارم الأخلاق مثل القناعة بالقليل، والصبر على العمل، والتواضع مع الآخرين، والإخلاص للمعلم وأسرته. وفي آخر الاحتفال يتناول الجميع طعام وليمة يقدمها لهم الصبي المحتفل بترقيته[٢١].

الرسالة سنة ١٩٤٠، الأعداد ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦٢. وكذلك سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٣٦)

(٢٠) ليفي بروفنسال: محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها ص ٨٩

(٢١) راجع (برنارد لويس: المرجع السابق. حلمي سالم - اقتصاد مصر الداخلي في العهد

وعلى هذا الأساس يمكن تلخيص وظائف هذه الأصناف أو الطوائف المهنية في المدينة الإسلامية، بالأمور التالية: -

١ - تعليم الصبيان أسرار المهنة وتحديد العلاقة بين المعلم والصبي بشبه تعاقد أو التزامات بين الطرفين.
٢ - المراقبة الفنية على المشتغلين بالصنعة الواحدة، وحماية المستهلك من الغش وسوء الصنعة.
٣ - المشاركة في تحديد الأجور وأسعار السلع.
٤ - فض الخلافات التي تنشأ بين أفراد الطائفة الواحدة.
٥ - اعتبار الأمين أو العريف مسؤولاً عن طائفته أمام ممثل الحكومة في السوق وهو المحتسب[٢٢].

ولقد شبهت هذه الأصناف أو الطوائف الصناعية الإسلامية بنظام نقابات الصناع أو اتحادات العمال التي كانت تسمى في أوروبا Guilds أو Corporations، ولكنها في الواقع كانت تختلف عنها في أنها لم تشارك في إدارة المصالح العامة في المدينة، أو تقوم بدور غير دور التحكيم الخالص في المشكلات المهنية، أو تنتزع بعض الامتيازات البلدية للمدينة، أو تتخذ لنفسها حامياً أو راعياً دينياً من الأولياء والقديسين كما حدث في العالم المسيحي. ثم إن الأصناف الإسلامية لم تعرف الانقسام الذي ظهر في أوروبا الغربية بين أصحاب العمل والعمال الذي انتهى إلى نشأة جماعات أصحاب العمل وجماعات العمال[٢٣].

وكيفما كان الأمر، فإن موضوع التشابه والاختلاف بين الأصناف

المماليكي ص ١٩٦) وكذلك:
Louis Massignon: Ency of Islam, art. «Shadd»
(٢٢) راشد البراوي: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ص ١٩٤.
(٢٣) انظر Ira M. Lapidus: Middle Eastern Cities, p. 94
وكذلك ليفي بروفنسال: المرجع السابق ص ٨٩.

الإسلامية والنقابات الأوروبية، ما زال موضع نقاش بين المؤرخين.

على أن موضع الأهمية هنا، هو أن هؤلاء الحرفيين والصناع، بحكم كونهم من طبقة العامة في المدينة الإسلامية، فقد لعبوا دوراً هاماً في حياتها العامة، إذ شاركوا في ثوراتها الشعبية، وجمعياتها السرية، وفرقها الدينية وفي احتفالاتها ومواكبها العامة في المواسم والأعياد، في وقت لم يكن يوجد فيه على نطاق شعبي ذلك التنفيس الرياضي أو الاجتماعي الموجود حالياً.

ففي المدن المغربية، انخرط أكثر أهل الحرف في صفوف الطرق الصوفية التي كانت منتشرة بكثرة في شمال أفريقيا. كذلك انتشر هذا النوع من الفتوة التصوفية في خراسان شرقاً ولا سيما في مدينة نيسابور التي قال فيها أبو بحفص عمر النيسابوري الحداد (ت بعد سنة ٢٦٠ هـ سنة ٨٧٣ م) معبراً عن هذه النزعة الصوفية: «وسئل بعضهم من يستحق اسم الفتوة؟ فقال: من كان فيه اعتذار آدم، وصلابة نوح، ووفاء ابراهيم، وصدق اسماعيل وإخلاص موسى، وصبر أيوب، وبكاء داود، وسخاء محمد (ﷺ)، ورأفة أبي بكر، وحمية عمر، وحياء عثمان، وعلم علي، ثم مع هذا كله يزدري نفسه ويحتقر ما هو فيه».[24]

وإلى جانب هذا النشاط الصوفي التقشفي كان للحرفيين - ولا سيما الفقراء منهم - أوجه نشاط أخرى اتسمت بطابع العنف أو السرية. ومن أمثلة ذلك، إقبال بعضهم على اعتناق دعوة القرامطة السرية التي قامت على يد حمدان قرمط بالعراق في القرن الثالث الهجري نتيجة لسوء التوزيع الاقتصادي ثم امتدت بعد ذلك إلى البحرين على يد أحد دعاة قرمط وهو سعيد الجنابي، وكان من مبادئها تطبيق المساواة على الجماعة الإسلامية[25].

---

(٢٤) يرد هذا النص في كتاب الملامتية للسلمي، مخطوطة برلين. عن (جيرالد زالمفر: الفتوة، هل هي الفروسية الشرقية - دراسات إسلامية ص ٢٢٠، بيروت، دار الأندلس ١٩٦٠).

(٢٥) راجع التفاصيل في (الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ٢٨٢)

كذلك انضم الحرفيون في بغداد إلى جماعة العيارين أو الشطار أو الفتيان[٢٦]، الذين كان أول ظهورهم إبان الفتنة بين الأمين والمأمون وأبلوا بلاءً حسناً في الدفاع عن بغداد ضد جيوش المأمون سنة ١٩٧ هـ.

وعلى الرغم من الصفات المذمومة التي وصفوا بها مثل: الرعاع، العراة، الأنذال، اللصوص، إلا أن هؤلاء الشباب تميزوا بصفات تبعدهم عن أخلاق اللصوص العاديين مثل: الشجاعة والشهامة، والصبر على المكاره والشهوات، والمحافظة على المحارم وعلى شرف الكلمة، وعدم التعرض لأي شخص استسلم لهم. وكان شعارهم، الثورة على السلطة، وأصحاب المال، أي رفضْ الأوضاع الاقتصادية السائدة. ولهذا انحصرت أعمالهم في مهاجمة رجال الشرطة والأغنياء وكبار التجار، وليس الصنّاع بطبيعة الحال لأنهم ينتمون إليهم، بدليل أن التنظيم الداخلي لجماعة العيارين، كان جوهره تنظيماً حرفياً، وكذلك كانت مراسيم الانتماء لطائفتهم والطقوس المتصلة بها، تشبه مراسيم وطقوس الأصناف، مثل لبس السراويل، وشد الحزام، وشرب الأنخاب بماء الملح احتفالاً بالعضو الجديد. لذلك كان لهم تنظيم فروسي مثل اتخاذ الرؤساء القواد والنقباء والعرفاء، والمحلات المختلفة في بغداد. وكان مثلهم الأعلى هو علي بن أبي طالب فتى الإسلام الأول[٢٧]. وأغلب الظن أن كلمة عيار بمعناها البذيء (لص، نذل) كانت لا تعدو أن تكون شتيمة يلقي بها الخصوم في وجه خصومهم، وقد قيل في هذا الصدد «والعرب تمدح بالعيار وتذم به»[٢٨].

---

(٢٦) العيار في اللغة هو الشخص الذكي الكثير الحركة والشاطر هو الشخص المتصف بالدهاء والحيلة. أما الفتيان فجمع فتى وهو تعبير كثيراً ما ترجم إلى اللغات الأوروبية بمعنى فارس: بالألمانية Ritter وبالانجليزية Knight وبالفرنسية Chevalier.

(٢٧) راجع (حسين أمين: العيارون ونشاطهم الشعبي في بغداد، مجلة التراث الشعبي سنة ١٩٦٣ العدد الثاني، بدري محمد فهد: العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري ص ٢٨٦). وكذلك.

Arendonk: Incy. of Islam, art. Futuwa

(٢٨) تاج العروس جـ ٣ ص ٤٣٤.

ولما تشعبت فرق العيارين وكثر عددها واشتدت خلافاتها، عمل الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ) (١١٨٠ ـ ١٢٢٥ م) على استقطابها وإعادة تنظيمها وبعثها تحت قيادته في نظام فروسيّ نافع ومفيد تحت اسم (الفتوة) وهي التي أطلق عليها الباحثون الأوروبيون خاصة اسم الفروسية. وكان هدف الناصر من وراء ذلك، تنظيم الشباب وخلق جيل جديد يتحلى بالمبادىء السامية والأخلاق الكريمة والعادات الحسنة، فضلاً عن إعادة هيبة الخلافة العباسية التي فقدتها منذ قرون[٢٩].

ومن حسن الحظ أن المؤلف العربي المعاصر لبا عبد الله محمد بن العمّار البغدادي (ت ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٢ م) قد وضع كتاباً عن منظمة الناصر سماه الفتوة، جمع فيه كل قواعد الفتوة والمروة على حد قوله[٣٠].

والجدير بالذكر، أن مراسيم الانتماء لحركة الفتوة هذه، مثل لبس سراويل الفتوة، وشرب الانخاب بماء الملح، وحلق جزء من الرأس، وشد المريد بمنطقة أو حزام، كانت مستمدة من طقوس العيارين والحرفيين من قبل، كما استمر أثرها باقياً في نقابات الحرفيين بعد ذلك إلى وقت متأخر. هذا ويلاحظ في فتوة الناصر، أنها تتكون في أساسها من صناع المدن وغيرهم من العامة، إلا أنها قبلت أيضاً عدداً من أمراء الشام والعراق وآسيا الصغرى وغزنة. كذلك درج سلاطين المماليك في مصر فيما بعد حتى القرن الرابع عشر الميلادي، على منح سراويل الفتوة للأمراء والأعيان المصريين في بعض

(٢٩) تنبغي الإشارة هنا إلى أن المؤرخ التونسي المعروف ابن خلدون، انتقد فتوة الناصر واعتبرها لهو أمير لا خطر له، وذلك عند قوله في كتابه العبر جـ ٣ ص ٥٣٥: «وكان الناصر مع ذلك كثيراً ما يشتغل برمي البندق واللعب بالحمام المناسيب، ويلبس سراويل الفتوة شأن العيارين من أهل بغداد... وكان ذلك كله دليلاً على هرم الدولة وذهاب الملك عن أهلها بذهاب ملاكها منهم». والواقع أن ابن خلدون، كما هو معروف، قد جاء بعد الناصر بنحو قرنين من الزمان وهي مدة طويلة قد تبعده عن تقدير الوزن الصحيح لقيمة هذا العمل بالنسبة لوقته.

(٣٠) نشر هذا الكتاب (الفتوة لابن العمار) مصطفى جواد، تقي الدين الهلالي، عبد الحليم النجار، وأحمد ناجي القيسي (بغداد ١٩٥٨ ـ ١٩٦٠).

الأحيان ولعل منح السراوين للأمراء هو الذي أدى إلى تشبيه الفتوة بالفروسية الأوروبية على أساس المطابقة بين مبدأ التعية Homage في الغرب، والرباط الجامع بين المريد وأستاذه في الشرق وإذ كان هناك تحفظ هام حول هذه المقارنة يقوم على أن المجتمع الإقطاعي الأوروبي، لا يمكن أن ينشأ من علاقات التبعية فقط، فقد كان من الضروري أيضاً أن يمنح الملوك تابعيهم قطعاً من الأرض بانتظام[31]

وكيفما كان الأمر، فالمهم أن هذه الحركات الشعبية التي انخرط فيها الحرفيون، لم تقتصر على بغداد والقسم الشرقي من الخلافة العباسية، بل امتدت عرضاً إلى الشام ومصر أيضاً فيرى بعض المؤرخين أمثال الدوري وسوفاجية أن هناك ارتباطاً وتداخلاً بين حركة العيارين في العراق، وبين فتوة الأحداث التي ظهرت في المدن الشامية منذ أواسط القرن الرابع الهجري، واستمر نشاطها إلى القرن السادس الهجري (١٢ م). واستندوا في ذلك على أن هؤلاء الأحداث كانوا ـ مثل العيارين ـ أشبه بميليشيا شعبية تحسب لها الدولة حسابها، وكان لها رؤساء ونقباء ومقدمون ومحلات في المدن الشامية التي تسيطر عليها ولا سيما في حلب ودمشق، حيث كان رئيس فرقة الأحداث هو السيد الفعلي في المدينة، ولا يستطيع أي شخص أن يفرض نفوذه فيها إلا بموافقته والتعاون معه[32].

أما في مصر، فيبدو أن الفاطميين، منذ القرن الرابع الهجري، قد أدركوا ـ مدى ازدياد أهمية العامة، وخطورة دورهم في الحياة الاقتصادية بالمدن

---

(٣١) راجع (زالتغر: الفتوة، هل هي الفروسية الشرقية ـ دراسات إسلامية ص ٢٢٣) وكذلك.

Poliak: Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon 1250 - 1900, London Royal Asiatic Society 1939.

(٣٢) عبد العزيز الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص ٧٩، وكذلك:

Sauvaget Alep. Essai sur le development d'une grande ville Syrienne, desorigines au XIX siecle p. 97 (Paris 1941)

المصرية، ولهذا عملوا على تلافي هذه الحركات الشعبية المعارضة، بإجراء إصلاحات اقتصادية شاملة تقوم على سيادة الأمن والنظام والعدالة، وعلى سياسة تحديد الأسعار ومقاومة الغلاء والاحتكار، وإفساح المجال للنشاط الحرفي والتجاري، ومعاملة الأقباط، وهم عماد الصناعة في مصر، في ذلك الوقت، معاملة سمحة تقوم على مبدأ التسامح الديني، كي يتفرغوا لأعمالهم. وقد أدت هذه الإصلاحات إلى تحسين أحوال المعيشة كما هو واضح من كتابات المعاصرين أمثال المقدسي وناصري خسرو.

لكن المهم هنا، أن الدولة الفاطمية اتبعت في القاهرة سياسة تربوية عسكرية ربما سبقت بها فتوة الناصر في بغداد، وذلك بتجنيدها للحرفيين وغيرهم من شباب مصر في فرقة عسكرية عرفت باسم الغلمان أو الصبيان الحجرية، نسبة إلى الحجر أو الثكنات التي أقاموا فيها بجوار دار الوزارة عند باب النصر في شمال القاهرة. ويفهم من كلام المقريزي في هذا الصدد، أن أفراد هذه الفرقة كانوا في البداية منذ عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي من مهرة الصناع وأولاد الناس[٣٣] من مختلف الولايات والأعمال المصرية، وأنهم شاركوا مع الجيوش الفاطمية في الحروب الصليبية بالشام، ثم اضطر الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي، بعد هزيمته معهم أمام الصليبيين في عسقلان، إلى حل هذه الفرقة، وإعادة تكوينها من أبناء الجند فقط سنة ٤٨٧ هـ. وقد علق المستشرق الانجليزي كاسلز كاي على التنظيم الأول لهذه الفرقة، بأنه أول محاولة لتجنيد المصريين في مصر الإسلامية[٣٤]. وينص المقريزي كذلك على أن هذه الفرقة كان لها قيادة خاصة بها يتولاها أمير يقال

---

(٣٣) يستعمل المقريزي نقلاً عن ابن أبي طي عبارة أولاد الناس تعني هنا عامة الناس من المصريين. أما مفهوم أولاد الناس كمصطلح مملوكي بمعنى أبناء المماليك الأتراك فقد جاء متأخراً بمدة طويلة في عصر دولة المماليك. راجع (المقريزي: الخطط جـ ١ ص ٤٣٣).

(٣٤) انظر:

Cassels Kay: Yaman, its early medieval History by Omara, P. 264, note 50 (London 1931).

له الموفق كما كان لها نقباء وأستاذون وخدام برسمها. ويبدو أن هؤلاء الغلمان كانوا يعدون أعداداً خاصاً للقيام بالأعمال الفدائية السريعة التي تتقدم الجيش الرئيسي لتغطية تحركاته بدليل قول المقريزي: «وكانوا يبيتون في حجرهم بعدتهم وسلاحهم وخيولهم بحيث إذا جردوا، خرج كل لوقته لا يكون له ما يمنعه فكانوا في ذلك على مثال النزّابة (أي المقدمة) والأستار»[٣٥] (أي الغطاء والستر). ولا شك في هذا الوصف يذكرنا بفرق الفتوة والأحداث التي كانت تعمل منفصلة عن الجيش الرئيسي ولها قيادتها الخاصة بها.

أما زمن الأيوبيين والمماليك، فتحدثنا كتب التاريخ عن منظمات شعبية مسلحة من الرجالة أطلق عليها اسم الحرافيش. وقد وصفهم البعض بما وصف به العيارون في بغداد بأنهم كانوا من الرعاع وزعر العامة. غير أن ابن منظور في معجمه لسان العرب يعطينا تفسيراً واضحاً لهذه التسمية عند قوله: «واحرنفشت الرجال إذا صارع بعضهم بعضاً. واحرنفش الديك أي تهيأ للقتال»[٣٦]. وهذا التفسير أيدته المصادر التاريخية عند الكلام عن الحرافيش في جيش صلاح الدين، فوصفتهم بأنهم فرقة من المتطوعة، لها قيادتها الخاصة، تتقدم الجيش النظامي في الهجوم دون أن تكون جزءاً أساسياً منه. ومثال ذلك الهجوم الذي شنوه على قلعة بيت الأحزان وهم يصيحون: «الله أكبر» مما أوقع الرعب في قلوب الفرنجة الذين خيل لهم أن المسلمين معهم بداخل الحصن فاستسلموا في الحال قبل وصول صلاح الدين بالجيش الرئيسي[٣٧]. وهذا الوصف يذكرنا من غير شك بفرق الفتوة والأحداث والغلمان من قبل.

---

(٣٥) المقريزي: الخطط جـ ١ ص ٤٤٤.

(٣٦) ابن منظور. لسان العرب جـ ٦ ص ٢٨٢ (طبعة بيروت ١٩٥٦)

(٣٧) انظر:
Salah El Beheiry· Les Institutions de l'Egypte au temps des Ayyubides p. 156 - 159.

كذلك يروي لنا المؤرخون أمثلة حية من المقاومة الشعبية التي أبداها هؤلاء الحرافيش المصريون ضد حملة لويس التاسع على دمياط سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م)، وكيف أنهم كانوا يتحايلون في اختطاف الفرنج بكافة الطرق التي تثير الدهشة والإعجاب، مثال ذلك أن مجاهداً من الحرافيش قور بطيخة وأدخل رأسه فيها ثم غطس في الماء إلى أن قرب من الفرنج فظنه بعضهم بطيخة سائبة في النيل، ولما نزل لأخذها خطفه ذلك الحرفوش وأتى به أسيراً إلى معسكر المسلمين. وهناك قصة صياد السمك أحمد الدمياطي الذي كان يجد الجماعة من الفرنج على ساحل البحر (النيل) خائرين من الجوع، فيطرح عليهم شبكته ويبادرهم بالذبح. هذه الأمثلة وغيرها تدل بوضوح على المفهوم الإسلامي للجهاد في العصر الوسيط حيث كان عامة الناس وحتى رجال قادرين على حمل السلاح والقتال به إلى جانب أعمالهم وحرفهم التي يكتسبون منها.[٣٨]

● ● ●

نماذج لبعض الصناعات في المدن الإسلامية:

تعددت الصناعات في المدن الإسلامية حتى صارت مظهراً من مظاهر ازدهارها الاقتصادي. ويكفي لتأكيد هذه الحقيقة أن نقرأ ما كتبه الرحالة والمؤرخون في وصفها، أو أن نشاهد ما بقي منها في المتاحف الإسلامية والدولية. وحسبي في هذا المجال أن أقدم نماذج لبعض الصناعات الحيوية التي كان للإسلام فضل فيها، والتي تتعلق في نسيقها بمعيشة الإنسان من ناحية كسائه وغذائه وشرابه وثقافته والدفاع عن نفسه. وأعني بذلك صناعة الملابس وجر المياه، والسكر، والورق، والأسلحة.

---

(٣٨) أحمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ص ٢٣٨، ٢٤٢.

أولاً: صناعة المنسوجات.

اشتهر المصريون والفرس من قديم بصناعة المنسوجات. ولما فتح العرب هذه البلاد، عملوا على تنمية وتطوير هذه الصناعات الساسانية والقبطية ونشرها في البلاد التي فتحوها. ويؤيد ذلك كتابات الجغرافيين والمؤرخين التي تدل على وجود اتصالات وثيقة وتشابه كبير بين صناعات النسيج في المدن الإسلامية إلى درجة المنافسة. فالنسيج الحريري العتابي الذي كان يصنع أصلاً في محلة العتابية بغرب بغداد، لم يلبث أن انتقلت صناعته إلى مصر والأندلس بنفس الاسم. والأثواب الديبقية المصرية الموشاة بالحرير والذهب والتي كانت تصنع في بلدة دبق قرب دمياط، لم تلبث هي الأخرى أن صارت تصنع في العراق وفارس بنفس الاسم أيضاً. والمقاطع الكتانية الرقيقة التي كانت تصنع بمدينة الاسكندرية، صار الصنّاع في البلدان المختلفة يقلدونها ويبيعونها على أنها من الاسكندرية. والمنسوجات التي اشتهرت أصلاً بأصبهان وجرجان في إيران، لم تلبث أن صارت تصنّع في الأندلس وغيرها باسم الأصبهاني والجرجاني أيضاً. والقماش المعروف باسم بوقلمون والذي كان يصنع في مدينة تنيس بجوار دمياط، صار يصنع أيضاً في مدينةشنترين Santaren في غرب الأندلس وبنفس ألوانه المتغيرة في اليوم الواحد(٣٩). كذلك شبهت مدينة كازوورون الإيرانية بمدينة دمياط المصرية في صنع الثياب الكتانية حتى صارت تسمى «دمياط العجم»، مما يدل على وجود صلة بين الصناعتين في مصر وفارس. هذا بالإضافة إلى أقمشة السقلاطون Eskerlat الحريرية الوردية التي اشتهرت في الأصل ببلاد اليونان ثم انتشرت صناعتها في المدن الإسلامية شرقاً وغرباً.

---

(٣٩) قيل في تفسير بوقلمون إنه اسم الحرباية باليونانية لأنه يتغير مثلها في ألوان شتى متغيرة. وقيل كذلك إنه اسم دابة بحرية لها وبر في المحيط الأطلسي في غرب الأندلس، وإنها كانت تحتك بحجارة الشاطىء فيقع منها وبر في لين الحرير ولون الذهب فيجمع وتنسج منه في مدينة شنترين ثياب تتلون في اليوم ألواناً. (المقدسي: أحسن التقاسيم ص٤٢٢، زكي حسن كنوز الفاطميين ص٥٢).

وهذا التشابه في الإنتاج إن دل على شيء فإنما يدل على أن الإسلام كان عامل توحيد فني وصناعي إلى جانب كونه عامل توحيد ديني وثقافي بين بلدان العالم الإسلامي.

على أن هذا التشابه في صناعة المنسوجات لم يمنع من وجود أوليات فيها بكل أقليم حسب الإنتاج الزراعي ووفرة الخام فيه.

فالمشرق الإسلامي بصفة عامة امتاز بزراعة وصناعة القطن الذي انتقل إليه من الهند من قديم، وصارت أهم مراكزه في بلاد ما وراء النهر (تركستان) وشرق فارس. ففي كتاب تاريخ بخاري للنرشخي (ت ٣٤٨ هـ)، نجد وصفاً لنسيج قطني اشتهرت به بخارى وقراها، وهو الكرباس ويسمى أيضاً الزندنيجي لأنه ظهر أول الأمر في قرية من أعمالها تسمى زندنة. وكان هذا القماش يحمل إلى العراق وفارس ومصر والشام والروم وغيرها، ويتخذ منه الملوك والعظماء ثياباً ويشترونه بثمن الديباج. وكان منه الأحمر والأبيض والأخضر. وكان ببخارى صنّاع مهرة مخصصين لهذا العمل، ودار صناعة (بيت الطراز) لعمل هذه الثياب والبسط والسرادقات وسجاجيد الصلاة. وفي كل عام كان يذهب إليها عامل خاص من بغداد ويأخذ من هذه الثياب ما يقابل خراج بخارى[٤٠].

كذلك اشتهرت مرو ونيسابور ومعظم مدن خراسان بثياب القطن اللينة الفاخرة. وفي ذلك يقول الثعالبي: «وقد علم الناس أن الكتان لمصر، وأن القطن لخراسان»[٤١].

ومن شمال فارس انتقلت زراعة القطن إلى العراق والجزيرة، ومن أهم

---

(٤٠) أبو بكر محمد النرشخي: تاريخ بخارى ص ٣٠، ٣٧. عربه عن الفارسية أمين عبد المجيد بدوي ونصر الله مبشر الطرازي (مجموعة ذخائر العرب رقم ٤٠، مصر ١٩٦٥).

(٤١) الثعالبي: لطائف المعارف ص ٩٧، آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة عبد الهادي أبو ريده جـ ٢ ص ٣٥٠.

مراكز زراعته البصرة جنوباً، ومجدل ورأس العين وحران وعربان في الجزيرة شمالاً. ويقال إن الحمدانيين عملوا عز نشره هناك بين النهرين ومن ثم قامت صناعات قطنية في العراق، فاشتهرت البصرة بالبز وهو نسيج قطني ثمين تصنع منه الفوط والمآزر والطيالس. كما اختصت الموصل وحران بصناعة أقمشة قطنية رقيقة تُعرف بالشاش بينما بلدة حربى ومدينة بغداد وقراها أمثال باقدرا والحضيرة بصنع الثياب القطنية السميكة[٤٢].

ولم تلبث رراعة القطن أن انتشرت في الشام، وصنعت منه دمشق أقمشة مشجرة سميت باسمها «الدمشقيات». ثم انتقلت زراعته بعد ذلك إلى الأندلس في القرن الثالث الهجري، حيث اشتهرت مدينة إشبيلية Sevilla بزراعته وصناعته وتصديره، لدرجة أنها نجحت في إنتاج نوع من الأقمشة يقي من بلل الأمطار[٤٣].

أما في مصر فيبدو أن إنتاج القطن كان ضئيلاً بحيث لم يعمل منه فيها نسيج من القطن الخالص، بل كانوا يمزجونه بالكتان أو الصوف أو بمواد أخرى ليفية[٤٤]. وتجدر الإشارة إلى أن هناك فارقاً بين القطن في ذلك الوقت وبين القطن الحالي الذي طور الأمريكيون زراعته في نهاية القرن الثامن عشر حين هجنوا هذا النبات على أنواع محلية في عالمهم الجديد[٤٥].

وكيفما كان الأمر، فإنه يكفي العرب فخراً أنه عن طريقهم عرفت أوروبا هذا النبات الهام، وأبقت عليه اسمه العربي في لغاتها، ثم أصبح القطن هو والفحم، فيما بعد، أهم مادتين من المواد الخام التي قامت عليها الثورة الصناعية.

---

(٤٢) ياقوت: معجم البلدان جـ ٢ ص ٣٧٣، الدوري: المرجع السابق ص ٧٦.

(٤٣) ابن حوقل: صورة الأرض جـ ١ ص ١١٤.

(٤٤) Zaki Hasan: Les Tulunides p. 239

(٤٥) كوك: التطورات الاقتصادية (تراث الإسلام، القسم الأول ص ٢١٠).

أما الكتان فقد كان له الصدارة في صناعة المنسوجات المصرية بسبب انتشار زراعته في جميع أنحاء مصر حتى قيل إنه في أيام المجاعات كان الناس لا يجدون شيئاً يأكلونه سوى بذر الكتان.

ومن ثم قامت على الكتان في مصر صناعة المنسوجات التيلية بأنواعها الرقيقة والسميكة. وقد اختصت مدن شمال الدلتا مثل تنيس ودمياط وشطا وديبق والاسكندرية، بصناعة الأنسجة الكتانية الرقيقة التي كانت تصنع منها الملابس الداخلية وتلف بها العمائم وتعمل منها الخمر التي تغطي رؤوس النساء. أما الأقمشة التيلية السميكة، فكانت تصنع في مدن مصر الوسطى كالبهنسا، والأشمونين، والفيوم. ومنها كانت تعمل الستور والمضارب والخيام [٤٦].

كذلك اشتهرت الأندلس بصناعة المنسوجات الكتانية البديعة الغالية التي لا يفرق بينها وبين الكاغد (الورق) الجيد الصقل في الرقة والبياض. وقد اشتهرت كل من سرقسطة Zaragoza ولارده Lerida وباجة Beja بصناعة الكتان في الأندلس[٤٧]. هذا، ويشير المقدسي إلى أن الكتان كان يزرع بالعراق وتصنع منه الملابس الكتانية الرقيقة المطرزة والبسيطة ولا سيما في الأبلة والبصرة. وكذلك انتشرت صناعته في إقليم أذربيجان بإيران[٤٨].

أما في أقصى المشرق الإسلامي، في بلاد ما وراء النهر (جيحون)، فكان يندر وجود الكتان، حتى يحكى أن اسماعيل الساماني أمير بخارى، أهدى لكل قائد من جيشه ثوباً من الكتان كهدية قيمة نادرة[٤٩].

---

(٤٦) ابن حوقل: صورة الأرض ص ١٠٨، راشد البراوي: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ص ١٣٤.

(٤٧) الإدريسي: نزهة المشتاق، طبعة دوزي، ص ١٩٢

(٤٨) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٢٨

(٤٩) آدم متز: المرجع السابق، جـ ٢ ص ٣٥٢.

أما صناعة الحرير، فالمعروف أنها انتقلت قديماً من الصين شرقاً، وبيزنطة غرباً، وانتشرت على شواطىء بحر قزوين، وفي إقليم طبرستان جنوبه، وفي أرمينية وخوزستان (الأهواز)، ولم تلبث هذه الصناعة في العصر الإسلامية أن عمت الأراضي الإيرانية كلها، وحملها العرب أينما ذهبوا، فانتشرت على أيديهم تربية دودة القز، وانتشرت معها صناعة الحرير، حتى أصبحوا زعماء تجارة الحرير في العالم خلال العصر الوسيط

ومن أهم أنواع الحرير: الخز، وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير والصوف أو الوبر، والأبريسم، وهو حرير خالص، والديباج وهو نسيج حريري موشى بخيوط من الذهب أو الفضة بأشكال الحيوانات ونحوها[٥٠].

وقد اشتهرت سمنان بجبال طبرستان بصنع المناديل المنقوشة والسبنيات العجيبة الصنعة التي كانت تباع السبنية منها بمائتي دينار في ذلك الوقت (القرن الرابع الهجري)، ويقال إن المرأة تعمى من دقة الصنعة وكثرة العمل[٥١].

واشتهرت الشام بالثياب الحريرية الموشاة الثمينة (البروكار Brocart)، ونسب إلى دمشق نوع مشهور منها حمل اسمها في العالم الغربي وهو الدماسك. كذلك اشتهرت العراق بإنتاج الحرير أيضاً، فصنعت بغداد الثياب العتابية، وصنعت الموصل أقمشة من الحرير الموشى عرف باسمها في أوروبا Muslin، كما صنعت الكوفة عمائم من الخز، وأغطية للرأس والرقبة سميت باسمها حتى اليوم «الكوفية».

أما الحرير في مصر، فكان استعماله محدوداً أول الأمر لعدم العناية بتربية دودة القز، وإن كان يبدو من بعض النصوص التاريخية والأثرية أن

---

(٥٠) أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه ص ٣٠٢ (دار الفكر ١٩٧٣).

(٥١) أبو دلف مسعر بن المهلهل الخزرجي (القرن الرابع الهجري): الرسالة الثانية ص ٣٧ نشرها وترجمها إلى الروسية بطرس بولغاكوف، وأنس خالدوف (موسكو ١٩٦٠)

مصر بدأت تصنع الحرير منذ أيام الفاطميين ويؤيد ذلك أيضاً وجود صناعته في بعض البلاد التي خضعت لهم مثل جزيرة صقلية وقاعدتها بالرمو التي اشتهرت بصناعة الحرير الموشى بالذهب على أيامهم[٥٢].

وكيفما كان الأمر، فإنه من الثابت أن المناسج المصرية أخرجت قماشاً سداه ولحمته من الحرير الخالص في عصر دولة المماليك. ولعل ذلك يرجع إلى هجرة الصنّاع المشارقة المتخصصين في هذه الصناعة إلى مصر أمام ضغط الزحف المغولي، بدليل وجود زخارف صينية الطراز على بعض الأقمشة الحريرية التي كانت تحمل اسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وقد كانت الاسكندرية من أهم مراكز هذه الصناعة، واشتهرت بصناعة الوشي والسقلاطون والمنمر (المخطط كجلد النمر)، والطردوحش والأطلس[٥٣].

وتعتبر الأندلس من أهم البلاد التي ازدهرت فيها صناعة الحرير بأنواعه المختلفة، وذلك بفضل عناية أهلها بتربية دودة القز، ووفرة أشجار التوت التي تتغذى القز على أوراقها. ويشير المؤرخ الأندلسي عريب بن سعد (ت ٣٧٠ هـ) إلى دور النساء في انتقاء الشرانق ورعاية بيض دودة القز من شهر فبراير إلى أن يفقس في شهر مارس من كل سنة[٥٤].

ومن أهم مراكز تربية دودة القز في الأندلس: البيرة (غرناطة)، ومالقة Malaga وجيان Jaen، وبسطة Baza، وجبال شلير Sierra Nevada،

---

(٥٢) راشد البراوي: المرجع السابق ص ١٣٦، جاك ريسلر: الحضارة العربية ص ١٢٦ وكذلك كتاب جامع الكتابات الكوفية المعروف باسم:

Repertoire Chronologique d'epigraphie arabe, Tome VI. (Le Caire 1931)

(٥٣) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٢ ص ٥٢ - ٥٣، زكي حسن: المرجع السابق ص ٣٦٧، حلمي سالم: المرجع السابق ص ١٠٥ - ١٠٧.

(٥٤) عريب بن سعد: تقويم قرطبة ص ٣٣، ٤١، نشرة دوزي كملحق لكتاب البيان المغرب لابن عذاري تحت عنوان:

(Le Calendrier de Cordoue de l'annee 961)

ولورقة Lorca وغيرها. وكان حرير البيرة أجودها، ولذا كان يصدر إلى داخل وخارج إسبانيا(٥٥).

وكانت مدينة المرية Almeria الواقعة على شاطىء البحر المتوسط، من أهم مراكز صناعة المنسوجات الحريرية في الأندلس. ويقال إنه كان يوجد بها نحو ثمانمائة حرفة في نسج الحرير، كما يقدر عدد الأنوال فيها بحوالي ٨٠٠ نول(٥٦). ومن أمثلة منسوجاتها: الديباج الموشى والسقلاطون، والأصبهاني والجرجاني، والعتابي المموج، والثياب المعينة أي التي تزدان بنقط صغيرة تشبه عيون الوحش أو بزخرفة هندسية على هيئة العين(٥٧).

كذلك اشتهرت مدينة إشبيلية بالحلل الموشية ذات الصور العجيبة والمنتجة برسم الخلفاء فمن دونهم. وبالمثل يقال بالنسبة للثياب الحريرية السرقسطية في شمال إسبانيا (٥٨). وحينما زار الرحالة العراقي ابن حوقل بلاد الأندلس في القرن الرابع الهجري (١٠م)، أشاد بأنسجة الديباج الأندلسية، وبالسروج الحريرية، وقال إنها فاقت في صنعها أي مكان في العالم، كما أنها تزيد في كمياتها على ما يتجه العراق(٥٩). وقد حظيت المنسوجات الأندلسية بشهرة كبيرة في الأوساط الأوروبية الراقية، ونجد ذلك واضحاً في سير الملوك والبابوات والقادة وغيرهم، الذين حرصوا على اقتناء هذه الملابس الثمينة(٦٠). كذلك تحتفظ المتاحف الدولية بقطع عديدة من المنسوجات الأندلسية مثل متحف فيجو بقطالونيا، ومتحف الفن الزخرفي في بروكسل، وكاتدرائية أوتون بفرنسا، والأكاديمية الملكية بمدريد.

---

(٥٥) الحميري الروض المعطار ص ٢٤، ٤٥.
(٥٦) المقري: نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٢.
(٥٧) عبد العزيز مرزوق: الفنون الزخرفية ص ٢٤.
(٥٨) العذري: ترصيع الأخبار ص ٢٢ نشر عبد العزيز الأهواني: المقري: نفح الطيب، جـ ٣ ص ٢٢١.
(٥٩) ابن حوقل: صورة الأرض جـ ١ ص ١١٤.
(٦٠) (٦١) راجع Caston Migeon Arte musulmane p. 18.

أما صناعة الأنسجة الصوفية، فقد انتشرت كذلك في العديد من المدن الإسلامية، ولكن منتجات فارس وأرمينية وبخارى، حظيت بشهرة عالية لجودة الصوف فيها. ونخص بالذكر منها سجاجيد أصبهان، والبسط الأرمنية القرمزية التي تجلب بلونها الأحمر الفرح والسرور. ويروى أنه[٦٢] كان لأم الخليفة العباسي المستعين، بساط عليه صورة كل حيوان من جميع الأجناس، وصورة كل طائر من ذهب، وأعينها يواقيت وجواهر. وكان لليمن شهرة كبيرة في صناعة المنسوجات الصوفية، ففي عدن كانت تصنع الحبرات، ومفردها حبره، وهي ضرب من الثياب الصوفية الموشاة أو المخططة[٦٣].

كذلك اشتهرت كل من الحيرة والنعمانية في العراق بصناعة البسط والطنافس. ويبدو أن كلمة طنافس العربية تقابل كلمة Tapetes البيزنطية أو مأخوذة منها[٦٤]. هذا، ويرد ذكر النيجان ضمن الأقمشة الصوفية العراقية وهي طيالس ضخمة غلاظ تكون عادة خضراء وسوداء اللون، ويدعى الصنف الخشن منها البت[٦٥].

أما الأقمشة الصوفية في مصر كالشيلان والبسط والعمائم والملابس، فكانت تصنع على وجه الخصوص في مدن الوجه القبلي مثل أسيوط وأخميم لكثرة تربية الأغنام هناك، كذلك امتازت المدن المغربية بغزل الصوف وصنع الملابس والفرش الصوفية لوفرة الشياه فيها، فيروي الحسن بن محمد الوزان، المعروف بليون الإفريقي (القرن العاشر الهجري) في كتابه وصف أفريقيا[٦٦]، أن الثياب الصوفية المصنوعة في جبل زرهون وبني يازغة بنواحي فاس، كانت

(٦٢) جورجي زيدان: التمدن الإسلامي جـ ٢ ص ١٣٥.
(٦٣) عبد الله غنيم: جزيرة العرب من كتاب المسالك لأبي عبيد البكري ص ١٢٢.
(٦٤) متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٥٥.
(٦٥) صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص ٢٥١.
(٦٦) كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان ترجم إلى عدة لغات أوروبية كالانجليزية والفرنسية والاسبانية. أما الأصل العربي فللأسف مفقود.

في مثل ليونة الحرير، بينما الأنسجة الغليظة تصنع في جبال الريف والهبوط شمالاً، وأنه كان يوجد بمدينة فاس خمسمائة وعشرون منسجاً يعمل فيها ما لا يقل عن عشرين ألف عامل، وثلاثمائة وستين طاحونة. فكان الصوف المغزول يعالج في الميضات التي يبلغ عددها في فاس خمسين ميضة، وفي خارجها نحو مائة على ضفة النهر (وادي فاس). وكان هذا الصوف المغزول مما يبيعه النساء في سوق الغزل بالمدينة، ويندر أن تجد مدينة إسلامية في المغرب ليس فيها ميدان يسمى سوق الغزل[٦٧].

ولعل الصوف الإسباني الذي اشتهر باسم مارينو Merino ينسب إلى قبائل بني مرين الزناتيين الذين حكموا المغرب وجنوب الأندلس في القرنين السابع والثامن الهجري، وكانت لهم مراعٍ خاصة لتربية المواشي والأغنام، أشار إليها الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب في كتابه نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، الذي قمت بتحقيقه.

وما يقال عن المغرب، يقال أيضاً عن شقيقته الأندلس بصدد الملابس الصوفية، ولا سيما وأن قسوة المناخ في إسبانيا يحتم اهتمامها بمثل هذه الملابس. ولهذا استخرجوا فراء السمور (حيوان مثل ابن عرس)، كما استخدموا فراء القنلية Conejo (الأرنب الجبلي)، والمرعزي المصنوع من شعر الماعز، إلى جانب الملابس الصوفية. وقد اشتهرت كل من سرقسطة، وقونقة Cuenca، وجنجالة Chinchilla بعمل ذلك. أما صناعة السجاد والبسط والحصير، فأهم مراكزها تقع في شرق الأندلس مثل مرسية Murcia، وبسطة Baza، وتنتالة Tentela، وإليها نسب أجود أنواعها فيقال البسطي والتنتالي. ولعل كلمة ألفرميرا Alfombra الإسبانية التي تعني سجادة أو بساط جاءت

---

(٦٧) عبد العزيز بن عبد الله: معطيات الحضارة المغربية جـ ٢ ص ٦٧، ليفي بروفنسال: المرجع السابق ص ٩١ وكذلك:

Roger Le Tourneau: Fes avant le Protectorat, p. 334, Casablanca 1949.

من الكلمة العربية الخمرة أي الحصيرة أو لعلها من الحمزة، لأن اللون الأحمر كان يلعب دوراً رئيسياً في ألوانها على غرار البسط الفارسية والمصرية في المشرق.

كلمة أخيرة بصدد صناعة المنسوجات، وهي أن حكام المسلمين شرقاً وغرباً، كانت لهم مصانع رسمية خاصة تشتغل لحسابهم لصناعة ملابسهم وملابس الطبقة الخاصة بهم. وقد أشير إلى هذه المصانع أحياناً باسم دور الصناعة وأحياناً أخرى باسم دور الكسوة، ولكنها اشتهرت عموماً باسم دور الطراز، أي التطريز على الأقمشة بالكتابة المطرزة في نسيج القماش نفسه. وقد شرح ابن خلدون اختصاص هذه المصانع بقوله:

«من أبهة الملك والسلطان ومذهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الابريسم، تعتبر كتابة خطها في نسج الثوب إلحاماً وإسداء بخيط الذهب أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب، على ما يحكمه الصناع في تقدير ذلك، ووضعه في صناعة نسجهم فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز قصد التنويه بلابسها من السلطان فمن دونه، أو التنويه بمن يختصه السلطان بملبوسه إذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف الدولة»[٦٨].

والجدير بالذكر أن صناعة كسوة الكعبة في كل عام، كانت تصنع في دور الطراز المصرية في تنيس أو سيدي شطا أو دمياط أو الاسكندرية.

● ● ●

ثانياً: استنباط موارد المياه الجوفية:

هذه الصناعة تتعلق بعناية المسلمين بماء الشرب وتوفيره لأهل المدن عن

---

(٦٨) ابن خلدون: المقدمة ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

طريق شبكة من القنوات أو المجاري الظاهرة فوق الأرض[٦٩]، أو الجوفية التي تحت الأرض بطريقة هندسية محكمة بلغت حداً عظيماً من الاتقان وكان يشرف على سلامتها وتوزيعها حفظة وقوامون مهمتهم السهر عليها بالتناوب ليلاً ونهاراً. وكانت هذه القنوات تصنع من الخزف أو الفخار المصمت المتماسك، وأحياناً تصنع من الحجر وتوضع في جوفها أنابيب الرصاص لتحفظه من كل دنس.

وكان نظام القنوات الجوفية منتشراً في بعض المدن الإيرانية بالمشرق الإسلامي مثل قم ومرو ونيسابور[٧٠]. كذلك عرفته الجزيرة العربية في الحجاز واليمن حيث كانت هذه المجاري تسمى «الكاظمة» (من كظم الماء أي حبسه) والفقير (من فقر الماء أي فجره وبثقه)[٧١]

وفي الأندلس بنى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط الأموي في القرن الثالث الهجري مدينة مجريط (مدريد الحالية عاصمة إسبانيا) فوق مستودعات من المياه الجوفية. وقد ثبت أن أصل اسمها مشتق من كلمة مجرى، بالألف المدودة بالكسر أي بالإمالة، التي هي لهجة أهل الأندلس، ثم بالمقطع الإسباني يط ite الذي في آخر الكلمة الذي يدل على التكثير. فالاسم مجريط يدل على مجموعة المجاري والقنوات الجوفية التي ما زالت آثارها باقية فيها حتى اليوم[٧٢].

كذلك يروي ابن عذاري أن الخليفة الأموي الحكم المستنصر، أجرى

---

(٦٩) راجع وصف القناة الضخمة التي حفرت في مدينة ميافارقين أيام الحمدانيين في القرن الخامس الهجري في (أحمد بن الأزرق الفارقي. تاريخ ميافارقين ص ١٦٥ - ١٦٦ تحقيق بدوي عبد اللطيف).

(٧٠) ناصري خسرو: سفرنامه ص ٢٧٨، متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٧١.

(٧١) راجع لسان العرب لابن منظور في مادتي كظم وفقر...

(٧٢) انظر (خايمه أوليفر آسين: تاريخ مدريد ص ٨٩ (بالاسبانية)، محمود علي مكي: مدريد العربية ص ٥٢).

للماء العذب إلى سقايات المسجد الجامع بقرطبة سنة ٣٥٠ هـ، وأنه أجرى هذا الماء من عين بجبل قرطبة، خرق له الأرض، وأجراه في قناة من حجر متقنة البناء محكمة الهندسة، أودع في جوفها أنابيب الرصاص لتحفظه من كل دنس، وفي ذلك يقول الشاعر الأندلسي ابن شخيص:

وقد خرقت بطون الأرض من نطف ... من أعذب الماء نحو البيت تجريها

وفي المغرب أيضاً وجد هذا النظام وإن كان الاسم المستخدم للدلالة على القناة الجوفية هناك هو لفظ «الخطارة» مشتقاً من الخطر (بسكون الطاء) بمعنى اهتزاز الماء وتذبذبه. وقد طبق هذا النظام في مدينة مراكش بعد تأسيسها بقليل في عهد علي بن يوسف بن تاشفين في أوائل القرن السادس الهجري. إذ يروي الأدريسي أن المهندس عبد الله بن يونس بعد البحث والتنقيب توجه إلى طرف من أطراف المدينة يعلو فيه مستوى الأرض، ثم حفر فيها بئراً كبيرة، ثم أوصل من قاعها قنوات تسير تحت الأرض في انحدار حتى توصل الماء إلى مختلف أحيائها قريباً من سطح الأرض. وقد أعجب الأمير المرابطي بهذا الابتكار وأغدق على صاحبه العطايا والصلات، ولم تلبث المدينة أن اتسع عمرانها واكتنفتها الخضرة والحدائق بفصل هذه الشبكة الواسعة من القنوات الجوفية التي ما زالت باقية في مدينة مراكش حتى اليوم[٧٣].

كذلك نذكر قصبة المهدية التي بناها الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي سنة ٥٤٥ هـ على ساحل المحيط الأطلسي في مكان مدينة الرباط الحالية عاصمة المملكة المغربية، وأجرى لها الماء النقي في سرب تحت الأرض من عين غبولة التي تقع في جنوب غرب الرباط بنحو عشرين كيلو متراً. وما زالت آثار السقايا المتفرعة منها باقية إلى الآن. وبالمثل يقال عن مدينة مكناس التي أجروا لها الماء من عين تاكما على بعد ستة أميال، إلى غير ذلك من

(٧٣) الإدريسي: نزهة المشتاق ص ٦٨، محمود مكي. مدريد العربية ص ٥٣

الأمثلة التي يضيق المجال عن ذكرها[٧٤].

هذه العبقرية الإسلامية الهيدروليكية في استنباط موارد المياه الجوفية، تجرنا إلى التعليق على عبارة وردت في كتاب الحضارة الإسلامية لآدم متز، تقول: «وقد نالت مياه الشرب في المملكة الإسلامية عناية كبيرة، ولكن مجاريها، رغم هذه العناية، لم تبلغ في الكبر ما بلغته مجاري الماء عند القدماء، وذلك لأن المسلمين كانوا يشفقون من الإسراف في العناية بالأبدان، إشفاق أهل العصور الوسطى في الغرب»[٧٥]. هذه العبارة الأخيرة يمكن تطبيقها فعلاً على أهل الغرب في العصور الوسطى، الذين كانوا يرون في الاستحمام والنظافة، نعومة أو ترفا لا يتفق مع ما تقتضيه ميادين القتال من خشونة وشراسة وقذارة. بينما كان الاستحمام والنظافة عند المجاهد المسلم جزءاً لا يتجزأ من إيمانه ولا سيما في مواطن القتال والاستشهاد. وقد يؤيد ذلك ما فعلته محاكم التفتيش Inquisiciones في إسبانيا بعد زوال الحكم الإسلامي منها، إذ عمدت على هدم الحمامات وتحريم الاستحمام الذي صار عندهم شبهة إسلام.

فالمسلمون، على عكس ما قاله آدم متز، قد أسرفوا في العناية بنظافة أبدانهم، بدليل هذه الكثرة من الحمامات التي أنشأوها في مدنهم[٧٦]، والتي

(٧٤) ابن صاحب الصلاة: المن بإمامة ص ٢١٨، ٤٤٨، نشر عبد الهادي التازي: أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٣٩، محمد المنوني: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ص ٢٥٢.

(٧٥) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ترجمة عبد الهادي أبو ريدة جـ ٢ ص ٢٦٩

(٧٦) ضرب ابن خلدون في مقدمته مثالاً ببغداد التي بلغ عدد الحمامات فيها على عهد الخليفة العباسي المأمون، خمسة وستين ألف حمام! ويبدو أنه نقل هذا الرقم من كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) (جـ ١ ص ٧٤ نشر وترجمة سالمون، باريس ١٩٠٤) ويرى آدم متز أن في هذا العدد مبالغة وتخيل وأن الرقم الصحيح لا يتجاوز العشرة آلاف حمام في القرن الرابع الهجري (الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢١٩ حاشية ٢) وهو عدد ليس بالقليل على كل حال

كانت عندهم بمثابة السينما أو المسرح عندنا اليوم من الناحية الاجتماعية، فضلاً عن مزاياها الصحية.

وإذا كان الرومان من قبل قد برعوا في إقامة القنوات المائية الضخمة فوق سطح الأرض Acuaductos، كالتي ما تزال في مدينة شقوبية Segovia بإسبانيا، فإن العرب أيضاً تدين لهم المدنية بأمثال تلك القنوات الجوفية المحفورة في باطن الأرض.

●●●

ثالثاً: صناعة السكر:

يذهب بعض المؤرخين إلى أن كلمة سكر، وجدت في اللغة السنسكريتية الهندية القديمة، على شكل ساركارا Sarkara . ومنها انتقلت إلى اليونانية باسم سكارو Sakkaro، واللاتينية سكارم Sakkarum ثم استعملها الفرس باسم شكر، والعرب سكر. غير أنهم يعترفون في نفس الوقت، بصمت المصادر القديمة في ذكر زراعته. ولهذا يرجحون أن زراعة قصب السكر، لم تظهر على الإطلاق في الأمبراطورية الرومانية، بدليل أن الرحالة اليوناني القديم سترابون (القرن الأول قبل الميلاد) في وصفه للمتجات الإسبانية المصدرة إلى روما، لا يذكر اسم السكر بينها. كذلك القديس أيزيدورو الإشبيلي (ت ٦٢٦م) في كتابه المعروف باسم أصول الكلمات Etimologias لا يذكر اسم السكر. بل إن موسى بن نصير بعد فتحه لإسبانيا سنة ٩٥هـ (٧١٤م)، لا يذكر اسم السكر ضمن المتجات والغنائم الإسبانية التي أعدها للخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك(٧٧).

ولا شك أن صمت المصادر القديمة عن ذكر اسم هذا النبات الهام،

---

(٧٧) انظر (تراث الإسلام جـ ١ ص ٣٠٦ وكذلك: (Marceira: La Cana de Azucar, pp. 6-12)

حتى بداية عصر الفتوحات العربية، يبين أصاله الدور الإسلامي بعد ذلك في زراعة قصب السكر وعصره وتصنيعه ثم تصديره إلى العالم الخارجي ويفهم من كتابات المؤرخين الأندلسيين المتقدمين أمثال الرازي وعريب بن سعد، أن محصول قصب السكر كان كبيراً في الأندلس في القرن الرابع الهجري، وأن من أهم مراكز إنتاجه وتصنيعه البيره (غرناطة)، ومالقة، والمنكب، وجليانه، وشمخاله ثم إشبيلية ولا سيما في جنوبها الشرقي عند جنة المصلي[78].

واستمر إنتاج السكر في الأندلس حتى سقوط الحكم الإسلامي بها سنة ١٤٩٢ م لدرجة إن الإسبان سمحوا لعدد من المورسكيين (المسلمين المعاهدين) المشتغلين بزراعة السكر، بالبقاء في إسبانيا، ولكنهم رفضوا مما ترتب على رحيلهم تضاؤل كمية إنتاجه[79].

أما في المشرق الإسلامي، فأول ذكر لزراعة قصب السكر وتكريره كان في إقليم خوزستان (الأهواز) في القرن الثاني للهجرة، وأن محصوله كان على درجة عالية من الكثافة والجودة ولا سيما في مدينة أصبهان[80]. أما في مصر، فإن قصب السكر كان ولا يزال من المحاصيل الزراعية الهامة ولا سيما في أراضي الوجه القبلي. ونسمع عن أول زراعته بها من بعض أوراق البردى التي يرجع تاريخها إلى القرن الثالث الهجري. وقد توسع المصريون في زراعته لشدة الطلب عليه. وقد ذكر الأدريسي في أواخر العصر الفاطمي أن زراعته كانت منتشرة على جانبي النيل من الصعيد حتى مصب النهر شمالاً[81]. بل ويذهب القلقشندي إلى أن شهرة سكر مصر كانت تفوق شهرة سكر الأهواز

---

(٧٨) الحميري الروض المعطار ص ٢١، ٢٤، ياقوت معجم البلدان جـ ٣ ص ١٣٠

(٧٩) Imamuddin Some Aspects of the Socio - Economic and Cultural History of Spain (711 - 1492) p 88 - 89

(٨٠) أبودلف الخزرجي. الرسالة الثانية ص ٤٢ نشر بطرس بولغاكوف وأنس خالدوف، (دار النشر للآداب الشرقية، موسكو ١٩٦٠).

(٨١) راشد البراوي. المرجع السابق ص ٧٠

في العالم الإسلامي[٨٢]. وكانت مراكز صناعته تعرف بالمعاصر والمطابخ والمسابك، وقد انتشرت في مختلف المدن المصرية ولا سيما في الأماكن القريبة من زراعته، نذكر منها: الفسطاط، والمنيا، والفيوم، والبلينا، وأسيوط، ثم قفط التي كان فيها وحدها، في القرن الثامن الهجري، أربعون مسبكاً للسكر، وست معاصر للقصب، وأصبح السكر الجيد ينسب إليها ويسمى قفطي[٨٣].

هذا، وتطنب المصادر المعاصرة في وصف كميات السكر الضخمة التي كان حكام مصر يستهلكونها في عمل الحلوى التي توزع على الناس في الأعياد والمواسم. أما في العراق، فيذكر الثعالبي أن قصب السكر كان ينتج بوفرة فيه، ولا سيما حول البصرة وفي سنجار[٨٤].

وبعد، فإنه يمكننا أن نختم الكلام عن هذه الصنعة الحلوة بعبارة حلوة كذلك أوردها المستشرق كوك عند قوله: «ولهذا يمكن أن يقال بحق أن تراث الإسلام، من وراء كوبا في عهد كل من باتيستا وكاسترو، لأن العرب كان لهم نقطة الانطلاق في زراعة قصب السكر»[٨٥].

رابعاً: صناعة الورق:

صناعة الوراقة - على قول ابن خلدون - من توابع العمران واتساع نطاق الدولة حيث كثرت التآليف العلمية والدواوين، وحرص الناس على تناقلها في الآفاق، فانتسخت وجلدت وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين. يكتبون في

(٨٢) صبح الأعشى جـ ١ ص ٢٧٢.
(٨٣) المقريزي: الخطط جـ ١ ص ٢٣٢، حلمي سالم: المرجع السابق ص ٧١ - ٧٢.
(٨٤) عبد العزيز الدوري: المرجع السابق ص ٧٠
(٨٥) تراث الإسلام جـ ١ ص ٣١١.

الرقوق، وفي القراطيس أو الطوامير التي تصنع من البردى، وكلها كانت أدوات رفه (ترف) نادرة الوجود وغالية الثمن ثم طما بحر التأليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه، وضاقت الرقوق الجلدية والقراطيس البردية عن ذلك، فأشار الفضل بن يحيى البرمكي على الخليفة هارون الرشيد بصناعة الكاغد (أي الورق)، لمواجهة هذا الاستهلاك المتزايد، وهذا الشغف بالعلم والكتب[٨٦] وهكذا أنشىء أول مصنع للورق في بغداد سنة ١٧٨ هـ/٧٩٤ م

ومن المعروف أن هذه الصناعة في الأصل نقلت من الصين إلى سمرقند[٨٧]، وعندما احتل العرب هذه المدينة على يد قتيبة بن مسلم سنة ٩٤ هـ/٧١٣ م، عملوا على تطوير هذه الصنعة وتنقيتها من الشوائب بحيث صارت سمرقند أكبر مركز لصناعة الكاغد أو الورق. ومنها انتقل إلى بغداد ثم انتشر في جميع البلاد الإسلامية لرخصه ونعومته وسهولة استعماله، بينما أخذ الرق الجلدي والبردى المصري في الاختفاء.

ولا شك أن صناعة الورق وانتشاره بين المسلمين منذ القرن الثالث الهجري أو التاسع الميلادي، يعتبر حدثاً حضارياً كبيراً سبقوا به أوروبا قروناً عديدة، إذ إنه من المعروف أن أقدم المصانع التي أنشئت لصناعة الورق في كل من فرنسا وإيطاليا وألمانيا، ترجع إلى أواخر القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلادي. أما في انجلترا فجاءت بعد ذلك التاريخ[٨٨].

وإلى جانب سمرقند التي ظلت وقتاً طويلاً المدينة الممتازة للورق الجيد، ظهر الورق البغدادي كما رأينا، ثم الورق الشامي الذي كان يصنع في دمشق

---

(٨٦) ابن خلدون: المقدمة ص ٤٢١ - ٤٢٢.

(٨٧) تقع سمرقند في بلاد ما وراء النهر (جيحون) وهي حالياً مدينة في الجمهورية الأزبكية السوفياتية وكانت قاعدة للعاهل المغولي تيمورلنك وفيها قبره

(٨٨) من مقال نشره المرحوم عثمان الكعاك في مجلة المباحث التونسية عدد ٢٥

وحماة وطرابلس ثم في طبرية بفلسطين ثم ظهر الورق المصري وإن كان يأتي في مرتبة تالية من حيث الجودة والقطع.

أما في الأندلس، فإنه من المحتمل أن تكون صناعة الورق قد وجدت بها خلال العصر الأموي، وإن كان أول ذكر لهذه الصناعة أورده الإدريسي في القرن السادس الهجري عند كلامه على مدينة شاطبة Jatiba في شرق الأندلس إذ يقول: «ويعمل بمدينة شاطبة بالأندلس من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض، وإنه يعم المشارق والمغارب»[٩٠].

كذلك قامت صناعة الورق في مدينة بلنسية Valencia الواقعة في شمال شاطبة على البحر المتوسط. ويبدو من المخطوطات المحفوظة في المكتبات الإسبانية أن ورقها مصنوع من القطن والكتان وكذلك من ألياف نبات الشهدانج[٩١].

أما في المغرب، فقد كانت كل من مدينتي سبتة وفاس في طليعة مراكز إنتاج الورق على عهد الموحدين في القرن السادس الهجري[٩٢].

● ● ●

خامساً: صناعة الأسلحة:

استخدم المسلمون جميع أنواع الأسلحة المعروفة في العصر الوسيط. استخدموا السيوف والرماح والنشاب أي السهام ذات النصول المثلثة، كما

---

(٨٩) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٢ ص ٤٨٥ - ٤٨٧.
(٩٠) الإدريسي: نزهة المشتاق، طبعة دوزي ودى خوية ص ١٩٢.
(٩١) انظر:
(Carreras: Historia de Jativa. I, p. 47 - 48, 1933
(٩٢) عبد العزيز بن عبد الله: المرجع السابق جـ ٢ ص ٨١، محمد المنوني: المرجع السابق ص ٢٥٦.

استخدموا أقواس اليد والرجل، وأقواس اللولب التي تشد بواسطة لوب. وأقواس الركاب التي تشد من ركاب الخيل. كذلك استخدموا ما يسمى باللتوت وهي أعمدة ذات رؤوس حديدية مستطيلة ومضرسة، والدبابيس وهي تشبه اللتوت إلا أن رؤوسها مدورة ومضرسة، والطبر أو الطبرزين وهي الفأس، والدرق اللمطية لاتقاء ضربات العدو وسهامه، وهي مغطاة بجلد اللمط وهو حيوان يعيش في الصحراء. كذلك لبسوا الخوذات أو البيضات الحديدية لحماية رؤوسهم كما لبسوا الجواشن التي تحمي صدورهم، والدروع المسبلة ذات المغافر الملثمة التي تغطي جميع أجزاء الجسم.

هذا، وكان الحصان يعتبر سلاحاً هاماً من أسلحة الجيش، ولذا اهتموا بتربيته وإعداده وتدريبه، كما اهتموا بسلامته وتغطية جسمه بدروع فولاذية أو جلدية تسمى التجافيف. ويشير العذري على سبيل المثال إلى أن ساحل تدمير (مرسيه) بشرق الأندلس، كان مركزاً لتربية الخيل حتى إنه كان يخرج ألف فرس من كل ألوان الخيل في كل عام(٩٣).

كذلك استخدم المسلمون أسلحة الحصار الثقيلة مثل المنجنيقات المدمرة للحصون والدبابات والكباش لنقب الحوائط والأسوار.

كل هذه الأسلحة صنعها المسلمون في بلادهم الممتدة شرقاً وغرباً، معتمدين في ذلك على ما لديهم من مواد خام وأيد صناعية ماهرة. وقد أمدتنا الكتب الجغرافية والمعاجم اللغوية، بمادة غزيرة عن المعادن المختلفة ولا سيما مناجم الحديد التي كانت منتشرة في فرغانة، وكابل، وكرمان، وأذربيجان، وأرمينية، ولبنان والشام، وصقلية، والمغرب والأندلس. هذا إلى جانب الحديد المستورد من الهند وسيلان وروسيا وبيزنطة.

وعلى أساس هذه الخامات الحديدية، قامت صناعة الأسلحة التي اشتهرت باسم أماكن صنعها في العالم الإسلامي مثل: السيوف الفارسية،

---

(٩٣) العذري. ترصيع الأخبار ص ٢ نشر عبد العزيز الأهواني

والسيوف اليمنية، والسيوف الشامية كالمشرفية والدمشقية، والسيوف الحنيفية التي كانت تصنع في الحجر عاصمة بني حنيفة في اليمامة. ومثل الرماح الخطية التي كانت تصنع في الخط بين البحرين وعمّان على الخليج العربي. كذلك كان الفولاذ الأندلسي مشهوراً بجودته في أنحاء العالم، ومن أهم مراكز صناعته: طليطلة، وغرناطة وإشبيلية ومرسية والمرية، حيث كانت تصنع السيوف والدروع والخوذات وغيرها من الآلات الحربية.

ولقد اشتهرت مدينة سبتة بأسلحة الرمي حتى صارت بعض الأسر تتوارث صناعتها هناك. كذلك اشتهرت مدينة فاس في المغرب بصناعة السيوف والسكاكين معتمدة في ذلك على الحديد المجلوب من مناجم بني سعيد المجاورة.

وإلى جانب هذه الأسلحة التقليدية، توصل المسلمون إلى اختراع أسلحة متطورة، مثال ذلك أنهم صنعوا قدوراً خزفية في حجم الرمانة محشوة بالجير والنشادر والبول، وأطلقوا عليها اسم القدور الكفيات، لأنها تلقى على العدو باليد أو الكف مثل القنابل اليدوية، فإذا اصطكت بجسم العدو المدرع بالحديد، انكسرت وخرجت رائحتها في خياشيمه وسببت له اختناقاً[94].

كذلك استخدم المسلمون قدوراً أخرى وهي قوارير النفط أو نيم النفط التي تحتوي على مادة خارقة أساسها النفط، فإذا ألقيت على هدف من الأهداف أشعلت النار فيه. وهذا السلاح وجد عند البيزنطيين من قبل وأطلقوا عليه اسم النار الإغريقية.

ولهذا وجه المسلمون عنايتهم نحو استغلال آبار النفط التي في بلادهم، والتي كانت تكثر في إيران والعراق وصقلية. فيحدثنا الرحالة أبو دلف الخزرجي (القرن الرابع الهجري) عن عيون النفط التي في باكويه من أعمال

---

(94) النويري السكندري: كتاب الإلمام لما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الاسكندرية ورقة ٢٠٦ مخطوط دار الكتب المصرية.

شروان في إقليم طبرستان، وكيف أن قبالة (ضمان) كل عين منها بلغ ألف درهم في اليوم[٩٥] كذلك يصف لنا ابن الشباط التوسي (القرن السابع الهجري) طريقة استخراج زيت النفط من الآبار العربية من سرقوسة Syracuse على الساحل الشرقي لجزيرة صقلية، وكيف أن الرجل الذي ينزل في البئر كان عليه أن يغطي رأسه ويسد مسام أنفه وإلا هلك لساعته[٩٦].

وفي أواخر القرن السابع الهجري (١٣ م) توصل مسلمو المغرب والأندلس إلى اكتشاف خاصية أخرى للنفط كمادة هادمة متفجرة إذا اختلطت بملح البارود أو النشادر، وحصى الحديد في درجة حرارة عالية. وهذا الاكتشاف أدى إلى ظهور المدافع والأسلحة النارية وفي هذا الصدد يروي ابن خلدون أن سلطان المغرب يعقوب المريني عندما هاجم مدينة سجلماسة (تافيلالت الحالية في الجنوب) سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٢م) نصب عليها هنداء (آلة) النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة باريها[٩٧].

كذلك استخدم سلطان غرناطة اسماعيل بن الأحمر هذا السلاح الجديد في حصار مدينة أشكر Huescar في جنوب الأندلس. وفي ذلك يقول الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب: «وفي سنة ٧٢٤ هـ (١٣٢٤ م) نازل السلطان بلدة أشكر، وبشر عليها الحرب، ورمى بالآلة العظمى المتخذة بالنفط، كرة محماة، طاقة البرج المنيع، فعاثت عيات الصواعق السماوية، ونزل أهلها قسراً على حكمه، وفي ذلك يقول شيخنا ابن هذيل: -

وظنوا بأن الرعد والصعق في السما فحاق بهم من دونها الصعق والرعد
غرائب اشكال سما هرمس[٩٨] بها مهندمة تأتي الجبال فتنهد

---

(٩٥) أبو دلف الخزرجي: الرسالة الثانية ص ١٢.
(٩٦) ابن الشباط: وصف الأندلس ص ١٨٥ نشر أحمد مختار العبادي
(٩٧) ابن خلدون: العبر جـ ٧ ص ١٨٨.
(٩٨) هرمس Hermes الاسم اليوناني للإله الروماني Mercure إله البصالة والتجارة والسرقة، ولذا

ألا إنها الدنيا تريك عجائباً   وما في القوى منها فلا بدّ أن يبدو[99]

ومن الطريف أن المصادر الإسبانية المعاصرة في وصفها لأحداث هذه الحرب، أشارت إلى هذا السلاح الجديد. ففي حوليات ثوريتا الإسبانية، نجد العبارة التي تقول ما معناه:

«وانتشرت الإشاعات أن ملك غرناطة يمتلك سلاحاً جديداً مبيداً»[100].

واضح من النصوص السابقة ومن تواريخ أحداثها، أن مسلمي المغرب والأندلس توصلوا إلى استخدام الأسلحة النارية قبل ظهورها في أوروبا لأول مرة في موقعة كريسي Creasy سنة ١٣٤٢ م، في حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا، والتي انتصرت فيها انجلترا بسبب توصلها إلى هذا الاختراع. كذلك نلاحظ أن المسلمين استعملوا كلمة «النفط» بمعنى النار الأغريقية الحارقة، كما استعملوها أيضاً بمعنى المدفع المدمر الهادم الذي يحدث فرقعة مثل الصواعق السماوية. ولا يزال يوجد في المغرب وفي مدينة العرائش بالذات، مدافع أثرية يرجع تاريخها إلى بداية العصر الحديث في عصر السعديين (القرن العاشر الهجري) قد نقش عليها ما يفيد ذلك: «أمر بصنع هذا النفط السعيد، السلطان كذا.....»[101].

● ● ●

- أطلق اسمه على معدن الزئبق Mercure الذي لا يعرف كيف يمسك. ويرى ابن خلدون في مقدمته ص ٤١٢ أن هرمس هو أول من ابتكر صناعة الحياكة أو الخياطة وأنه هو نفسه النبي إدريس عليه السلام أقدم الأنبياء. وسواء أكان هرمس مثل الزئبق أو مثل الخياط الماهر. فالتشبيه هنا يرمز لغرابة الاختراع.

(99) ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص ٧٢

(100) انظر. J. Zurita. Anales, II p. 31

(101) راجع ما كتبناه في هذا الموضوع في Hespéris, 1959. 3 - 4 Trimestres

سوق المدينة

لا شك أن سوق المدينة، هي مرآة حياتها الاقتصاديه، وعنوان نشاطها التجاري والصناعي بل والاجتماعي أيضاً. وقد تشابهت الأسواق الإسلامية في مظهرها العام تقريباً، فأعلبها مسقوف كي لا تتعرض لعوامل الطبيعة، والبعض الآخر مكشوف. وكان لأهل الصنائع والحرف علامات فيها، ولكل صنعة أو سلعة أو تجارة، سوق مفردة خاصة بها قد أشار اليعقوبي (ت ٢٨٢ هـ) إلى هذه الظاهرة في وصفه للسوق العظمى ببغداد وهي الكرخ التي تقع في الجانب الغربي منها، يقول «ولكل تجارة شوارع وحوانيت معلومة، ولا يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة. ولا يباع صنف مع غير صنفه، ولا يختلط أصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم. فكل أهل تجارة منفردون بتجارتهم، وكل أهل مهنة معتزلون عن غير طبقتهم»[١٠٢].

كذلك أعطانا المقريزي (ت ٨٤٥ هـ) في خططه، وصفاً تفصيلياً ضافياً لقصبة القاهرة وهي أسواقها التي تمتد إلى ما لا نهاية. وكلها مصنفة إلى أسواق خاصة بكل سلعة أو صنعة أو تجارة على حدة، لدرجة أنها سميت باسم هذه السلع في كثير من الأحيان.

ولا يتسع المجال هنا لحصر جميع السلع المعروضة في الأسواق، ولكن نكتفي بذكر بعضها مثل سوق البزازين المكتظة بتجار الأقمشة ومن يتصل بهم من أصحاب الحرف مثل النساجين والحلاجين والصباغين والخياطين والكرائين، وكل من لهم علاقة بصناعة المنسوجات. ومثل سوق الوراقين أو الكتبيين الذي تباع فيها الكتب. وقد ذكر اليعقوبي أنها على أيامه في بغداد كانت تحتوي على مائة مكتبة. ومثل سوق السلاح حيث تباع القسي والسهام والدروع وغنائم الحرب أحياناً. وهناك سوق الكفتيين الذي اشتهر بصناعة قطع النحاس المكفت، وهي الأوعية النحاسية الجميلة المطعمة بالذهب

---

(١٠٢) اليعقوبي: كتاب البلدان ص ٢٣٩

والفضة كالأباريق والمباخر والصواني وسوق النجارين حيث تباع المحفورات الخشبية ومن أشهرها المشربيات. ومثل سوق الحلاويين في القاهرة التي كان يباع فيها السكر والعسل، والحلوى المصنعة منها، ومنها الحلوى الملونة التي تصنع في هيئة بنات (عرايس المولد) أو فرسان أو في هيئة حيوان كالحصان والأسد والقط[١٠٣]. وتسمى العلاليق لأنها تعلق بخيوط.

ولقد تميزت السوق الإسلامية بنوع من المنشآت التي تعرف باسم القياسر ومفردها قيسارية، وتباع فيها المنتجات الصناعية وسلع الترف وغير ذلك. ولا يزال يوجد في مدينة غرناطة قيسارية Caesaria من هذا النوع. كذلك تميزت بعض الأسواق الإسلامية بإقامة المساجلات الشعرية والأدبية فيها على عادة أسواق العرب القديمة، مثال ذلك سوق المربد في البصرة التي كان يؤمها كبار الشعراء أمثال الفرزدق وجرير في القرن الثاني الهجري. واستمرت حتى القرن السابع الهجري. وقد عملت العراق حديثاً على إحيائها من جديد بإقامة المهرجانات الشعرية بالبصرة من باب ربط الماضي بالحاضر.

كذلك تميزت السوق الإسلامية، بوجود نوع من التآزر والتماسك بين أفراد أصنافها وطبقاتها كما لو كانوا جسماً واحداً أو مجتمعاً قائماً بذاته. وقد وصف الحسن الوزان المغربي هذه الظاهرة عندما زار سوق القاهرة بقوله: «وإذا ما حدث وأنتج أحد الصناع عملاً جيلاً ماهراً لم ير مثيل له من قبل، كان يرتدي رداءً من الحرير، ويطاف به بين الحوانيت، يصحبه الموسيقيون فيما هو أشبه بموكب النصر، ويعطيه كل شخص بعض المال. ولقد رأيت في القاهرة أحد هذه المواكب التشريفية لرجل صنع سلسلة لبرغوث احتفظ به مقيداً على قطعة من الورق. كما رأيت أحد أعمال القوة العظيمة قام بها أحد السقائين الذين يسيرون في الشوارع حاملين قرباً من الجلد تتدلى في أعناقهم.

---

(١٠٣) المقريزي: الخطط جـ ٢ ص ٩٩ - ١٠٠. جاستون فييت: القاهرة مدينة الفن والتجارة ترجمة مصطفى العبادي، ص ١٦٢

فقد تراهن مع شخص آخر أن يحمل قربة عجل مملوءة بالماء تشد إليه بسلسلة من الحديد. وفعلاً استمر هذا الرجل طيلة سبعة أيام متتابعة من الصباح إلى المساء يحمل هذه القربة التي علقت بسلسلة على كتفه العاري، ففاز بالرهان، وحاز شرف موكب نصر عظيم تصحبه الموسيقى وجميع السقائين في القاهرة الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف سقاء»[١٠٤].

ظاهرة عامة أخيرة تميزت بها السوق الإسلامية، وهي وجودها بالقرب من المسجد الجامع الذي يعتبر القلب النابض للحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية.

الرقابة على الأسواق:

كانت الرقابة على السوق منذ أيام الخليفة عمر بن الخطاب في يد موظف خاص يدعى العامل على السوق. وكان من واجباته مراقبة الأوزان والمكاييل، والتحكيم في الخلافات التي تنشأ بين أصحاب المهن، وجمع ضريبة الأسواق أحياناً. ويمكن اعتبار هذه الوظيفة أصل وظيفة المحتسب التي ذكرت في التاريخ الإسلامي لأول مرة في عهد يزيد بن هبيرة عامل مدينة واسط (حوالي ١٠٣ هـ) حيث كان مهدي بن عبد الرحمن ثم أياس بن معاوية، محتسبين في واسط، ثم كان عاصم الأحول على الحسبة في الكوفة، ثم اكتسبت الحسبة أهمية كبيرة بعد ذلك في العصر العباسي وفي بقية أنحاء العالم الإسلامي[١٠٥].

وهكذا نرى أن نظام الحسبة يعد من أوائل النظم الإسلامية ظهوراً، لهذا كانت له صفة دينية في أساسه الأول ويقوم على تنفيذ النصيحة التي وردت في القرآن: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف

---

(١٠٤) جاستون فييت: المرجع السابق ص ١٦٨ - ١٦٩

(١٠٥) صالح أحمد العلي: التنظيمات الاجتماعية الاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري ص ٢٦٨

وينهون عن المنكر». فوظيفة المحتسب إذن، هي الأمر والنهي وتغيير المنكر في المشاكل اليومية الواضحة التي لا نزاع فيها والتي لا تحتاج إلى حلف يمين أو سماع شهود أو إقامة حدود، فهذه كلها من اختصاص القاضي ولا دخل للمحتسب فيها، أما التعزيرات أو الأحكام التأديبية السريعة فهي من اختصاص المحتسب.

لهذا كانت وظيفة المحتسب تتولى الإشراف على العمال والتجار والصنّاع وكل من يصح أن يخدع عملاءه بأي صفة كانت مما يؤدي إلى الأضرار بالجماعة الإسلامية. فالمحتسب هو المنظم الحقيقي للحياة الاقتصادية في المدينة.

ومن القضايا التي ينظر فيها المحتسب.

أولاً: منكرات الأسواق: مثل بيع الخمور وسائر المحرمات ونقص المقياس وتطفيف الميزان والمبيعات المغشوشة إلى غير ذلك من المعاملات الجارية في الأسواق. ويفهم من كلام المؤرخين أن أسعار المبيعات كانت محددة، وتوضع عليها أوراق بسعر كل سلعة بأمر من المحتسب.

ثانياً: الإشراف على الآداب العامة: كان المحتسب يعتبر مشرفاً على أخلاق المجتمع ومن ثم فإن من واجباته أن يراعي إقامة الصلوات في أوقاتها، وهو مسؤول عن نظافة المساجد ومراقبة ما يرد الخطباء والوعاظ هذا إلى جانب إشرافه على المعاهد التعليمية وعلى الحمامات وعلى الآداب العامة في الأزقة والطرقات.

وولاية الحسبة كان يطلق عليها في الأندلس في بادىء الأمر اسم ولاية السوق أو أحكام السوق، وكان متوليها يدعى صاحب السوق التي انتقلت إلى الإسبانية Zabazoqoque أما لفظ المحتسب الذي شاع في المشرق، فقد انتقل إلى الأندلس والمغرب في فترة متأخرة يمكن تقديرها بأواخر القرن

السادس الهجري ثم انتقل بدوره إلى إسبانيا المسيحية تحت اسم almotacen أو almotasaf.

هذا، وقد تكلم الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية، والمقريزي في كتابه إغاثة الأمة بكشف الغمة، عن ولاية الحسبة في المشرق، وهي لا تختلف عنها في المغرب والأندلس، إلا أن ولاية الحسبة في المغرب والأندلس كانت أكثر تحديداً منها في المشرق، كما كانت تقوم على الضروريات التي تقتضيها الحاجة الحقيقية في تلك البلاد بحيث يمكن أن يقال إن نظام الحسبة في المغرب والأندلس قد استمر بدون انقطاع طوال العصر الوسيط. ولعل أحسن دليل على أهمية المحتسب في الأندلس من الناحية العملية، أن ملوك إسبانيا المسيحيين، كانوا كلما استردوا من المسلمين إقليماً، أبقوا فيه المحتسب، ولهذا نجد لفظ المحتسب يدخل في اللغة الإسبانية كما رأينا ويطلق على الوالي المكلف بضبط الموازين والمكاييل. أما في المغرب، فالدليل على أهمية وظيفة المحتسب وشدة الحاجة إليها، أنها ما زالت باقية مستمرة إلى اليوم في المدن المغربية، بينما زالت من المشرق.

ويلاحظ أن اختصاصات المحتسب حالياً في المغرب لا تختلف كثيراً عما كانت عليه في العصر الوسيط[١٠٦].

وهكذا، نرى مما تقدم أن المدينة الإسلامية هي أساس التمدن الإسلامي لأن الإسلام دين مدني، نزل الجزء التوحيدي منه في مدينة مكة المكرمة التي كانت من قديم مركزاً دينياً مقدساً، كما كانت مركزاً تجارياً واقتصادياً هاماً، ثم نزل الجزء التشريعي منه في بيئة حضرية أخرى، وهي يثرب التي سميت منذ ذلك الوقت بالمدينة المنوَّرة للدلالة على أنها مقر النبي

---

(١٠٦) ليفي بروفنسال المرجع السابق ص، انظر كذلك آخر عمل علمي صدر حول هذا الموضوع.

(Pedro Chalmeta: El Senor del Zoco en Espana. Madrid 1973

(ﷺ) بعد هجرته، وللدلالة أيضاً على أنها مركز حضاري.

ومع حركة الفتوحات العربية، استمر إنشاء المدن والمراكز العمرانية الإسلامية في المشرق والمغرب، لتكون مراكز إشعاع حضاري، وهو أمر طبيعي، لأن البناء والعمران من مستلزمات التحضر، ولأن كل حضارة لا تنحصر في الموطن في الذي نشأت فيه، بل لا بدّ لها من اختراق حدود هذا الوطن والانتشار فيما حولها كي تتواصل وتتفاعل مع حضارات الشعوب الأخرى.

فالحضارة الإسلامية إذن، لم تنشأ من فراغ، وإنما سبقتها حضارات هي مصادرها التي أثرت فيها، إذ إن الحضارات أخذ وعطاء وتأثير وتأثر وتداخل وتفاعل وتبادل وترابط بين القديم والجديد، إيماناً بسنة التطور.

ولقد حاولنا أن نبين ـ بشكل سريع ـ مدى أهمية المدن في نشأة هذه الحضارات بمظاهرها المختلفة، وقلنا إن المدن تختلف عن القرى في أساسها ووظائفها وطبيعة سكانها. فأهل المدن يشتغلون بحرف غير زراعية مثل التجارة وما يتبعها من أعمال النقل والصيرفة، كما يشتغلون بالصناعة وحرفها المختلفة، وبالإدارة والثقافة والخدمات العامة. وقد قصرت كلامي في هذا الموضوع على جانب واحد من جوانب الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية، وهي الصناعة، وأربابها، وألوانها، وأسواقها، والمشرفون عليها، وأوجه نشاط عمالها في خضم الحياة المدنية سواء أكانت دينية أو حربية.

ثانياً: التجارة الإسلامية ومسالكها في العالم الإسلامي

إلى جانب الصناعة المتقدمة، نشأت تجارة عالمية إسلامية واسعة شملت العالم المعروف في ذلك الوقت وربطت بين أجزائه. ويلاحظ في هذا الصدد أن طبقات المجتمع الإسلامي في العصر الوسيط، لم تكن - كما هو الحال اليوم - طبقات رأسية، بل كانت طبقات أفقية على طول امتداد عالم الإسلام. فهناك طبقات العلماء والتجار والجنود .. الخ. وكان أفراد كل طبقة من هذه الطبقات يتعاطفون فيما بينهم مهما بعدت المسافات، وفرقت بينهم المذاهب والسياسات. لهذا لعبت التجارة والتجار دوراً إيجابياً هاماً في توحيد عالم الإسلام، ونشر دينه ولغته وحضارته فيما وراء حدوده عن طريق القدوة الحسنة، وحسن المعاملة. فإلى هؤلاء التجار وغيرهم من جنود الله المجهولين من الرحالة والصوفية والعلماء، يرجع الفضل في امتداد الإسلام إلى كل بقاع العالم وانتشار جماعاته في كل بلد من بلاد الدنيا.

وهناك عوامل أخرى ساعدت على نمو التجارة الإسلامية وانتشارها، نذكر في مقدمتها أن الإسلام ظهر في بيئة تجارية وهي البيئة المكية، وأن الرسول (ﷺ) وخلفاءه الثلاثة الأولين، وعدداً كثيراً من كبار الصحابة، اشتغلوا بالتجارة، فرفعوا من شأنها في نظر المسلمين. كما وردت أحاديث نبوية تشجع التجارة وتضع التاجر الأمين في مرتبة النبيين والصديقين والشهداء[1].

---

(1) راجع (الجاحظ: البخلاء ص ٣٠١، المقدسي. اليواقيت ص ٢٢٧، الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص ١١٩).

هذا، ومن المعروف أن الرسول (ﷺ) كثيراً ما كان يستخدم في كلامه بعض المصطلحات التجارية مثل البيعة والمبايعة بمعنى الاتفاق والموافقة، بغرض تقريب مفهومها الديني والسياسي للناس. ولم تلبث أن صارت مبايعة الخلفاء بعد ذلك سنة متبعة تتم بمصافحة بالأيدي كما يفعل المتبايعان في البيع والشراء عند العرب من قديم.

ثم إن الموقع الجغرافي للعالم الإسلامي بعد اتساعه، جعله يملك قلب العالم المعروف في العصر الوسيط، ويشرف على معظم الطرق التجارية الممتدة من أواسط آسيا والصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً[2].

ومن أشهر هذه الطرق والمسالك التجارية نذكر: -

١ - الطريق البحري إلى الهند والصين:

ويبدأ من مدينة البصرة في جنوب العراق، ثم تسير السفن في الخليج العربي إلى ميناء سيراف. وهي بلدة مندرسة كانت تقع جنوبي شيراز على الساحل الإيراني بإزاء البحرين. وكانت تعد من الموانىء التجارية الإسلامية الهامة، إذ اشتهرت بتجارة اللؤلؤ والبهار Spices، وكانت مرسى للسفن الكبيرة التي تنقل تجارة المسلمين إلى بلاد الهند والصين. ومن رواد المسلمين الأوائل الذين سلكوا ووصفوا هذا الطريق البحري نذكر التاجر سليمان في أوائل القرن الثالث الهجري (٩ م) الذي كان من أهالي سيراف وسافر منها عدة مرات إلى بلاد الهند والصين وجزائر البحار المجاورة، وله كتاب بعنوان «سلسلة التواريخ» كتبه سنة ٢٣٧ هـ (٨٥١ م) يصف فيه هذا الطريق الملاحي من سيراف إلى خانفوا (كانتون الحالية) أكبر موانىء الصين ومجمع التجار، ويقارن بين أحوال أهل الهند وأهل الصين، ويذكر قصصاً أسطورية طريفة صارت جزءاً من الأدب الشعبي العربي بعد ذلك. فمن المعروف أن القصص المشهورة باسم أسفار السندباد وغيرها من قصص ألف ليلة وليلة ما

---

(٢) راجع (حسين مؤنس: عالم الإسلام ص ٣٢٢)

هي إلا نتاج ذلك القصص الشعبي الذي ظهر في سيراف والبصرة، والذي يصور مغامرات هؤلاء التجار من أمثال سليمان التاجر ومن جاء بعده مثل ابن وهب (أو ابن هبار)، والمسعودي، وأبي زيد حسن السيرافي البصري الذي كتب تكملة لرحلة سليمان التاجر بعنوان «ذيل على كتاب سلسلة التواريخ». وقد طبعت رحلة سليمان التاجر وذيلها، على يد مستشرقين فرنسيين في باريس سنة ١٨١١ م أمثال رينو وفرّان ثم سوفاجيه من بعدهما.

وكانت الرحلة من مدينة البصرة إلى ميناء كانتون بالصين تستغرق ستة أشهر تقريباً وتحمل معها إلى الشرق الأقصى المنسوجات والسجاجيد والمصنوعات المعدنية وخام الحديد وسبائك الذهب والفضة والعاج والكهرب والكافور. ثم تعود محملة ببضائع الصين كالحرير والغضائر الخزفية، والدار صيني (القرفة) Cinnamon، والمسك والعود. ومن الهند خشب الساج والخيزران والقرنفل والصندل والنارجيل والعطور والثياب المخملية، ومن جزيرة سرنديب (سيلان) الياقوت والماس والدر.. الخ[٣].

٢ ـ الطريق البري إلى الهند والصين:

ويعرف بطريق الحرير العظيم أو طريق خراسان، لأنه يبدأ من بغداد ويمر شرقاً عبر خراسان من نيسابور إلى مرو ومنها إلى بخارى وسمرقند ويستمر شرقاً إلى بلاد الشاش (طشقند) وفرغانة من بلاد الترك إلى أن يصل إلى كاشغر عند حدود الصين، ومنها يدخل التجار إلى الصين وعلى الرغم من طول هذا الطريق ومشقته وخطورته، إلا أن كثيراً من تجار المسلمين سلكوه في حراسة الصغد في وسط آسيا وهم شعب إيراني الأصل ولهم مستعمرات ومراكز ممتدة من سمرقند إلى الصين[٤].

---

(٣) انظر (فاضلو حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة يعقوب بكر ص ٢٠٧، حسين المصري تجارة العراق في العصر العباسي ص ٢١٥ وما بعدها).

(٤) راجع (ابن خرداذبه. المسالك والممالك ص ١٧٨، الدوري تاريخ العراق الاقتصادي ص ١٥٣)

ومن هذا الطريق البري المشهور (طريق خراسان) كانت تتفرع شعب أخرى يتجه بعضها جنوباً إلى بلاد الهند والسند والمولتان، ويتجه البعض الآخر شمالاً إلى بلاد خوارزم والبلغار حيث أنواع الفرو والرقيق التركي والصقلبي. وقد وجدت نفوذ إسلامية كثيرة في هذه المناطق الشمالية في روسيا وحوض نهر الفلجا وحوض بحر البلطيق.

والجدير بالذكر أن الخليفة العباسي المقتدر بالله أوفد سنة ٣٠٩ هـ بعثة إسلامية برئاسة أحمد بن فضلان إلى ملك البلغار والصقالبة النازلين على ضفاف نهر الفلجا لتعليمهم قواعد الإسلام. وقد دون ابن فضلان وصف رحلته هذه في أقدم نص عربي عن روسيا في العصور الوسطى. وقد نشرها الدكتور سامي الدهان في مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٥٩ م.

هذا، وتنبغي الإشارة هنا إلى أن أقاليم ما وراء النهر (أي نهر جيحون) مثل خوارزم، والشاش (طشقند) وأشروسنة، وفرغانة، وسمرقند وبخارى، كانت تعتبر مراكز هامة لتجارة الرقيق التركي بعد إعداده وتربيته تربية إسلامية عسكرية ثم تصديره إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي. ولهذا صارت تجارة الرقيق وإعداده أعظم مهنة أو صناعة يعيش منها سكان هذه المناطق. وكانت مدينة ختان في أعالي نهر جيحون مركزاً لقوافل الرقيق من الترك الآتية من أواسط آسيا. بينما غدت ميناء باب الأبواب أو الدربند عاصمة أذربيجان على بحر قزوين، مركزاً هاماً لتجارة الرقيق الوارد من الأراضي الشمالية(*).

٣ - الطريق البحري بين بلاد الإسلام وأوروبا:

ويستغل هذا الطريق تجار اليهود الذين أطلق عليهم المسلمون اسم «تجار البحر». وكانوا يتكلمون عدة لغات من بينها العربية والفارسية والفرنسية والإسبانية. وتبدأ رحلاتهم من بروفانس في جنوب فرنسا، ويعبرون

(*) راجع (ابن حوقل: صورة الأرض ص ٣٤٠، ٤٧٠، ٤٨١) راجع كذلك كتابنا: (قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ص ١٦)

بسفنهم البحر الأبيض المتوسط إلى ميناء الفرما، ثم يحملون تجارتهم على ظهور الدواب إلى القلزم (السويس الحالية). ومن هناك تنقل عبر البحر الأحمر مارة بموانيه الهامة مثل جدّة، ـ يخرجون إلى بحر العرب متجهين إلى ميناء عدن، ثم يمضون إلى السند والهند والصين. وفي طريق العودة إلى أوروبا كانوا يحملون معهم سلع المشرق. فإذا وصلوا إلى القلزم، اتجهوا إلى الفرما أو إلى الفسطاط والإسكندرية ومنها يبحرون إلى بروفانس. وأحياناً كانوا يتجهون إلى انطاكية أهم ميناء تجاري في الشام، وكذلك إلى القسطنطينية عاصمة الروم ليبيعوا بضائعهم فيها[٦].

ولم تقتصر هذه السلع المشرقية على التوابل والعقاقير فقط، بل شملت كذلك العطور الزكية الرائحة مثل البخور، واللادن، والمصطكي، واللبان الجاوي، وخشب الصندل، والمسك، والعنبر. وكان المسك من أهم أنواع العطور وهو إنتاج حيواني يؤخذ من الحيوان المعروف باسم قط الزباد Moschferus، وهو نوع من الظباء يعيش في التبت والصين ويرعى الحشائش وله نابان معقوفان كأنياب الفيل. ويوجد المسك في غدة في بطن هذا الحيوان عند سرته، فإذا ما حكها في الحجر انفجرت وأفرغت ما بها، ويخرج التجار يجمعونه من رائحته العبقة النفاذة الزكية.

وكان المسك المتجه إلى فارس يمر بالخليج العربي ويفرغ حمولته في ميناء دارين بالقرب من البحرين، ولذا كان يعرف بالمسك الداريني Musk Darini[٧].

أما العنبر، فهو أيضاً من العطور الزكية النفاذة خصوصاً إذا ما احترقت مادته، وقد اختلفت الآراء حول مصدره، ويفهم من كلام عالم الأعشاب

---

(٦) ابن خرداذبه: نفس المصدر ص ١٥٤، حسين السري: نفس المرجع ص ٢٤٥.
(٧) راجع (نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ص ٢٢٧ وما بعدها).

الأندلسي ضياء الدين بن البيطار المالقي الإشبيلي (ت ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م) أن العنبر ينبت في قاع البحر فتأكله بعض الأسماك فيحدث لها عسر هضم وتتقيؤه رجيعاً عطر الرائحة. وأجود أنواعه الأشهب ثم الأزرق ثم الأصفر(٨).

وكانوا يعثرون على العنبر بين أمواج البحر وعلى الشواطىء ووسط الصخور والأعشاب وفي جوف الأسماك. ومعظم البلاد التي تنتجه وتتاجر فيه تقع في المحيط الهندي مثل إقليم سوهار على شاطىء بلاد العرب الجنوبي وجزر كوريا والملديف وسيلان. وإن كان هذا لم يمنع من وجوده في جوف أسماك البحار الغربية كالمحيط الأطلسي في شواطىء المغرب والأندلس(٩).

يروي المؤرخ والوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب في هذا الصدد، أن عاهل المغرب الحسن بن جنون الإدريسي كان لديه قطعة عنبر غريبة الشكل كبيرة الحجم ظفر بها في بعض سواحله من بلاد العدوة المغربية، فسوّاها منثورة كي يتوسد عليها، وكانت تسمى المسوّرة. فلما بلغ خبرها خليفة الأندلس الحكم المستنصر، سأله إياها، فرفض طلبه، فساءت العلاقات بينهما(١٠).

على أن العنبر كان يجهز تجارياً على شكل قطع صغيرة منتظمة، وكانت تصنع منه العقود والمسابح والأزرار والتماثيل. كما كان يعبأ في جفان خاصة كعطر ثمين. هذا إلى جانب استخدامه في الأغراض الطبية كمقو للقلب وغير ذلك.

٤ ـ الطريق البري بين بلاد الإسلام وأوروبا:

ويبتدىء من شرق ألمانيا إلى إيطاليا وفرنسا، ومنها إلى إسبانيا

(٨) ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية جـ ٣ ص ١٣٤.
(٩) نعيم زكي: المرجع السابق ص ٢٣٠.
(١٠) راجع (ابن الخطيب: كتاب أعمال الأعلام ـ القسم الخاص بالمغرب ـ ص٢٢٢، نشر أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني)

الإسلامية - أي الأندلس - عن طريق نهر الرون وبمر قطلونيه، ثم يستمر من الأندلس إلى طنجه عبر مضيق جبل طارق، يجتاز المغرب الكبير من أقصاه إلى أدناه حتى يصل إلى مصر، ثم يتجه إلى بلاد الشام ماراً بالرملة ودمشق ثم إلى العراق ماراً بالكوفة وبغداد والبصرة، ثم إلى فارس ماراً بالأهواز، ثم إلى كرمان والهند والصين[11]. ولا شك إن هذا الطريق كان يحمل إلى المشرق منتجات البلاد التي كان يمر من خلالها سواء في أوروبا أو الأندلس أو المغرب. ولقد أفاض الجغرافيون والرحالة وعلى رأسهم ابن حوقل في ذكر أهم هذه المنتجات التي تعد مصدراً هاماً للتجارة. ومن جملتها الملابس المطرزة المتعددة الأنواع التي كانت تعمل في الأندلس ثم تحمل إلى مصر وأقاصي خراسان وغيرها من البلاد. وكذلك الأصواف والأصباغ والحرير واللبود الفاخرة وهي من محاسن المفروشات والأغطية. هذا إلى جانب الأردية الكتانية التي كانت تصنع في بجانة Pechina بجوار المرية وتصدر إلى مصر ومكة واليمن، والورق السميك الأبيض من مدينة شاطبة Jatiba بشرق الأندلس، والتين الجاف الفاخر من مالقة Malaga ويصدر إلى الهند والصين، فضلاً عن الخزف المذهب الذي اشتهرت به مدينة مالقة أيضاً. كذلك اشتهرت مرسية Murcia بالكبريت الأحمر، وطليطلة Toledo بالأسلحة.

ولم تكن بلاد المغرب أقل مرتبة عن الأندلس من حيث النشاط التجاري، فقد اشتهرت هي الأخرى بتصدير الثياب والمنسوجات الكتانية الرفيعة والملابس الصوفية والبسط والسجاجيد والجلود والسروج والمرجان (الخرز) والقطران والحلفا والزيوت والتمور . الخ.

وأخيراً، هناك تجارة الرقيق الصقلبي الأوروبي التي اشتركت فيها كل بلاد الغرب الإسلامي والمسيحي. وقد أعطانا ابن حوقل صورة واضحة عن

---

(11) ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص 154، حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي جـ 3 ص 512.

هذه التجارة وعن علاقتها بأوروبا والأندلس والمغرب. وكلمة صقلب وصقالبة أطلقها الجغرافيون العرب على الشعوب السلافية، لأن الجرمان دأبوا على سبي تلك الشعوب وبيع رجالها ونسائها إلى عرب إسبانيا والمغرب، وإذا أطلق عليهم اسم صقالبة وهي تعريب للكلمة الأوروبية اسكلاف أو سلاف بمعنى عبد أو رقيق [صقلب = Esclavo] وهي الكلمة التي أطلقت على الشعوب السلافية. ثم توسع العرب في استعمال هذا الاسم فأطلقوه على أرقائهم الذين جلبوهم صغاراً من مختلف نواحي أوروبا بصفة عامة ومن شمال إسبانيا بصفة خاصة، ثم ربوهم تربية إسلامية عسكرية ووضعوهم في معسكرات خاصة بجوار قصر الخلافة بقرطبة، ومنعوهم من الاختلاط بالأهالي شأنهم في ذلك شأن المماليك الأتراك في الشرق الإسلامي.

وكان للتجار اليهود في ألمانيا وفرنسا دور كبير في هذه التجارة التي عادت عليهم بأرباح طائلة بدليل تلك الضرائب الكبيرة التي فرضتها كوبلنتز وفالنشتات بألمانيا على كل رأس من الرقيق المار بها.

كذلك استخدم الأمويون في الأندلس الخصيان من الصقالبة لخدمة الحريم. واتخذ اليهود من تلك التجارة حرفة يربحون منها، وصار لهم في مدينة فردان الفرنسية وفي مدينة بجانة الإسبانية مراكز هامة لعملية الخصاء. غير أن احتراف تلك الصنعة لم يقتصر على اليهود وحدهم، إذ لم يلبث أن شارك فيه تجار المسلمين أيضاً بدليل قول المقري: «... وقد تعلم الخصاء قوم من المسلمين هناك، فصاروا يخصون ويستحلون المثلة»[١٢].

ولقد استطاع عدد كبير من الصقالبة بوجه عام أن يحتل مكانة عالية في القصر والجيش وفي ميادين العلم والسياسة وفي المجتمع الأندلسي، وأن يلعب دوراً بارزاً في أحداث الأندلس السياسية والحضارية ولا سيما بعد

---

(١٢) راجع (احمد المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ٢ ص ١٤٠).

سقوط الخلافة الأموية بقرطبة سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م)[13].

ربما يقال عن صقالبة الأندلس، يقال أيضاً عن صقالبة المغرب الذين جُلبوا إليه أطفالاً من إيطاليا وسواحل دالماسيا. وكانت توجد في مدينة بلرم Palermo في شمال جزيرة صقلية العربية حارة الصقالبة وصفها ابن حوقل بأنها مدينة عامرة مما يرجح أنها كانت بمثابة مركز تجمع وإعداد للرقيق الصقلبي قبل إرساله إلى المغرب. ويذكر المؤرخون أن الأغالبة، والفاطميون، وبنو صالح في إمارة نكور[14] بجبال الريف، اعتمدوا على الصقالبة في جيوشهم وحرسهم. ويبدو أن القائد الفاطمي المشهور جوهر الصقلي، كان صقلبياً وليس صقلياً، لأن جزيرة صقلية في ذلك الوقت كانت في يد المسلمين ولا يخضع أهلها للرق أو للبيع والشراء. ولهذا يفترض بعض المؤرخين أن جوهراً جاء إلى المغرب عن طريق جزيرة صقلية (حيث حارة الصقالبة) فنسب إليها رغم كونه صقلبياً.

٥ ـ التجارة البرية الإفريقية السودانية:

كانت التجارة الأفريقية السودانية تنقسم إلى منطقتين شرقية وغربية، وكان الذهب بضاعة التصدير الرئيسية للمنطقتين معاً:

فالمنطقة الشرقية، هي بلاد البجة أو البيجا، وتمتد شرقي مدينة أسوان بين النيل والبحر الأحمر شرقاً، والأطراف الشمالية لهضبة الحبشة جنوباً.

---

(١٣) راجع كتابنا السالف الذكر عن الصقالبة في إسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية (مدريد ١٩٥٣).

(١٤) إمارة نكور Nukur إمارة عربية بشمال الريف المغربي أسسها صالح بن منصور أحد قواد عقبة بن نافع وظلت تجاهد في هذه المنطقة إلى أن زالت واندرست على عهد المرابطين في القرن الخامس الهجري ولم يبق منها سوى بقاياها المرمة على ساحل البحر المتوسط وهو الآن في يد الإسبان في شمال شرق المملكة المغربية ويطلقون عليه اسم Alhuceman وقد عرّب المسلمون هذا الاسم إلى الحسيمة راجع (ابن الخطيب. إعمال الأعلام ص ١٧٠ ـ ١٧٤ نشر أحمد مختار العبادي، محمد ابراهيم الكتاني).

وتسكنها قبائل البجة، وهي قبائل حامية الأصل، ولعلها قبائل البلميين القديمة. ولقد اشتهرت هذه المنطقة منذ عهد الفراعنة بوجود معدن الذهب في أرضها، فضلاً عن أحجار الزمرد التي وردت في بعض الكتب الجغرافية باسم الزبرجد. ولهذا عرفت هذه المنطقة باسم أرض المعدن، ووادي العلاقي[15].

ولما فتح العرب مصر سنة ٢٣ هـ، كانت مناجم العلاقي ما زالت عامرة بالذهب والزمرد، ولهذا اتجهت سياستهم وتجارتهم نحو بلاد النوبة وشمال السودان، فأرسلوا الحملات التأديبية ضد قبائل البجة التي كانت تقوم بأعمال السلب والنهب في جنوب مصر. وفي سنة ٣٤ هـ (٦٥٤ م) احتل المسلمون دنقلة وهي أهم مراكز تجارة الذهب في السودان. وعقدت معاهدة مع النوبة تعهد فيها النوبيون بفتح الحدود أمام كل المسلمين من التجار أو الباحثين عن الذهب. وازدادت هجرة القبائل العربية والتجار الذين هرعوا من كافة أرجاء العالم الإسلامي إلى بلاد المناجم، ونخص بالذكر منهم قبائل ربيعة وجهينة في القرن الثالث الهجري.

ولقد وصف ابن واضح اليعقوبي (ت ٢٨٢ هـ/٨٩٥ م) هذا النشاط الكبير في حقول الذهب بأعالي النيل، فقال عن وادي العلاقي إنه أشبه بمدينة كبيرة مزدحمة بالسكان من كل الأجناس من العرب وغيرهم، وكلهم من الباحثين عن الذهب.

واستمر الحال على هذا النحو في عهد الطولونيين ثم الفاطميين الذين استغلوا جماعات الأرقاء والأسرى في العمل على استخراج الذهب[16].

وقد جرت العادة أن يحمل هذا الذهب إما عن طريق النيل إلى القاهرة

---

(١٥) راجع (توماس أرنولد: تراث الإسلام، ترجمة جرجيس فتح الله، ص ١٥٧).
(١٦) راجع (موريس لمبار: الذهب الإسلامي منذ القرن السابع إلى القرن الحادي عشر الميلادي، ترجمة توفيق اسكندر ص ٦٤، نشرته الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ضمن دراسات أخرى تحت عنوان «بحوث في التاريخ الاقتصادي» القاهرة ١٩٦١).

شمالاً، أو عن طريق ثغري سواكن وعيذاب على البحر الأحمر شرقاً. وتجدر الإشارة هنا إلى أن طريق عيذاب كان أيضاً طريق الحجاج والتجار منذ القرن الخامس الهجري (١١ م) بسبب الحروب الصليبية وقرب الوجود الصليبي من سيناء وتخريبهم لمدينة الفرما سنة ١١٥٠ م، مما جعل التجار والحجاج يتجنبون طريق القلزم - أيلة، ويسلكون طريقاً آخر للوصول إلى الحجاز وهو طريق صعيد مصر إلى قوص، ومنها عبر الصحراء الشرقية إلى عيذاب، ومنها عبر البحر الأحمر إلى ثغر جدة المقابل لها. وهكذا صارت عيذاب محط التجار والحجاج، بينما اضمحل شأن مدينة القلزم (السويس) في الشمال منذ القرن الخامس الهجري (١١ م) وظل الحال على هذا النحو حتى بداية القرن الثامن الهجري (١٤ م) عندما زال الخطر الصليبي نهائياً من ساحل الشام في عهد الناصر محمد بن قلاوون. وقد أدى ذلك إلى عودة الحياة من جديد إلى خليج السويس، فصارت كل من السويس والطور مكان حط وإقلاع السفن عابرات البحر الأحمر والمحيط الهندي. وكان ذلك عن حساب نشاط طريق عيذاب في الجنوب. وقد واكب ذلك الكساد التجاري لعيذاب، نضوب مناجم وادي العلاقي من الذهب والزمرد في نفس هذا الوقت أيضاً من عهد الناصر محمد. وكانت النتيجة أن أخذت عيذاب تضمحل شيئاً فشيئاً حتى خربها السلطان الأشرف برسباي سنة ١٤٢١ م[١٧].

أما منطقة غرب أفريقيا، فقد نشطت تجارة المسلمين في الذهب مع مملكة غانة الوثنية الواقعة على نهر النيجر في السودان الغربي. فيروي صاحب كتاب روض القرطاس، أنه في خارج حدود هذه المملكة كانت تقع جبال الذهب في بلاد ونجارا التي كانت شعوب الماندنجو تستخرج الذهب منها وتستبدله بالملح والسلع الأخرى من غانة[١٨]. لهذا كان تجار المسلمين من

---

(١٧) راجع (أحمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم: البحرية الإسلامية في مصر والشام ص ٢٦٥) .

(١٨) ابن أبي زرع: روض القرطاس في أخبار ملوك فاس جـ ٢ ص ٣٥

المغاربة وغيرهم يقومون برحلة طويلة إلى هذه البلاد تستغرق عدة أشهر. فيمرون أولاً بمدينة سجلماسة ثم بمدينة أوداغشت التي كانت على مسيرة أربعة عشر يوماً إلى شمالي غانة.

وسجلماسة مدينة مندرسة في أقصى جنوب المغرب الأقصى بالقرب من مدينة الريساني في مقاطعة تافيلالت الحالية. ولعل الأطلال الموجودة هناك والتي يسميها العامة بالمدينة العامرة هي أطلال هذه المدينة التاريخية. وقد أفاض كل من ابن حوقل (ت ٣٦٧ هـ) والبكري (ت ٤٨٧ هـ) في وصفها. وتحدثا عن غنى أهلها الذين كانوا يخرجون بالملح والنحاس والودع إلى بلاد السودان الغربي ويرجعون بالذهب التبر إلى بلادهم. ويقال إن الحمالين كانوا يحملون الذهب والملح على رؤوسهم حتى أصبحت صلعاء لا أثر فيها للشعر!

ولقد جذبت سجلماسة - كما يقول صاحب الاستبصار - عدداً كبيراً من تجار اليهود لكونها مركزاً لتجارة التبر. وقد تعرض هؤلاء اليهود لكثير من المتاعب على عهد الفاطميين لأنهم هم الذين وشوا بالإمام عبد الله المهدي - عندما كان متخفياً متنكراً هناك في زي تاجر - لدى أمير سجلماسة أليسع بن مدرار. فشك في أمره وأمر بسجنه إلى أن أنقذه داعيته ومقيم دولته أبو عبد الله الشيعي بعد ذلك[19].

كذلك حرص أمراء وخلفاء بني أمية في قرطبة على توطيد علاقاتهم مع ملوك سجلماسة من بني مدرار رغم كونهم خوارج صفرية، وذلك لكي يستمر مرور ذهب السودان عبر المغرب إلى الأندلس وقد جنى الأمويون من وراء ذلك فوائد اقتصادية كبيرة.

هذا، ويشير الرحالة ابن حوقل إلى أن التجار العراقيين كانت لهم

---

(١٩) ابن خلدون: العبر ج ٦ ص ١٣١، السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ص ١٢٥

علاقات تجارية مربحة مع البربر سكان المغرب. وأن أهم ما يطلبونه منهم هو الذهب!. ثم يضيف أن التجار العراقيين كانوا أيضاً يتاجرون مباشرة مع زنوج وسط أفريقيا فيحملون إليهم ثياب البصرية البراقة ويستبدلونها بالذهب. ولا يخفي ابن حوقل دهشته عندما يقول بأنه رأى صكا (شيكا) يبلغ قدره اثنان وأربعون ألف دينار مسحوبة على تاجر بمدينة في جنوب المغرب! وهذا يدل على مدى الازدهار الذي بلغته تجارة الذهب في هذه المنطقة[٢٠].

هذا، ويفهم من كلام الجغرافيين والمؤرخين المسلمين أنه كان هناك طريق مستقيم يتجه شرقاً عبر الصحراء الكبرى والجريد وطرابلس ويربط السودان الغربي بمصر.

ومن ثمّ استفادت منه بعض الدول الإسلامية هناك مثل الدولة الفاطمية التي سيطرت على مصر والمغرب الشرقي. وبهذا تفرع مجرى الذهب السوداني إلى فرعين: الفرع الأول اتجه إلى خلافة قرطبة في الغرب، والفرع الثاني اتجه إلى خلافة القاهرة في الشرق.

ومنذ ذلك الحين - أي في القرن الرابع الهجري (١٠ م) - غزت السوق المصرية الدنانير المغربية التي أعجب بها في القرن التالي (الخامس الهجري) الرحالة الفارسي ناصري خسرو.

وفي تلك الأثناء - أي في القرن الخامس الهجري (١١ م) - استقلت أفريقية عن النفوذ الفاطمي فسلّط عليها الخليفة المستنصر بالله الفاطمي قبائل الأعراب من بني هلال وسُليم التي خربت بلاد المغرب الأدنى والأوسط انتقاماً من الدولة الزيرية الحاكمة لانفصالها عن مصر.

ولكن هذا العمل الانتقامي في الواقع لم يلبث أن عاد بالضرر على الدولة الفاطمية نفسها، إذا انقطعت عنها الطرق التي كانت تمونها بالذهب

---

(٢٠) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٦١؛ الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص ١٥٣

السوداني عن طريق الصحراء الغربية مما كان له أثره في ضعف هذه الدولة وجعلها عرضة للغزو الصليبي بعد ذلك.

ومن ناحية أخرى قامت في خلال هذا الوقت أيضاً - القرن الخامس الهجري - حركة إصلاحية، وانتفاضة دينية مالكية بين قبائل صنهاجة اللثام في صحراء موريطانيا في أقصى المغرب، تمخض عنها قيام دولة المرابطين الملثمين المجاهدين الذين استطاعوا توحيد المغرب والأندلس في الشمال، وقهر مملكة غانة في الجنوب، والاستيلاء على مراكز تجارة الذهب مثل سلجماسة وأوداغشت، فسيطروا بذلك وبدون منازع على جميع المسالك الغربية التي تربط بين بلاد المغرب والأندلس من جهة، وبين السودان الغربي من جهة أخرى. ولعل هذا هو السبب الذي جعل للدينار الذهبي المرابطي Marabotin تلك الشهرة العالمية، والسمعة الاقتصادية الممتازة، حتى غدت دول العالم الإسلامي والمسيحي تتنازع علية[21].

أما معدن الفضة، فكانت أهم مراكز استخراجه تقع في الأجزاء الشرقية من المملكة الإسلامية في بلاد هندكوش ومدينة بنجهير. ويقول ياقوت الحموي إن مدينة بنجهير تقع بنواحي بلخ وفيها جبل الفضة، وإن الدراهم بها واسعة كثيرة لا يكاد أحدهم يشتري شيئاً ولو جزرة بقل بأقل من درهم صحيح. والفضة بأعلى جبل مشرف على البلدة. والسوق والجبل كالغربال من كثرة الحفر. وإنما يتبعون عروقاً يجدونها تدلهم على الجوهر. كذلك وجدت معادن الفضة في أصفهان وأفغانستان حتى القرن الثالث الهجري ثم هجرت وتوقف العمل بها بسبب نضوبها[22].

---

(21) راجع (موريس لمباد: الذهب الإسلامي منذ القرن السابع إلى القرن الحادي عشر الميلادي ص ٦٣)؛ الحبيب الجنحاني: السياسة المالية للدولة المرابطية ص ٤١ (أعمال الملتقى الرابع الإسباني - التونسي - مدريد ١٩٨٣).

(22) ياقوت: معجم البلدان جـ ١ ص ٧٤٣ وكذلك (متز: الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣١٦ ترجمة عبد الهادي أبو ريدة)

ثالثاً: الزراعة والري والحاصلات

عرف العرب الزراعة من قديم، إذ احتوت شبه جزيرة العرب فيما احتوت عليه من صحارى شاسعة، بضعة أقاليم خصبة ذات مياه غزيرة، انتجت مختلف المحاصيل من أشجار وفواكه وخضر وزهور وورود. فاشتهرت اليمن «العربية السعيدة»، ببساتينها ومراعيها ومياهها المتدفقة، واشتهرت حضرموت بخورها، وكذلك اشتهر الخليج العربي بأراضيه الزراعية الممتدة على طول البحر وخاصة في منطقة الإحساء بواحتيها القطيف والهفوف. هذا إلى جانب بعض المناطق الحجازية الخصبة مثل الطائف ويثرب.

وجاء الإسلام، فأشادت آياته القرآنية الكريمة بأهمية الماء والأرض والزرع والتمر، مثل قوله تعالى: ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشاً، والسماء بناءً، وانزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ (سورة البقرة آية ٢٢) وقوله تعالى: ﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، والنخيل والزرع مختلفاً أكله، والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه، كلوا من ثمره إذا أثمر وأتوا حقه يوم حصاده، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ (سورة الأنعام آية ١٤١) كذلك اهتمت الأحاديث النبوية الشريفة بأهمية الأرض وإحيائها وزراعتها، فيؤثر عن الرسول (ﷺ) أنه شجع كل من يحيي أرضاً ميتة على تملكها، وذلك في قوله (ﷺ): «من أحيا أرضاً ميتة فهي له، فإن مات فهي لورثته، وله أن يبيعها إن شاء».

وهكذا أحدث الإسلام ثورة زراعية شملت مختلف أنحاء الجزيرة العربية[1].

ثم جاءت الفتوحات العربية الكبرى التي شملت أقاليم زراعية شاسعة في المشرق والمغرب، ومن ثم سلكت الحكومة الإسلامية لإدارتها سياسة مالية مستنيرة، إذ اهتمت بأمور الزراعة والري واستصلاح الأراضي ومساعدة الفلاحين، لأنها كانت تدرك تماماً مدى العلاقة بين الازدهار الزراعي وبين ازدياد الوارد من خراج الأرض الذي يعتبر أهم مورد لبيت المال. حقيقة كان للتجارة دور مهم في الحضارة الإسلامية والموارد المالية، ولكن الفلاح كان هو المنتج الأول، وكثيراً ما تحكم عمله في بقاء دول أو زوالها. وفي هذا المعنى يقول الفقيه أبو الحسن الماوردي في أحكامه السلطانية: «فأما المزارع فهي أصول المواد التي يقوم بها أود الملك، وتنتظم بها أحوال الرعايا، فصلاحها خصب وثراء، وفسادها جدب وخلاء». وعلى الرغم من قلة معلوماتنا عن الفلاحين كفئة اجتماعية لندرة المصادر التي تناولت مظاهر الحياة الريفية خارج المدن في العصور الإسلامية، إلا أن الأمر الذي لا شك فيه هو أن الزراعة لعبت دوراً حاسماً في حياة تلك العصور، إذ إنه لا يعقل أن يتم ازدهار الحضارة الإسلامية بدونها وهي التي أتت بالجزء الأكبر من ثروة الدولة (الخراج).

ولقد كان للخليفة عمر بن الخطاب سياسة رشيدة حاسمة تجاه الأراضي الزراعية الجديدة التي تم فتحها من أيدي الفرس مثل أراضي سواد العراق الخصبة التي طالب الجنود اعتبارها غنيمة حرب وتوزيعها عليهم كلها بعد إخراج الخمس للدولة، وأن تعتبر ملكاً لهم، ولكن عمر بن الخطاب أبى عليهم ذلك وقرر أن تبقى هذه الأرض بدون تقسيم، وأن يستمر أصحابها في زراعتها كما كانوا يفعلون في الماضي، على أن يدفعوا ضرائب الأرض

(1) راجع (عواد مجيد الأعظمي: تاريخ الري في سهول الرافدين (الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب، ديسمبر ١٩٨٣ بالكويت).

(الخراج) وضرائب الرأس (الجزية). التي صار بحصص دخلها للمصلحة العامة للمسلمين

ولم يكتف عمر بذلك بل أرسل بعد الفتح مباشرة وفوداً لمسح (أي قياس) هذه الأراضي الزراعية الجديدة لتنظيم ملكيتها وزراعتها من جهة، ولتقدير خراجها المفروض عليها من جهة أخرى. كما ألزم أهلها بمواصلة العناية بالقنوات والسدود والجسور، وتقديم المؤن مدة ثلاثة أيام للجنود الذين قد يمرون في البلاد، وهو ما يعرف بحق الضيافة[٢].

واستمرت سياسة الحكومات الإسلامية المتتابعة أيام الراشدين، والأمويين، والعباسيين، تعمل على تشجيع المسلمين على الزراعة بتوزيع الأراضي عليهم، مثل أراضي الصوافي وهي كل أرض متروكة أو ليست في يد أحد، ومثل الأراضي الخراب او الموات أو أراضي المستنقعات التي صارت ملكاً لمن يعمل على إحيائها وزراعتها.

كذلك اهتم ولاة الأقاليم بإصلاح طرق الري لتأمين مرافقها ومنابع ثروتها، فيؤثر عن عمرو بن العاص أنه استخدم آلاف العمال المصريين في إصلاح طرق الري في مصر صيفاً وشتاءً. وكذلك فعل ولاة العراق في حفر شبكة من الأنهار والقنوات فيما بين نهري دجلة والفرات بعضها قديم مجدد، والبعض الآخر جديد مستحدث، وأطلقوا عليها اسم النواظم لأنها نظمت توزيع المياه في سهول وادي الرافدين، ولا سيما الجزء الجنوبي منها المعروف بالسواد لخصوبة أرضه وكثرة أشجاره ونخيله. ويؤثر عن الحجاج بن يوسف الثقفي أنه حفر في هذه المنطقة الجنوبية بين الكوفة والبصرة أنهاراً عديدة مثل الصيني، والزابي، والنيل. ومن الطريف أن هذا النهر الأخير كان عرضه ثلاثين متراً ويأخذ مياهه من الفرات إلى دجلة في منطقة تقع في شمال بابل، وقد سماه بهذا الاسم تيمناً بنهر النيل في مصر[٣].

---

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦٢

(٣) راجع (عوّاد عبد الأعظمي المرجع السابق)

ومن أمثلة تلك الجهود المضنية التي كان يبذلها العمال المكلفون بتنفيذ مثل هذه المشروعات العمرانية، ما يرويه في هذا الصدد المؤرخ والوزير العباسي أبو شجاع محمد بن الحسن الملقب بظهير الدين الروزراوري (ت ٤٨٨ هـ/١٠٩٥ م) في قوله(١):

«وأما ما عمله عضد الدولة بن الحسن بن بويه (٣٣٨-٣٧٢ هـ/٩٤٩- ٩٨٢م) من الآثار الجميلة.... عمل السكور (أي السدود) وأنفق فيها الأموال، وأعد عليها الآلات، ووكل بها الرجال، وألزمهم حفظها بالليل والنهار، وراعى ذلك منهم أتم مراعاة في آونة المدود الجوارف وأزمنة الغيوث الهواطل، وأوقات الرياح العواصف. فقيل إنه لما سدّ المطهر بن عبد الله، سكر السهيلة (أي سد السهيلة وهو بالقرب من بلدة النهروان بين بغداد وواسط)، رتب عليه ابراهيم المعروف بالأغر، وأمره بالمقام عليه، ومواصلة تعليته إلى حين انقضاء المدود. قال ابراهيم الأغر: فأقمت على هذا السكر زماناً طويلاً والرجال معي، وشقيت شقاءً طويلاً. وكان لي منزل بجسر النهروان وبيني وبينه مدى قريب. فكنت لا أتجانبه على الإلمام به ولا على دخول الحمام اشفاقاً من أن يكتب صاحب الخبر بجسر النهروان بخبري. فلما مضت المدة الطويلة على هذه الجملة من حالي، عصفت ريح في بعض الليالي، وورد معها مطر شديد، فدخلت القبة المبنية على السكر أستتر بها من الريح والمطر، واجتهدنا في أن نشعل سراجاً، فلم يدعنا عصوف الريح، وضجرت وضاق صدري ونازعتني نفسي أن أقوم فأمضي في الظلمة إلى جسر النهروان وأبيت في منزلي، وأعاود بكرة موضعي. فبينما أنا في ذلك وقد حققت عزمي عليه، إذ سمعت كلاماً على باب القبة، فقلت لغلامي: أنظر ما هو؟ فخرج وعاد وقال: إنسان على جمل قد أناخ عندنا. ودخل الرجل وسلم فرددت عليه، وقلت للغلام: اشعل سراجاً. فقدح وأشعل

---

(١) راجع (أبو شجاع الروزراوري: ذيل كتاب تجارب الأمم لمسكويه جـ ٣ ص ٦٨ - ٧٠، نشر امدروز).

وجاء بالنار في نفاطة، فإذا الرجل من خواص عضد الدولة، عربي قد ورد من بغداد، فقلت له: ما تشاء؟ فقال: استدعاني الساعة الأستاذ شكر وقد خرج من حضرة الملك (عضد الدولة) فقال: أمر مولانا أن تمضي إلى سكر السهيلة وتدخل إلى القبة التي هناك، فإن وجدت ابراهيم الأغر هناك، فاعلمه أننا مجازيه على خدمته وطول ملازمته، وادفع إليه بهذا الكيس ففيه ألف درهم ليصرفه في نفقته. وإن لم تجده، وكان قد دخل داره بجسر النهروان، فاقصده واهجم عليه في منزله وحز رأسه واحمله!! وعاد الرجل من وقته وبقيت حيران وعزمت على نفسي ألا أدخل جسر النهروان».

مثالاً آخر نضربه في هذا الصدد بمسلمي إسبانيا الذين أبدعوا في هندسة الري، وما زالت آثارهم باقية حية إلى الآن. وأكبر مثال على ذلك محكمة المياه التي ما زالت تعقد في بلنسية Valencia شرق إسبانيا، لتقسيم المياه على الفلاحين كما كان يفعل أهل الأندلس قديماً. وهي محكمة أهلية لا دخل للحكومة فيها، وحكمها نافذ، ويحرم المخالف من المياه. وهذه المحكمة من التراث العربي الأندلسي، وما زالت تعقد كل يوم خميس عند الظهر في نفس المكان الذي كانت تجتمع فيه من قديم في الفضاء المجاور لمسجد هناك تحول الآن إلى الكنيسة الكبرى في المدينة. ونلاحظ في هذا الصدد أن أسماء بعض آلات الري دخلت في اللغة الإسبانية مثل الناعورة Noria والساقية Acequi.

وكانت نتيجة هذه الجهود الزراعية أن نمت الأراضي والثروة الزراعية على طول امتداد العالم الإسلامي من أواسط آسيا شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، بحيث لا يقع البصر فيها إلا على خضرة يتصل خضارها بلون السماء الأزرق. وقد أثارت هذه المناظر الخلابة كوامن الشاعر، واستوحى منها الشعراء تلك الروضيات الشعرية الرائعة في وصف الطبيعة مثل الشاعر أحمد ابن محمد الصنوبري الضبي(*) الذي كان ممن يحضر مجالس سيف الدولة

(*) نشر ديوانه وحققه إحسان عباس في مجلد سماه «ديوان الصنوبري» (بيروت ١٩٧٠)

الحمداني بحلب في القرن الرابع الهجري، وتغنى بجمال الطبيعة، فوصف البساتين الحلبية وزهورها في الربيع، وثلوجها في الشتاء. ومثل الشاعر الأندلسي ابن خفاجة الهواري[٦] (٤٥٠ - ٥٣٣ هـ) الذي عاش على عهد المرابطين، وتغنى بوصف الأزهار والأشجار والأنهار. وقد لقبه الناس بالجنّان لكثرة وصفه للرياض مثل قوله:

يا أهلَ أندلسٍ لله درّكُمُ ماءٌ وزرعٌ وأشجارٌ وأنهارُ
ما جنةُ الخُلدِ إلاّ في ديارِكُمُ ولو خُيِّرتُ هذي كنتُ اختارُ
لا تحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سَقَراً فليس تُدْخَلُ بعد الجنةِ النارُ

هذا، ومن المعروف أن هذه الأراضي الزراعية، كانت مقسمة إلى أنواع مختلفة ومتعددة من الملكية الزراعية: فهناك أراضي التمليك للأفراد، وأراضي الوقف للأغراض الدينية. وهناك الأراضي السلطانية التي تشمل ضياع الخلفاء والسلاطين، وهناك الاقطاعات المدنية التي كانت تمنح للوزراء والموظفين بدل الرواتب، فإذا ما عزلوا من مناصبهم أخذت منهم.

وهناك الاقطاعات الخاصة التي كانت تمنح إلى أفراد لهم خدمات خاصة كالشعراء والمحدثين والمغنين. وهناك الاقطاعات العسكرية التي كانت توزع على القادة والجند في مقابل الراتب الذي لا تستطيع الخزينة دفعه، ولهذا لم تكن هذه الاقطاعات ملكاً لصاحبها كما لم تكن وراثية[٧]. وقد ساد هذا الاقطاع العسكري في أنحاء العالم الإسلامي شرقاً وغرباً.

هذا، ويروي المؤرخون أن حاجب الأندلس المنصور بن أبي عامر، ألغى هذا النظام الاقطاعي العسكري من الأندلس في القرن الرابع الهجري (١٠ م)، واستبدله بجيش نظامي يتقاضى كل فرد فيه مرتباً شهرياً من الدولة حسب رتبته بدلاً من استغلاله للاقطاع الزراعي كما كان الحال سابقاً

---

(٦) نشر ديوان ابن خفاجة الدكتور السيد مصطفى غازي (الاسكندرية ١٩٦٠).

(٧) راجع (عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص ٣٧ - ٥٠).

ولقد أفاد هذا النظام الجديد في بادىء الأمر، إذ زالت العصبية القبلية بين فرق الجيش وأصبح الجيش كله وحدة نظامية متماسكة خاضعة لقيادته. واستطاع المنصور بذلك أن يفرض على الجيش نفوذه وسلطانه، وأن يحرز به انتصاراته الحربية المشهورة ضد الإسبان. ولكن بعد موت المنصور سنة ٣٩٢ هـ (١٠٠٢ م) وابنه المظفر بعده سنة ٣٩٩ هـ، دبّ الفساد في جسم الدولة، فلم تستطع الحكومة دفع رواتب الجند، فكثر شغبهم. وانتقل الفساد إليهم، فضعفوا وهزموا أمام العدو. وظل الحال على هذا النحو إلى أن جاء المرابطون في القرن الخامس الهجري (١١ م)، فرأوا أن خير وسيلة لإصلاح حالة الجيش هي إعادة النظام الإقطاعي العسكري من جديد. وفي ذلك يقول المؤرخ الأندلسي المعاصر أبو بكر الطرطوشي في كتابه سراج الملوك. «وسمعت بعض شيوخ الأندلس من الأجناد وغيرهم يقولون: وما زال أهل الإسلام ظاهرين على عدوهم، وأمر العدو في ضعف وانتقاص، لما كانت الأرض مقطعة في أيدي الأجناد، فكانوا يستغلونها، ويرفقون بالفلاحين ويربونهم كما يُربي التاجر تجارته. وكانت الأرض عامرة، والأموال وافرة، والأجناد متوافرين، والكراع والسلاح فوق ما يحتاج إليه، إلى أن كان الأمر في آخر أيام ابن أبي عامر، فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الأموال، وقدّم على الأرض جباة يجبونها فأكلوا الرعايا، واجتاحوا أموالهم، واستضعفوهم، فتهاربت الرعايا، وضعفوا عن العمارة، فقلّت الجبايات المرتفعة إلى السلطان، وضعفت الأجناد، وقوي العدو على بلاد المسلمين حتى أخذ الكثير منها. ولم يزل أمر المسلمين في نقص وأمر العدو في ظهور إلى أن دخلها المتلثمون (المرابطون) فردوا الاقطاعات كما كانت في الزمان القديم»[8].

وإذا انتقلنا إلى موضوع ضريبة الأرض الزراعية (الخراج) وقيمتها وموعد جبايتها، فنلاحظ أن المصادر الإسلامية، حفظت لنا العديد من قوائم الخراج التي كانت تمثل إيرادات الدولة العباسية، مثل قائمة الجهشياري

---

(٨) راجع (أبو بكر الطرطوشي كتاب سراج الملوك ص ١٢٩)

(ت ٣٣١ هـ) في كتابه الوزراء والكتاب، وهي تمثل الخراج في عصر هرون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ)[٩]، وقائمة ابن خلدون في مقدمة تاريخه، وهي منسوبة إلى عصر المأمون (١٨٩ ـ ٢١٨ هـ)[١٠]، وقائمة ابن خرداذبه في كتابه المسالك والممالك، وهي تمثل خراج الدولة العباسية في القرن الثالث الهجري. وقائمة قدامة بن جعفر (٣٣٧ هـ) في كتابه الخراج وصنعة الكتابة، وهي تمثل الخراج الكلي للدولة العباسية[١١].

كذلك حفظت لنا المصادر الأندلسية مقدار جباية الأندلس في عصورها المختلفة، فيروي كل من ابن عذاري وابن الكردبوس أن جباية الأندلس في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي بلغت خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانية آلاف دينار (٥,٤٠٨,٠٠٠)، وأنه قسمها على ثلاثة أثلاث: ثلث للجند، وثلث للبناء والشعراء والخطباء والقصاد، وثلث مدخر في بيت المال[١٢].

وكان خراج هذه الأراضي يقدر على أساس الوحدة القياسية التي تقاس بها مساحة القطائع الزراعية مثل الجريب (١٣٦٦ متر مربع)، والقفيز (١٣,٦ متر مربع) أي عُشر الجريب. ومثل الهكتار (عشرة آلاف متر مربع)، والفدان (٤٢٠٠ متر مربع). إلى جانب الوحدات الطولية مثل القصبة ٣,٨ متر طولي، والذراع البلدي ٥٧,٥ سم.. الخ. علماً بأن هذه المقاييس قد اختلفت الأراء حول تقدير مساحتها وأطوالها[١٣].

---

(٩) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٢١٨.

(١٠) ابن خلدون: المقدمة ص ١٧٩؛ محمد الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية جـ٢ ص ٢٧١.

(١١) نشر دي خويه De Goeje نبذاً من كتاب الخراج لقدامة بن جعفر مع كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه (ليدن ١٨٨٩) راجع كذلك (محمد ضياء الدين الريس: الخراج في الدولة الإسلامية ص ٤٢٢ ـ ٤٣٥).

(١٢) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب جـ٢ ص ٢٣١ ـ ٢٣٢؛ تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ص ٥٩ تحقيق أحمد مختار العبادي

(١٣) راجع (ضياء الدين الريس: الخراج في الدولة الإسلامية ص ٢٦٢ وما بعدها).

ولقد حرصت الحكومة الإسلامية من وقت لآخر على تحديد تاريخ مناسب لجباية الخراج السنوي يتفق مع تاريخ نضج المحاصيل وجمعها تخفيفاً عن الفلاحين. وكان الدافع لهذا الإجراء هو إصلاح العيوب الناجمة من فرق الحساب السنوي بين السنة الفارسية وبين السنة الشمسية من جهة، وكذلك الفرق بين السنة الهلالية (الهجرية) وبين السنة الشمسية من جهة أخرى.

١ ـ ففيما يتعلق بالفرق بين السنة الفارسية والسنة الشمسية، فهو يقدر بربع يوم في السنة. ولما كان ميعاد جباية الخراج يأتي مع رأس السنة الفارسية ـ وهو عيد النوروز ـ[٢٠]، فإن هذا الموعد كان يتقدم باستمرار، ويتطلب التوفيق (الكبس) إضافة يوم إلى السنة الفارسية كل أربع سنين، أو شهر كل ١١٦ سنة. وقد بذلت محاولات في هذا السبيل، أهمها محاولة الخليفة المتوكل سنة ٢٤٣ هـ التي أخرت موعد النوروز من ١١ نيسان إلى ١٧ حزيران من السنة السريانية، أي من إبريل إلى يونيه من السنة المسيحية. وقد قوبل هذا القرار بالترحاب لأنه أخر جمع الخراج من الناس حتى ينضج المحصول وتجنى الغلات. وقد مدح البحتري الخليفة المتوكل في هذه المناسبة بالقصيدة التي مطلعها:

لك المجدُ أولٌ وأخيرٌ ومساعٍ صغيرهن كبيرُ

غير أن المتوكل قتل بعد ذلك سنة ٢٤٧ هـ، وأرجع ميعاد النوروز إلى ما كان من قبل. فلما جاء الخليفة المعتضد، بحث هذا الأمر من جديد

(١٤) يقال نوروز أو نيروز، والأول أصح، ومعناها اليوم الجديد أي بداية السنة عند الفرس. وجرت العادة أن يحتفل الفرس بعيد الحصاد في أول أيام سنتهم وهو يوم النوروز. وجرت العادة كذلك أن يجمع الخراج في يوم النوروز في شهر يونيه في بداية الصيف، وإن كانت بعض المناطق الفارسية احتفلت به في شهر مارس أي في بداية الربيع. أما في مصر فقد كان الاحتفال بالنوروز في أول يوم من توت وهو بداية السنة القبطية (١١ سبتمبر) ففي هذا اليوم يبلغ فيضان النيل ذروته ولهذا اتخذوه مبدأ لسنتهم. وراجع (طه ندا: الأعياد الفارسية في العالم الإسلامي، مجلة كلية الآداب سنة ١٩٦٣).

واستصوبه، وعمل على تنفيذه بعد إجراء بعض التعديلات سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م)، وعرف بالنوروز المعتضدي، وجرى العمل به في جميع الشؤون المالية والزراعية بالدواوين المختلفة، وتلقاه الناس بالسرور والابتهاج.

ولكن على الرغم من ذلك، فإن هذا النوروز المعتضدي، مع مرور الزمن، لم يسلم هو الآخر من العيوب. ولما وُلي السلطان جلال الدين أبو الفتح ملكشاه السلجوقي، جمع لجنة من علماء المنجمين أي الفلكيين في سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٤ م) لإصلاح عيوب هذا الحساب السنوي الفارسي.

وكان مَ بين هذه اللجنة الشاعر الفلكي المشهور عمر الخيام صاحب الرباعيات. واستقر رأي اللجنة على تعيين رأس السنة (النوروز) في أول نقطة من دخول الشمس برج الحمل، بعد أن كان يقع عند توسط الشمس برج الحوت.. ولا يزال إلى اليوم في نفس الموعد عند الإيرانيين. ويسمى هذا التقويم بالتقويم الجلالي أو السلطاني نسبة إلى السلطان جلال الدين ملكشاه، وقد أشاد العلماء الأوربيون بدقته وقالوا إنها تفوق التقويم الميلادي الجريجوري الذي نستعمله الآن[١٥].

٢ ـ أما ما يتعلق بالفرق بين السنة الهلالية والسنة الشمسية، فيقول د. عبد العزيز الدوري إنه يبلغ حوالي أحد عشر يوماً وربع يوم، فإذا مرت ثلاث وثلاثون سنة كان الفرق بين التقويمين سنة هلالية كاملة، ووجب حذف سنة هلالية لئلا يؤخذ الخراج مرتين. وقد حصل هذا الكبس في خلافة المتوكل إذ كانت سنة ٢٤١ هـ هي الثالثة والثلاثون، ولذا قرر المتوكل أخذ خراج واحد عن السنتين ٢٤١، ٢٤٢ هـ بنقل الأولى إلى الثانية، وصدر الأمر بذلك في محرم سنة ٢٤٣ هـ. كذلك قام الخليفة المعتضد بنقل سنة ٢٧٨ هـ إلى سنة ٢٧٩ هـ أي الغاء السنة الأولى واعتبار الخراج عن السنة

(١٥) راجع (ابن الأثير: الكامل جـ ١٠ ص ٩٨) وكذلك (د. طه ندا: المرجع السابق).

الثانية تخفيفا عن الزراع، وهذا عائد إلى الفرق بين نسبتي الشعبية والهلالية[١٦]

أما الحاصلات الزراعية في العالم الإسلامي فكثيرة ومتنوعة، وأهمها القمح والشعير والذرة والأرز وكانت الحنطة أو القمح أهمها لأن معظم السكان تقريباً يأكلون الخبز. ولهذا كان القمح يزرع في كل مكان في السهول وا لجبال، ولا سيما في البلاد التي يتوفر فيها الماء كالعراق ومصر والأندلس وما يقال عن القمح يقال عن الشعير أيضاً. أما الذرة فكانت تزرع في الأماكن الجافة مثل جنوب جزيرة العرب والنوبة وكرمان، لأن الذرة تصلح زراعتها بالماء القليل مثل السمسم. أما الأرز فيأتي في المرتبة التالية ويزرع في الأماكن الرطبة الحارة الغزيرة الأمطار مثل بلاد آسيا الشرقية. وقد ادخلت زراعة الأرز في البلاد العربية ولا سيما في جنوب العراق في منطقة البطيحة والأراضي الواطئة على قنوات الفرات السفلى. كذلك ادخلت زراعة الأرز في شرق الأندلس في منطقة بلنسية التي تعتبر إلى اليوم المستودع الرئيسي للأرز في إسبانيا. وتشتهر بطهي صنف من الطعام يقوم على الأرز يسمى بائيا Paella. كذلك يلاحظ أن كلمة الأرز العربية انتقلت إلى اللغة الإسبانية بنفس الشكل والمعنى Arroz.

وكانت زراعة الخضراوات منتشرة في مختلف الجهات، ويروي المقدسي أن نبات القلقاس وهو يشبه البطاطس، كان يزرع بفلسطين ومصر، وأنه كان من مأكولات فصل الشتاء كذلك نلاحظ أن كثيراً من أسماء الخضراوات بالأندلس دخلت في اللغة الإسبانية مثل الباذنجان Berenjenas، الخرشوف Alcarchofa، السلق Acelga، الزيتون Aceituna، الزعفران Azafràn الخ

أما الفواكه، فكانت أنواعها كثيرة وأصنافها عديدة وكان العنب

---

(١٦) راجع (عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص ٥٩)

أكثر ما يزرع منها ولا سيما في العراق واليمن والطائف والأندلس. أما شجر الزيتون وزيته، فيكثر في الشام وتونس والأندلس. وكثيراً ما كان العنب والزيتون يزرعان في مكان واحد، وأحياناً يضاف التين إليهما. وقد اشتهرت الأندلس بزراعة هذه الأنواع الثلاثة شهرة كبيرة ما زالت تتمتع بها إسبانيا إلى اليوم.

هذا، وقد أدخلت زراعة الرمان في الأندلس في عهد عبد الرحمن الأول (الداخل) على يد رسوله الأردني الأصل سفر بن عبيد الكلاعي الذي ينسب إليه نوع من الرمان يسمى باسمه إلى اليوم، الرمان السُفري Azifri. كذلك أدخلت زراعة النارنج (البرتقال) في الأندلس ومنها انتقل اسمه إلى الإسبانية Naranja. أما اسم البرتقال، فيبدو أنه جاء عن طريق اسم البرتغال (أو البرتقال)(١٧)، البلد المجاور لإسبانيا، والذي اشتهر أهله بالتجارة مع المشرق بعد اكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح. ومن الطريف أن فاكهة البرتقال في بلاد المغرب يطلق عليها اسم لتشين، ولعلها جاءت من كلمة الصين China التي كانت هي أو الهند المصدر الأول لزراعته.

وكان أحسن التفاح يزرع في جبال الشام ولبنان شرقاً، وفي جبال شلير أو جبال الثلج (سييرا نيفادا) Sierra Nevada في جنوب شرق إسبانيا. أما البطيخ فقد اشتهرت زراعته في بلاد فارس والسند. وقد اختلفت الشعوب العربية في تسميته فهو عند المصريين بطيخ، وعند العراقيين رقّي أو رجّي، وعند الشاميين جبس، وعند الحجازيين حبحب، وعند المغاربة دلّاح أو دلاع، وعند الأندلسيين البطيخ السندي. ومن الطريف أن هذه التسمية الأندلسية انتقلت إلى اللغة الإسبانية باسم سانديا Sandia أي السندية نسبة إلى السند موطنه الأصلي.

---

(١٧) يبدو أن أصل اسم بلد البرتغال مركب من كلمتين: بورتو قالة. الكلمة الأولى بورتو Oporto اسم قاعدة البرتغال على ساحل المحيط، والثانية قالة Cala بمعنى خليج أو ميناء. ومن هنا جاءت تسميتها بالبرتقال.

ما رزاعه النخيل، فكانت تكثر في سواد العراق ولا سيما في منطقه البصرة التي كانت تنتج أنواعاً كثيرة من التمور الجيدة كذلك اشتهرت بعض بلدان المغرب العربي الكبير بإنتاج التمر مثل قسطيلة وقابس. ولكن اشهرها كانت سجلماسة، وهي مدينة ومقاطعة في أقصى جنوب المغرب الأقصى، اشتهرت بأعنابها ونخيلها وتمورها الجيدة. ويضيف البكري، أن أرض سجلماسة كانت تزرع عاماً وتحصد من تلك الزريعة ثلاثة أعوام، لأنه بلد شديد الحرارة، فإذا يبس زرعهم تناثر عند الحصاد، وأرضهم متشققة، فيقع ما تناثر منه في تلك الشقوق، فإذا كان العام الثاني، حرث بلا بذر، وكذلك في العام الثالث[١٨] ومع مرور الزمن اندرست سجلماسة وحلت محلها مدينة الريساني في مقاطعة تافيلالت الحالية التي ما زالت غنية بنخيلها وتمورها.

كذلك اهتم المسلمون في المشرق والمغرب بتنسيق الحدائق وزراعة الأزهار والرياحين مثل النرجس والياسمين والقرنفل والبنفسج والورد الجوري (نسبة إلى إقليم جور في فارس).

وقد اشتهرت الأندلس برياضها وبساتينها وجنانها التي كانت متاحة للأغنياء والفقراء على السواء. ومن أمثلة الأسماء المشهورة التي ورد ذكرها في هذا المضمار نذكر جبل الورد بالقرب من قرطبة، ومُنْيَة الرّصافة التي بناها عبد الرحمن الداخل على سفح جبل قرطبة في شمالها الغربي محاكياً رصافة جده هشام بن عبد الملك في بادية الشام.

ولم يلبث أمراء بني أمية أن أخذوا يقلدون أميرهم ببناء المُنيات أي القصور الملكية ذات الحدائق الغناء على ضفاف الوادي الكبير. كما بنى ابنه عبد الله في مدينة بلنسية قصراً من هذا النوع أطلق عليه نفس الاسم

---

(١٨) راجع (البكري: كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ١٥١ نشر دي سْلان (الجزائر ١٩١١).

الرصافة. ولا يزال مكانه يسمى إلى الآن La Ruzafa كذلك نذكر منية نصر التي بناها الأمير عبد الله الأموي على ضفاف الوادي الكبير قرب قرطبة وكلها حدائق وأشجار. ومنية الزهراء التي بناها حفيده عبد الرحمن الناصر في شمال غرب قرطبة على سفح جبل العروس تتخللها بساتين وروضات. ومنية الزاهرة التي بناها المنصور بن أبي عامر في شمال شرق قرطبة. وقد اشتهرت ضواحي بلنسية بأزهارها وورودها التي كانت تعطر جوها بأريجها حتى عرفت باسم «مطيّب الأندلس» أي عطرها. ولا يفوتنا أن نشير إلى «جنة العريف» Generalife وهو اسم الحديقة الشهيرة التابعة لقصر الحمراء La Alhambra مقر ملوك بني نصر أو بني الأحمر ملوك مملكة غرناطة آخر دولة إسلامية، بالأندلس. وقد حافظ الاسبان على هذا القصر بحدائقه الجميلة التي لا تسمع فيها إلا خرير المياه في كل مكان. وقد عبر عن ذلك الشاعر الإسباني جارثيا لوركا G. Lorca بقوله: غرناطة التي تبكي !Granada que llora!، كما شبهها العالم الإسباني جارثيا جومز بالشمالة الأخيرة أو العصرة الأخيرة لـ (الليمونة) فهي حلوة ومرة في آن واحد!.

وأخيراً بقي أن ننوه بالجهود المثمرة التي بذلها علماء المسلمين في تقدم العلوم الزراعية، فقد صنفوا فيها كتباً علمية، وأجروا عليها تجارب تطبيقية أفادت العالم. ومن هؤلاء نذكر:

أولاً: علماء اللغة وأصحاب المعاجم العربية الذين اعتبروا أسماء النباتات والأشجار جزءاً من اللغة العربية، فدونوها في معاجمهم، وكتبوا فيها المؤلفات العديدة، ابتداءً من عالم البصرة الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي (ت ١٧٥ هـ) في معجمه «كتاب العين»(١٩)، الذي أورد فيه فيه جملة من أسماء النبات والشجر. وابن الأعرابي الكوفي (ت ٢٣١ هـ) في تصانيفه

---

(١٩) راجع (الخليل بن أحمد: كتاب العين، تحقيق د. ابراهيم السامرائي، د. مهدي المخزومي، وزارة الثقافة العراقية).

العديدة عن النحل والنبت والنقل وصفة الزرع. واللغوي المشهور عبد الملك الأصمعي (ت ٢١٦ هـ) في مؤلفاته العديدة مثل كتاب النخل والكرم، وكتاب النبات والشجر[٢٠] وابن خالويه اللغوي الذي اختص بسيف الدولة الحمداني في حلب، وله كتاب في أسماء وأنواع الشجر[٢١]

والعالم اللغوي الضرير أبي الحسن بن سيده (ت ٤٥٨ هـ) في كتابه الكبير «المخصص» الذي يقع في ١٧ جزء مرتب على الأبواب، خصص منها أبواباً كاملة عن الأرض والحرث والزرع والنبات

والعالم المصري محمد بن منظور (ت ٧١١ هـ) في معجمه «لسان العرب»، الذي جمع فيه مادة غزيرة عن أسماء النباتات وما صنف فيها من كتب[٢٢]. كذلك نشير إلى معجم اسماء نبات الأندلس وجغرافيته الذي كتبه نباتي أندلسي مجهول الاسم فيما بين القرنين الخامس والسادس الهجريين. وبعض أسماء هذا المعجم اختلطت بألفاظ رومانسية (الاسبانية القديمة) بحكم البيئة المحلية. وقد نشره المستشرق أسين بلاثيوس بعنوان «معجم لأصوات رومانسية كتبها نباتي أندلسي مجهول الاسم»[٢٣]

ثانياً: وهناك الكتب التي تبحث في النباتات الطبية وما يستخرج منها من أدوية وعقاقير وفوائدها الصحية. ولقد اهتم الأطباء بتأليف هذا النوع من

---

(٢٠) نشر المستشرق هافنر Haffner عدة رسائل للأصمعي منها كتاب النبات والشجر (بيروت ١٨٩٨) وكتاب النخل والكرم (بيروت ١٩٠٢).

(٢١) نشر صموئيل ناجبرج Samuel Nageiberg هذا الكتاب لابن خالويه في ألمانيا ١٩٠٩.

(٢٢) أعاد يوسف خياط طبع لسان العرب على حسب الحرف الأول من الكلمة في أربعة مجلدات. راجع كذلك (د. علي الباسل تطور الزراعة عند العرب الندوة العلمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب - الكويت ١٩٨٣).

(٢٣) راجع
(Asin Palcios Glosario de voces romances registradas por un botanico anonimo hispano musulman de los siglos XI XII) وكذلك بالنثيا تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٦٩

الكتب الطبية التي تقوم أساساً على النباتات والأعشاب وخلاصتها من وجهة النظر العلاجية وليس من الناحية الفلاحية. ولهذا كان الأطباء في العصر الوسيط يعرفون باسم النباتيين والعشابين.

ولقد كان مذهب أطباء المسلمين في العلاج يقوم في أغلب الأحوال على التداوي أولاً بالأغذية أو ما كان قريباً منها، فإذا دعت الضرورة استخدموا الأدوية المفردة، ثم إذا اقتضى الأمر استعملوا الأدوية المركبة مع عدم الإكثار في التركيب ما أمكن.

وأهم كتاب قديم اعتمد عليه علماء المسلمين في علم الأدوية هو الكتاب اليوناني المشهور باسم «الأدوية المفردة» أو «كتاب الحشائش»، الذي ألفه ديوسقوريدس Dioscorides، وهو طبيب وعشاب يوناني عاش في القرن الأول الميلادي، وولد في بلدة عين زربة قرب طرسوس جنوب آسيا الصغرى، ولهذا يسمى ديوسقوريدس العين زربي Dioscorides Anzarbio.

وهذا الكتاب ترجم إلى العربية في بغداد في عهد الخليفة العباسي المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ)، غير أن المترجم له واسمه Esteban اصطفن بن باسيل لم يترجم إلى العربية سوى جزء من أسماء الأدوية لعدم معرفته بما يقابل اليونانية فيها. ولهذا ظلت أسماء باقي النباتات على صورتها اليونانية بحروف عربية.

وهنا يأتي دور الأندلس في سد هذا النقص، فيروي المؤرخون أن الخليفة الأموي الأندلسي عبد الرحمن الناصر لدين الله، عندما تسلم نسخة أصلية من هذا الكتاب سنة ٣٣٧ هـ هدية من الأمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع، شكل لجنة لترجمته إلى العربية مكونة من طبيبه اليهودي حسداي بن شبروط، وحمد النباتي، وعبد الرحمن بن الهيثم، وأبي عبد الله الصقلي الذي كان يجيد اليونانية، ثم الراهب نيقولا اليوناني الذي أرسله الأمبراطور البيزنطي للمساهمة في إنجاز هذا العمل العلمي الكبير.

ولقد أثار ظهور هذه الترجمة الكاملة لكتب ديوسقوريدس[٢٤]، موجة من الحماس بين أطباء المسلمين الذين أقبلوا على دراسة النباتات الطبية متخذين من هذا الكتاب مصدراً رئيسياً لهم، ثم ما لبثوا أن أضافوا إليه إضافات علمية جديدة في مجال الطب والصيدلة طوال القرون التالية. ومن بين العلماء السابقين واللاحقين الذين برزوا في هذا الميدان نذكر: حنين بن إسحاق (ت ٢٦٠ هـ) الذي ألف في أيام الخليفة المعتمد العباسي كتباً كثيرة في النباتات الطبية، كما ترجم كتاب النبات لأرسطو، وكتاب الأدوية المفردة لجالينوس. وهناك أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (ت ٣٢٠ هـ) الذي ألف كتاب «الحاوي في الطب» وهو يبحث في النباتات الطبية وخواصها. ولأهمية هذا الكتاب فقد طبع في البندقية منذ سنة ١٥٠٩ م. ونذكر أيضاً الطبيب الفيلسوف ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) صاحب كتاب «القانون في الطب» الذي شرح فيه الأدوية المفردة مع بيان مفصل عن النباتات التي تتخذ منها هذه الأدوية إلى جانب بعض الحيوانات والمعادن التي تستخلص منها بعض العقاقير النافعة. وقد طبع هذا الكتاب في روما منذ وقت مبكر سنة ١٥٩٢ م[٢٥].

ومن علماء الأندلس الذين برزوا في علم الأدوية نذكر: عبد الرحمن بن الهيثم الذي شارك - كما ذكرنا آنفاً - في ترجمة ديوسقوريدس، وكتب عدة كتب عن الأدوية المفردة، كما صار طبيباً للحاجب المنصور بن أبي عامر (ت ٣٩٢ هـ). كذلك نذكر العالم النباتي سليمان بن حسان بن جلجل الذي كان طبيباً لخليفة الأندلس هشام المؤيد وله شروح مفيدة على كتاب ديوسقوريدس. وبالمثل يقال عن الطبيب أبي المطرف عبد الرحمن بن وافد اللخمي (ت ٤٦٦ هـ) الذي كان وزيراً وطبيباً للمأمون بن ذي النون صاحب طليطلة. وقد اطلع على كتب ديوسقوريدس وجالينوس وكتب مؤلفاً

---

(٢٤) توجد من ترجمة كتاب ديوسقوريدس نسخ خطية في مكتبات أيا صوفيا والموصل ودار الكتب المصرية.

(٢٥) راجع (عادل أبو النصر: تاريخ الزراعة القديمة ص ٣٠٢ وما بعدها)

ضخماً عن الأدوية المفردة استغرق في تأليفه عشرين سنة وضمنه خلاصة تجاربه[26]. كذلك نذكر كلا من العالمين الجغرافيين: أبي عبيد البكري الأندلسي (ت ٤٨٧ هـ) الذي كتب كتاباً عن «أعيان النبات والشجريات الأندلسية»، استفاد منه ابن البيطار في كتبه. وهو في حكم المفقود الآن. ثم الشريف الإدريسي (ت ٥٦١ هـ) صاحب الموسوعة الجغرافية «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، والذي كتب أيضا كتاب «الجامع لصفات النبات وضروب أنواع المفردات من الأشجار والأثمار والأصول والأزهار» (مخطوط رقم ٣٦١٠ بخزانة فاتح باستانبول) وقد قام بدراسته المستشرق الألماني ماكس مايرهوف سنة ١٩٣٠. ولقد عاصر الإدريسي الطبيب القرطبي أحمد ابن محمد الغافقي (ت ٥٦٠ هـ) الذي طوف بأنحاء بلاد الأندلس والمغرب، وجمع منها نباتات عديدة، درس خواصها الطبية في كتابه «جامع الأدوية المفردة». ويبدو أن أصل هذا الكتاب مفقود، ولكن بقي مختصر له عمله أبو الفرج بن العبري (ت ٦٨٤ هـ) ونشره مع ترجمة انجليزية المستشرق ماكس مايرهوف والدكتور جورج صبحي في القاهرة سنة ١٩٣٢[27]. وقد أوضح الغافقي منهجه العلمي بقوله «واستوعبت فيه ذكر جميع الأدوية التي ذكرها ديوسقوريدس وجالينوس، وألحقت بقوليهما قول من جاء بعدهما مصيباً. ونبهت على مواضع التصحيف في الأسماء. ولم أستثن قول من لم يجرب ما ذكره، وألحقت بذلك أيضاً بعض الحشائش التي يستعملها أهل بلدنا ولم يذكرها أحد مما تقدمنا»[28].

وجاء بعد الغافقي عالم من أعظم علماء عصره وهو ضياء الدين بن البيطار المالقي الإشبيلي (ت ٦٤٦ هـ) صاحب كتاب «الجامع لمفردات الأغذية

---

(٢٦) تراث الإسلام، القسم الثالث ص ١٣٢ (عن معجم ... ١٩١٩).

(٢٧) بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٦٨ - ٤٧٨.

(٢٨) راجع (عادل أبو النصر: مرجع السابق ص ٣٢٩).

والأدوية»[٢٩]. ويعلل ابن البيطار سبب تسمية كتابه «بالجامع»، لكونه جمع بين الدواء والغذاء. كذلك ينص في مقدمة كتابه على مصادره التي نقل منها وعلى رأسها كتب ديوسقوريدس وجالينوس ثم الغافقي والإدريسي والبكري وغيرهم ممن سبقوه.

وقد سافر ابن البيطار إلى بلاد الإغريق والروم وبلاد الشرق واستفاد من حكماء عصره المشهورين. واستقر به المقام في مصر حيث شغل منصباً قيادياً أشرف فيه على الحكماء وسائر العشابين هناك ثم اختص به الملك الكامل الأيوبي وصحبه معه إلى دمشق حيث صار مقدماً في خدمته. وهناك التقى به تلميذه الدمشقي أبو العباس أحمد ابن أبي أصيبعة في سنة ٦٣٣ هـ الذي اشتغل معه في جمع ودرس النباتات في الشام، ومدحه بقوله: «كنت أجد من غزارة علمه ودرايته شيئاً كثيراً». ومات ابن البيطار في دمشق سنة ٦٤٦ هـ، ومات بعده بنحو عشرين سنة تلميذه ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨ هـ) بعدما ألف بدوره كتاباً جامعاً بعنوان «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»[٣٠].

ثالثاً: على أن جهود علماء المسلمين لم تقتصر على ما قيدوه من أسماء النبات، وما ذكروه من صفاته وخواصه، وما استخلصوه منه من أدوية وعقاقير، بل اشتغلوا كذلك بالنبات من حيث زرعه ونموه وتسميده وحصاده، والأوقات المناسبة في ذلك كله وهو يسمى بالفلاحة[٣١].

---

(٢٩) ابن البيطار: كتاب الجامع لمفردات الأغذية والأدوية، طبع في بولاق في أربعة مجلدات سنة ١٨٧٤، وترجمه إلى الفرنسية لكليرك بعنوان:

L. Leclerc: Traité des Simples d'Ibn El - beithar

(٣٠) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء (القاهرة ١٨٨٢)؛ كذلك نشره حديثاً نزار رضا بمكتبة الحياة بيروت.

(٣١) راجع (د. محمد عيسى صالحية: ملاحظات على مخطوطات الفلاحة التطبيقية المحفوظة في المكتبات العربية والأجنبية، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مجلد ٥٩ جـ٣ - مطبعة خالد ابن الوليد سنة ١٩٨٤)

لهذا عكفوا على دراسة تراث الأمم المجاورة في هذا الميدان كالنبط والروم والفرس، ونقل كتبهم إلى اللغة العربية، بالإضافة إلى ما توصلوا إليه هم أنفسهم من حقائق علمية جديدة نتيجة لتجاربهم الخاصة وخبراتهم الشخصية. ومن هؤلاء العلماء على سبيل المثال:

ـ أبو بكر أحمد بن وحشية الكلداني أو النبطي، الذي عاش في أواخر القرن الثاني للهجرة (٨٠٠م)، وكتب كتاباً مشهوراً بعنوان «الفلاحة النبطية»، شرح فيه بعض الطرق الزراعية القديمة البابلية والآشورية واليونانية، وكذلك النظريات الزراعية التي كانت سائدة في البلاد العربية القديمة مثل مملكة النبط التي كانت تعرف باسم البتراء أو العربية الحجرية Arabia Petraea، والتي امتدت في أوج عظمتها من جنوب الأردن إلى دمشق والأجزاء الجنوبية والشرقية من فلسطين وحوران ومدين إلى سواحل البحر الأحمر.

وهذا الكتاب لم يطبع حتى الآن، ولكن توجد منه نسخ عديدة في خزانات الكتب المختلفة، مع ملاحظة أن رواية أخباره ترجع إلى سنة ٢٩١هـ (٩٠٣م). وما زال الجدال قائماً حول نشأة هذا الكتاب ونسبة تأليفه دون الوصول إلى نتيجة قاطعة[٣٢]. وكيفما كان الأمر في شأن هذا الكتاب وصاحبه، فإنه من الثابت أن العلماء الذين جاءوا بعده قد اعتمدوا عليه واستفادوا منه بالنقل أو الاختصار حتى قيل إن مختصرات فلاحة ابن وحشية، بلغ عددها حوالى عشرة مختصرات[٣٣].

---

(٣٢) راجع (بروكلمان: تاريخ الأدب العربي جـ ٤ ص ٣١٩ ـ ٣٢٣ (الترجمة العربية)؛ عادل أبو النصر: الفلاحة النبطية لابن وحشية، دراسة جديدة لأثر زراعي قديم (بيروت ١٩٥٨)؛ تاريخ الزراعة القديمة (بيروت ١٩٦٠)؛ كوركيس عوّاد: مقال عن ابن وحشية في مجلة الزراعة العراقية جـ ٣ سنة ١٩٥٢، عبدالحليم منتصر: ابن وحشية وكتابه في الفلاحة (مجلة العربي ٢٠٠/١٨ ـ ١٩)؛ د. أحمد عيسى معجم أسماء النبات (القاهرة ١٩٣٠).

(٣٣) راجع (كتاب مفتاح الراحة لأهل الفلاحة لمؤلف مجهول من القرن الثامن الهجري ص ١٦».

وهناك الجراح المشهور أبو القاسم خلف الزهراء Abulcasis (٣٢٤ - ٤٠٣ هـ/٩٣٦ - ١٠١٣ م) نسبة في مدينة الزهراء بجوار قرطبة عاش في خلافة كل من عبد الرحمن الناصر وولده الحكم المستنصر وكتب كتاباً في الفلاحة، إلى جانب كتابه الطبي المعروف «التصريف لمن عجز عن التأليف».

ثم جاء من بعده تلميذه الطبيب والصيدلي «سالف الذكر» أبو المطرف عبد الرحمن بن وافد اللخمي الطليطلي، المسمى عند اللاتين Abel Mutar iph Eben Guefith (٣٨٨ - ٤٦٦ هـ/٩٩٨ - ١٠٧٤ م) كان وزيراً وطبيباً للملك يحيى المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة في عصر ملوك الطوائف. وكتب كتباً كثيرة في الطب وعلوم الأدوية المفردة مستعيداً مما كتبه علماء اليونان القدامى أمثال ديوسقوريدس وجالينوس، مصححاً لهم ومضيفاً إليهم من تجاربه الطبية مدة عشرين سنة. وقد أفرد له صاعد الطليطلي ترجمة وافية في كتابه «طبقات الأمم»[٣٤]، كما أورد ابن الأبار ترجمة له أيضاً في كتابه «التكملة لكتاب الصلة»[٣٥]، ذكر فيها أن هذا العالم ابن وافد كتب موجزاً في الفلاحة، وأنه كان على دراية بأصول هذا العلم، وأنه أشرف على غرس حديقة الملك يحيى المأمون على ضفاف نهر التاجو Tajo. وتوجد ترجمة قشتالية (اسبانية) لكتاب الفلاحة لابن وافد في المخطوطة رقم ٣٢٣ المحفوظة في مكتبة كاتدرائية طليطلة[٣٦].

على أن هذا العمل العلمي لابن وافد لم يلبث أن انطفأ نوره بعد قليل عندما ظهر عليه عمل فلاحي آخر لعالم طليطلي معاصر لابن وافد وهو أبو

= تحقيق ودراسة د. محمد عيسى صالحية ود. إحسان صدقي العمد، السلسلة التراثية - الكويت ١٩٨٤).

(٣٤) صاعد. طبقات الأمم ص ١٢٨

(٣٥) ابن الأبار: التكملة ص ٥٥١ (طبعة كوديرا، مدريد سنة ١٨٨٩).

(٣٦) راجع:

José Millás Vallicrosa Las traducciones orientales de Los manuscritos de la Biblioteca Catedral de Toledo p 96 (Madrid 1942).

عبد الله محمد بن البصّال، الذي كتب للملك يحيى المأمون بن ذي النون السالف الذكر، ديواناً في الفلاحة، بعنوان «القصد والبيان»[٣٧]

ولقد كان ابن البصّال موضع مديح العلماء الذين جاؤوا بعده أمثال أحمد المقّري الذي أشار إليه في كتابه نفح الطيب ومدح كتابه كعمل علمي ممتاز[٣٨]. وكذلك أبو زكريا يحيى بن العوام، الذي تبعه في كل خطوة من كتابه «الفلاحة في الأرضين» ومدحه في مقدمته بقوله: «واعتمدت على كتاب الشيخ أبي عبد الله محمد بن ابراهيم بن البصّال الأندلسي رحمه الله، وهو المبني على تجاربه وعمله..»[٣٩]. ولا شك أن هذه العبارة الأخيرة التي تؤيدها إشارات في هذا المعنى من كتاب ابن البصّال نفسه، تدل على أصالة هذا الكتاب كعمل علمي يقوم على خلاصة تجارب مؤلفه وخبراته الشخصية. ولأهمية كتاب ابن البصّال، اعتمد عليه كثيراً تلميذه الحاج الطغنري الغرناطي، كما اختصره البعض في ستة عشر فصلاً وصار متداولاً بين العلماء بعد ذلك.

وفي القرن الثامن الهجري (١٤ م) قام عالم من مدينة المرية Almeria يدعى أبو عثمان بن ليون التجيبي (٦٨١- ٧٥٠ هـ/١٢٨٢ - ١٣٤٩ م) بصياغة تعاليم ابن البصّال الفلاحية في أرجوزة شعرية عنوانها: «كتاب إبداء الملاحة وإنهاء الرجاحة في أصول صناعة الفلاحة»[٤٠].

---

(٣٧) يرى بعض العلماء أن كتاب الفلاحة لابن بصال ظهر في نسختين: الأولى كبيرة بعنوان «ديوان الفلاحة»، والأخرى صغيرة بعنوان «كتاب القصد والبيان»، وهي التي قام بنشرها وترجمتها كل من المستشرق الإسباني ملياس فاليكروسا، والأستاذ محمد عزيمان (معهد مولاي الحسن تطوان ١٩٥٥).

(٣٨) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيره لسان الدين بن الخطيب جـ ٢ ص ١٠٤ (طبعة دوزي).

(٣٩) راجع (بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٧٦) وكذلك (عادل محمد علي: علم الزراعة من خلال كتاب الفلاحة لابن بصال، مجلة المورد، مجلد ٦ عدد ٤ سنة ١٩٧٧.

(٤٠) راجع (ملياس فاليكروسا: فهرس المخطوطات الشرقية المترجمة المحفوظة في مكتبة كاتدرائية

وعلى الرغم من شهرة ابن البصّال العلمية، إلا أننا لا نعرف عنه سوى معلومات ضئيلة فلم يذكره بروكلمان في موسوعته، وسارتون في مقدمته. ويبدو أنه عاش في طليطلة إلى أن اشتد عليها ضغط الملك ألفونسو السادس سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م)، ففر إلى إشبيلية ودخل في خدمة ملكها المعتمد بن عباد، وأشرف على غرس بعض حدائقه. كذلك يبدو أنه قام برحلات إلى بعض بلاد الشرق مثل مصر والحجاز وصقلية، أفادته وزادت في خبراته.

هذا، وتجدر الإشارة هنا إلى أن المخطوط الطليطلي رقم ٣٣٣ السالف الذكر، قد حفظ لنا ترجمة قشتالية للعمل الفلاحي الذي كتبه هذا العالم الطليطلي ابن البصّال[٤١]

أما العالم الأندلسي الذي نال شهرة واسعة فاقت من سبقوه في العلوم الزراعية فهو أبو زكريا يحيى بن العوام الإشبيلي الذي عاش في القرن السادس الهجري (١٢ م)، وقام بتجارب عملية عديدة في ضواحي إشبيلية ولا سيما في جبل الشرف Al jarafe الذي اشتهر بأعنابه وزياتينه. وقد كتب ابن العوّام كتابه الكبير «الفلاحة في الأرضين» الذي يعتبر من أحسن ما كتب عن الزراعة وكيفية الاعتناء بها: تكلم فيه عن التربة وأنواعها وكيفية حرثها وإصلاح الفاسد منها. ثم تكلم عن السماد وأنواعه ومنافعه، وعن المياه وأنواعها وكيفية تخطيط مجاريها. كما أشار في هذا الصدد إلى طريقة الري بواسطة الجرار لتوفير مياه الري وذلك باستخدام جرار صغيرة تثبت بجذوع الأشجار بحيث تصل المياه بجوار الشجرة نقطة نقطة. وهذه الطريقة تستخدم حالياً في المناطق العربية الجافة وفي داخل

= طليطلة ص ١٠١ (مدريد ١٩٤٢) وراجع كذلك (مانفرد فلايشامر. كتب في الزراعة ص ١٠ (من أبحاث الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب - الكويت ١٠ - ١٤ ديسمبر ١٩٨٣).

(٤١) راجع (مليلس فاليكروسا: فهرس المخطوطات الشرقية المترجمة المحفوظة في مكتبة كاتدرائية طليطلة ص ١٠١)

البيوت البلاستيكية وتسمىٰ بطريقة الري بالتنقيط Dripping Irrigation لتوفير كمية مياه الري[٤٢]. كذلك شرح ابن العوام طرق زراعة وغرس النباتات والأشجار المثمرة وغير المثمرة، تناول منها ما يقرب من ٦٠٠ نبات منها ٥٥ شجرة مثمرة. ثم تكلم عن عمليات التطعيم، والتشذيب أو التقليم، ومكافحة الآفات والحشرات، والصقيع، والأمراض التي تصيب الأشجار، وطرق حفظ البذور والحبوب والتين والزبيب.. الخ. هذا إلى جانب ما ذكره في آخر كتابه عن تربية المواشي والدواجن والنحل، وكيفية تغذيتها وعلاج أمراضها. فالكتاب أشبه بدائرة معارف تاريخية عن الفلاحة فضلاً عن أنه يعطي فكرة عن مدى ازدهار الزراعة في الأندلس.

والواقع أن ابن العوّام قد جمع في كتابه نقولاً مسهبة من كتب من سبقوه من العلماء البارزين في صنعة الفلاحة. وقد أورد أسماءهم في مقدمة كتابه أمثال ابن البصّال وتلميذه الحاج الغرناطي[٤٣] (الطغنري)، وابن الحجاج الإشبيلي (ت ٤٦٦ هـ) صاحب كتاب المقنع في الفلاحة[٤٤]، وأبي الخيّر الإشبيلي[٤٥]، وعريب بن سعد. كما نقل عن كتاب الفلاحة النبطية (لابن وحشية)، وعن حكماء اليونان. هذا إلى جانب أعماله وتجاربه الخاصة التي تضمنها كتابه.

ولقد أشار المستشرق الألماني مانفرد فلايشهامر، في هذا الصدد، إلى

(٤٢) راجع (د. علي عبد القادر الباسل: تطور الزراعة عند العرب في العصور المختلفة ص ١٦. الندوة العلمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب، الكويت، ديسمبر ١٩٨٣)

(٤٣) أبو عبد الله محمد بن مالك الطغنري أو الطنجري في القرن الخامس الهجري وصاحب زهرة البستان ونزهة الأذهان توجد منه عدة نسخ خطية بالخزانة العامة بالرباط

(٤٤) أحمد بن حجاج: المقنع في الفلاحة تحقيق صلاح جرار وجاسر أبو صفية بإشراف عبد العزيز الدوري (عمّان سنة ١٩٨٢).

(٤٥) كتاب الفلاحة لأبي الخير الإشبيلي نشره القاضي التهامي الناصري وحققه محمد بن عبد الملك الرسموكي كما حققه أيضاً ابراهيم حمد مهاوش الدليمي (مركز إحياء التراث العربي بغداد ١٩٨٢).

ظاهرة النقل عند المسلمين، ونقلهم من كتب من سبقوهم كما فعل ابن العوّام مثلاً. وقد علل هذه الظاهرة بأن علماء المسلمين أرادوا من وراء ذلك إثبات أنهم لم يكونوا بدعة في زمانهم، بل جروا على نهج أسلافهم من العلماء فنقلوا عنهم ليكونوا بمثابة شهود إثبات على ما يقولون، كي تتصل الرواية والتجربة، وتترابط المفاهيم على أسس ثابتة منذ أن وضعها علماء العصور القديمة. وبهذا الاستعمال الصحيح المحكم يمكن الكشف عن أسرار الكون الذي خلقه الله(٤٦).

وقد نشر المستشرق الإسباني بانكيري I. A. Banqueri كتاب الفلاحة لابن العوام متناً وترجمة إسبانية في جزأين (مدريد ١٧٥١ ـ ١٨٠٢)، ثم نقله كليمان موليه Clément Mullet إلى الفرنسية في ثلاثة أجزاء (باريس ١٨٦٤ ـ ١٨٦٧)، وكتب العالم الألماني ماير Meyer خلاصة لكتاب ابن العوّام في Geschichte der Botanik، وكذلك فعل العالم الإسباني سانشث بيرث في كتابه فلاحة أبي زكريا, Sanchez Perez: La Agricultura de Abuzacaria) (Madrid 1922 كذلك نشر العالم السويدي مونكادا Moncada رسالة في غراسة الكرم لابن العوّام مع تعليق عليها (استوكهلم ١٨٨٩)، ثم نشرها منقحة ومزيداً عليها كانزونياري (روما ١٨٩٧)(٤٧).

وتجدر الإشارة هنا أيضاً إلى أن كتاب ابن العوّام كان له أثر كبير على كتابات بعض علماء إسبانيا المحدثين، ونخص بالذكر منهم جابرييل ألونسو دي هريرا Gabriel Alonso de Herrera في كتابه التاريخ العام للزراعة Agricultura General. وقد كتب المستشرق الإسباني دبلر Dubler مقالاً قيماً

(٤٦) مانفرد فلايشهامر: كتب في الزراعة، ملاحظات على مكانتها من التراث العربي. ص ١٢ والندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب، الكويت ـ ديسمبر سنة ١٩٨٣).

(٤٧) راجع كذلك (نجيب العقيقي · المستشرقون، ٣ أجزاء، دار المعارف ١٩٦٥).

عن الأصول العربية لكتاب هريرا في مجلة الأندلس العدد السادس سنة ١٩٤١ ص ١٣٥، ذكر فيه أن كتاب ابن العوّام كان من أهم مصادره[٤٨].

ولا يسعنا في ختام هذه الكلمة إلا أن ننوه بما أشرنا إليه آنفاً، من أن أهل الأندلس قد تميزوا بنزعة جمالية وميول طبيعية نحو حب النبات والورود والأزهار والأشجار، تلمسها بوضوح في أحواش بيوتهم، وفي صحون مساجدهم، وفي رياضهم وبساتينهم، وفي كتاباتهم وأشعارهم، بل وحتى في أصول تشريعاتهم الفقهية. فمنذ بداية الفتح الإسلامي لإسبانيا، اعتنق الأندلسيون مذهب إمام الشام ودفين بيروت عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (ت ١٥٧ هـ) لأن مذهبه الفقهي يهتم بأحكام الحرب والجهاد وهو ما يناسب وضعهم الحربي في الأندلس، ولأن مذهبه يجيز غرس الأشجار في صحون المساجد وهو ما يناسب ميولهم في هذا المجال أيضاً. وعلى الرغم من أن أهل الأندلس تركوا بعد ذلك مذهب الأوزاعي، واعتنقوا مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي (ت ١٧٩ هـ) إلا أنهم مع ذلك ظلوا متمسكين بأحكام الأوزاعي الخاصة بغرس الأشجار في المساجد وهو شيء لم يقره المذهب المالكي[٤٩]. كذلك أخذوا من مذهب الإمام المصري الليث بن سعد (ت ١٧٥ هـ) أموراً زراعية تتعلق بدفع إيجار الأرض عن الأجزاء المزروعة منها فقط، وهي مسألة لم يقرها مالك أيضاً. وفي ذلك يقول القاضي الغرناطي أبو الحسن النباهي (القرن ٨ هـ) في كتابه المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا: «ومن المسائل التي خالف أهل الأندلس فيها قديماً مذهب مالك بن أنس، هي أنهم أجازوا كراء الأرض بالجزء مما يخرج منها، وهو مذهب الليث بن سعد، وأجازوا غرس الشجر في المساجد وهو مذهب

(٤٨) راجع كذلك إلياس فاليكروسا: المرجع السابق ص ٩٢، بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٧٥.

(٤٩) لعل سبب هذا الرفض هو قذارة الأسمدة وروائحها وما تجلبه من حشرات وطيور وهوام في داخل المسجد. فضلاً عن مشكلة ثمار هذه الأشجار ومن هو صاحبها.

الأوزاعي»[٥٠] وما زالت هذه العادة الجميلة منتشرة في إسبانيا حيث نجد أشجار الليمون والبرتقال في صحن المسجد الأموي بقرطبة بل وفي الكنائس أيضاً.

د. أحمد مختار العبادي

---

(٥٠) راجع (الحسن النباهي المالقي: المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ص ١٤٩، نشر ليفي بروفنسال. القاهرة سنة ١٩٤٨)

الفهرس